المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٥ — ٢٩ صفر سنة ١٣٥٤

اثبات الابوّة

العلم يكاد يحلّ مشكلة قديمة

كواشف الدم الحديثة ومغزاها

اعترف المشترعون من قديم الزمان بالصعاب التي تحول دون اثبات الابوّة . فجاء في القانون الروماني ان « ان الوالد مشكوك فيه دائماً » Pater semper incertus وورد في التلمود انهُ لا يجوز بأيّ حال لرجل ما ان يقسم بانهُ والد طفل معيّن ، وان المرأة فقط لها ان تقسم فتقول « هذا ولدي »

من اقدم الوسائل المستعملة لاثبات الابوّة — ومحاكم بعض الامم لا تزال تعتمد عليها الى يومنا هذا — وسيلة اثبات التشابه بين الوالد والولد . وفي اكثر الاحيان يعتمد على التشابه العام في الطبيعة والقامة ، ولكن في بعض الحوادث ينظر في تفصيلات هذا التشابه في جميع الملامح . وقد اشار شكسبير في فقرة له اوردها في رواية « حكاية الشتاء » اذ قال « ... نسخة من الأب ، العين والانف والشفة ، لثغة العبوس ، والجبهة ، بل منخفض الذقن والوجنتين ، بسماته وقالب يده ونظره واصبعه .... »

في هذه الفقرة وما تقدمها وما تلاها من عبارة شكسبير حاولت بولينا ان تقنع ليونتس ان زوجة هرميونز كانت امينة على عهده وان الولد الذي رزقت به انما كان ولدهُ ، وهي تشبه ما تنطوي عليهِ مرافعات بعض المحامين في قضايا من هذا القبيل في عصرنا هذا

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان قضية نظرت في مقاطعة ڤيت في ولاية بنسلفانيا الاميركية سنة ١٩٣١ ادعى فيها ان رجلاً ايطاليًّا كان والداً غير شرعي لولد امرأة بيضاء ، فلما استعملت كواشف الدم الحديثة ، قطع الدكتور هيز Heise بأن ذلك الرجل لا يمكن ان يكون والد الطفل .

ولكن لما كان المحلّفون قد اقتنعوا بما جاء في مرافعة المدعي العام وهو ان الطفل يشبه الرجل المدّعى عليه في ملامحه ، ادانوا الرجل غير ملتفتين لشهادة الطبيب

من المعروف ان الاقارب يتشابهون في بعض الملامح ، ولكن ليس من المستغرب ان يتبيّن الناس شبهاً ما بين اثنين لا تربطهما صلة دم . ثم انهُ لما كانت الملامح متغيرة ابداً ، وخاصة في دور الانتقال من الطفولة الى البلوغ ، فمحاولة الحكم استناداً الى التشابه او عدم التشابه امر لا يصحُّ الاعتماد عليه . لذلك لا تسلّم القوانين في بعض الولايات — كولاية نيويورك الاميركية — بعرض الطفل على المحلّفين بقصد اثبات الابوّة او نفيها . وفي رواية « حكاية الشتاء » التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة ، لم يقتنع ليونتس بخطبة بولينا وما جاء فيها من الادلة على ان ولدهرميونز هو ولدهُ . ومع ذلك نرى محلفين في مطلع العقد الرابع من القرن العشرين يقتنعون بادلة من هذا القبيل — كما حدث في قضية الايطالي المذكورة سابقاً — ولكن القاضي لحسن الحظ كان رجلاً حكيماً ، فلما رأى الحكم مناقضاً للادلة ، اعلن ان المحاكمة لم تستوف جميع الشروط . وكان من شأن الزوجة المدعية على الايطالي ، انها لم تطلب محاكمة اخرى ، ثم لم تنقض مدة طويلة ، حتى اخذت ملامح الطفل في التحوّل . ويبدو عليهِ الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات ، ان ملامحهُ قريبة كلّ القرب من ملامح الزنوج

وعلى كل حال من الخير ، ان محاكم اليوم في بعض البلدان ، لا تعتمد على هذا النوع من التدليل الى المدى الذي كانت تعتمد عليهِ المحاكم في العصور القديمة . فقد روى المؤرخ استرابون ان الاطفال كانوا اذا بلغوا الشهر الثاني من العمر ، يعرضون على لجنة خاصة للفحص فكانوا اذا لم يبد على ملامحهم شبه كبير بملامح والديهم ، يعدمون

فليس من الغريب ان يعمد الناس في مختلف العصور الى ابتداع وسائل اخرى لاثبات الابوّة وقد كان الاقدمون يستندون الى الدم قوى خفية ، ولا يزال لهذه المعتقدات ماثلاً في لغاتنا في هذا العصر . ففي اللغة الانكليزية عبارة مشهورة مؤداها الدم يكشف الحقيقة blood will tell وغيرها كثير . والدلالة على هذه المعتقدات تذكر الوسائل التالية لتبيين صلة الدم بين فردين او اكثر من الناس منتزعة من كتب صينية ويابانية يرتدُّ عهدها الى القرن الثالث عشر

تؤخذ قطرة من دم كل من الشخصين اللذين يُظنّ ان بينهما صلة قرابة وثيقة ، بوخز اصبع كل منهما ، ثم توضعان في اناء فيهِ ماء . فاذا كان الشخصان قريبين امتزجت قطرة الدم الواحدة بقطرة الدم الاخرى . فاذا كان الوالد او الوالدة قد مات توضع قطرة الدم على عظمة من عظام الميت فاذا اخترق الدم العظم حتى لا يمكن غسله عنهُ ثبت ان بين صاحب قطرة الدم وصاحب العظم صلة دم وثيقة

اما في بلاد البوسنه فقريب العهد بالزواج من الشبان ، يأخذ طفله اذا ولد قبل تمام الشهر التاسع ويضعهُ على عتبة الباب فاذا وقع الطفل الى داخل البيت اثبت ذلك في رأي الزوج انهُ ابنهُ لا ريب فيهِ ، واذا وقع الى خارج البيت فهو ليس ابنهُ وينكره

وكثيراً ما يستشهد بحكاية الملك سليمان والطفل الذي ادّعتهُ امرأتان ، ويقال ان الطريقة التي عمد اليها كانت الهاماً من السماء . ولو ان الملك سليمان فعل الآن ما فعلهُ حينئذٍ لقيل عنهُ انهُ سيكولوجيّ بارع . ومما يحسن ذكرهُ ان الصحف الاميركية اشارت من سنوات الى حادثة يصحُّ ان تكون الطبعة الحديثة لقصة الملك سليمان القديمة . فقد جاءت امرأتان الى قاضٍ ، وادعت كل منهما انها والدة طفل معيّن . فقال القاضي انهُ لما كان لا يملك وسيلة تمكنهُ من معرفة من هي امهُ حقيقة ، فقد قرّر ان يبعث بهِ الى أحد الملاجىء العامة . فارتاحت احدى المرأتين الى هذا القرار وقالت كذلك ، لانها تفضل ان يبعث بالطفل الى ملجإ عام على أن تحوزه المدعية الاخرى . ولكن السيدة الثانية قالت انها تتنازل عن ابنها تخصيصها لانهُ يحرم في الملجإ محبة الأم وعنايتها . فحكم القاضي للسيدة الثانية بالطفل

ولكن هناك طريقة اقرب الى المبادىء العلمية قد يمكن الاعتماد عليها أحياناً في اثبات الابوّة . فقد يكون في أحد الوالدين او في كليهما خواص تشريحية معينة غير سوية تظهر في بعض اولادهما او في جميعهم . ومن أبرز هذه الصفات التشريحية التي تنتقل بالوراثة ما تصاب بهِ الأصابع من تشويه . وللدلالة على دقة انتقال هذه الصفات بالوراثة نثبت هنا خلاصة قضية رفعت سنة ١٩٢٦ . فقد كان الوالد متميزاً بقصر غير سوي في الاصبع الثانية والاصبع الثالثة والاصبع الرابعة في اليدين والقدمين ، سببهُ عدم نموّ العظام الخاصة بها ، وكان ابهاما اليدين سويين . ولكن قاعدة ابهام القدم كانت قصيرة . فلما خمن الطفل وظهرت هذه الصفات التشريحية فيهِ ، حذوك النعل بالنعل ، حكم في القضية بأن الرجل والد الطفل لا ريب فيهِ

ولما كانت بعض هذه الصفات التشريحية غير السوية تنتقل بالوراثة على انها صفات مغلوبة لاغالبة (recessive) فقد تظهر في اولاد والدين يبدو لنا انهما سويّان . وقد ظنَّ الناس يستدون هذه الصفات ، حتى عهد قريب ، الى بعض ما تراه الامُّ او تحسُّ بهِ في اثناء الحمل . والاعتقاد قديم في ان الحامل اذا شاهدت مشهداً مخيفاً أو قبيحاً يبدو أثر ذلك في طفلها . وقد استعمل الكتّاب والشعراء أمثال شكسبير وغوته ودكنز هذه المعتقدات في كثير من مؤلفاتهم . بل ان آرثر شنتزلر وهو من مؤلفي العصر الحديث ، قصَّ قصة امرأة ولدت طفلاً زنجيًّا على أثر زيارتها ملهى من الملاهي في فينا كانت جماعة الممثلين فيهِ من الزنوج . ولما كان زوجها يثق كل الثقة بها ، اقتنع بأن الحادث يفسر بالاعتقاد المتقدم . وعمد الى جمع ما ذكر عنهُ في كتب الادب . ولكن في رواية شكسبير التي عنوانها « تيطس اندونيكوس » تحاول الزوجة تامورا ان تقتل طفلاً اسود ولدتهُ لانها تعلم ان زوجها لا يقتنع بما يقال في تفسير ذلك . وقد روى العالم طمسن Thomsen من عهد قريب حادثة وقعت في بلاد الدنمارك ، خلاصتها ان امرأة ولدت ولداً غير شرعيّ ، كانت اصابعهُ متصفة بصفات تشريحية خاصة تمتاز بها اصابع مخدّمها . فعرضت المسألة على المحكمة فرفضتها ،

وعللت المحكمة ذلك ، بقولها ان مشاهدة المرأة الدائمة لتلك الصفة في اصابع عقدتها أثرت فيها فظهرت في طفلها . وهذا يبين لنا مقدار ما نلقاه من الصعوبة في تبديد بعض الأوهام العامة العالقة بالأذهان

***

لم يحلّ العلم حتى الآن مشكلة اثبات الابوّة حلاً تامًّا . ولكن بعض الوسائل الحديثة ، القائمة على حقائق علمية لا تقبل الجدل ، تمكن الباحثين الآن من الحكم حكماً صريحاً في بعض هذه القضايا . وهذه الوسائل وليدة فرع جديد من فروع الطب يعرف بعلم المصول serology

فالدم مؤلف — في حدود موضوعنا — من الكريات الحمر وهي التي تلونهُ بلونهِ الأحمر و«البلاسمة» (يعرف السائل المصفّر الصافي الذي يبقى بعد تخثر الدم بالمصل serum والمصل بعض البلاسمة). ففي الكريات الحمر في دم الانسان مادتان تدعى كلٌّ منهما « أغلوتينوجين » [1] احداهما توسم بحرف (A) والثانية بحرف (B) . فاذا كانت هاتان المادتان في دم انسان ما قيل انهُ من فريق (AB) فاذا كان دمهُ خالياً منهما قيل انهُ من فريق (O) فاذا كان يحتوي على مادة (A) فقط قيل انهُ من فريق (A) واذا كان يحتوي على مادة (B) قيل انهُ من فريق (B)

وفي مصل الدم مادتان تدعيان « اغلوتينين الفا » و « اغلوتينين بيتا » [2] . فاذا مزج مصل محتوٍ على مُلبِّد (اغلوتينين) الفا بكريات حمر محتوية على اغلوتينوجين A (اي اذا كان من فريق A او من فريق AB) تلبدت هذه الخلايا ، وظهرت كتلاً كتلاً ، أو هي قد تتلاشى. ولكن ملبّد الفا لا يؤثر مطلقاً في خلايا حمر لا تحتوي على اغلوتينوجين A (اي انهُ لا يؤثر مطلقاً في كريات حمر من دم رجل في فريق O او فريق B) . وعلى المنوال نفسهُ يؤثر ملبد بيتا في تلبيد الكريات الحمر المحتوية على اغلوتينوجين B (اي اذا كان من فريق B او فريق AB) ولا تؤثر مطلقاً في خلايا دم من رجل في فريق O او فريق A

ومن الطبيعي ان رجلاً من فريق A لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبّد الفا والاّ تلبدت كرياتهُ الحمر ومات ختقاً لعجز الكريات الحمر عن القيام بعملها وهو نقل الاكسجين من الرئتين الى الاعضاء ونقل ثاني اكسيد الكربون من الاعضاء الى الرئتين . وكذلك نرى ان رجلاً من فريق B لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبد بيتا للسبب عينهِ فبحسب هذه القواعد يمكن تقسيم الناس على اختلاف سلالاتهم والوانهم الى اربعة فرق متميز احدها عن الآخر

***

أما طريقة استعمال هذه الحقائق في اثبات الابوّة فعلى جانب من السهولة . فكل ما نحتاج اليهِ

(١) معنى لفظ مولد الملبد والتلبد أو الالتباد ترجمة لـ agglutination وهو التصاق بعض الجسيمات الصغيرة كالكريات أو الميكروبات الدقيقة بعضها ببعض فتتألف منها كتل (٢) ترجمت «ملبد» لانه اذا انضم بالمادة الاولى لبنها. وقد استعملنا بالحروف الفرنجية في الدلالة على هذه الفرق لانها أصبحت بمثابة أعلام

هو بعض الكريات الحمر المأخوذة من دم الطفل الذي يراد اثبات ابوته ، ومزجها بمحلول ملحي خاص . ثم يؤخذ مصلان ، احدهما يحتوي على ملبد ألفا (اي من دم رجل من فريق B) والثاني يحتوي على ملبد بيتا (اي من دم رجل من فريق A) . ويمكن الحصول على هذا المصل بأخذ مقدار من الدم وتركه حتى يتخثر فينفصل المصل عن سائر محتويات الدم

ثم تمزج قطرة من محلول الدم بقطرة من احد المصلين ثم تمزج قطرة اخرى من محلول الدم بالمصل الثاني . فاذا تلبدت الكريات الحمر في محلول الدم بالمصلين فصاحب الدم من فريق (A B) . واذا لم تتلبد على الاطلاق فهو من فريق (O) . واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد ألفا فهو من فريق (B) واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد بيتا فهو من فريق (A)

ثم يفحص دم الرجل الذي يراد اثبات ابوته او نفيها ، بالطريقة نفسها . فاذا ظهر ان دم الطفل من فريق (O) وان دم الرجل من فريق (A) فالرجل اذاً ليس والد الطفل . وهذا الحكم قاطع . اما اذا ثبت ان دم الطفل ودم الرجل من فريق واحد من الفرق الاربعة فعندئذ يحكم بأنه من الممكن ان يكون الرجل والد الطفل . وهذا كل ما يقال الآن استناداً الى هذه الكواشف

ومما يسهل الاعتماد على هذه الطريقة في اثبات الابوة او نفيها ، في نطاقها المحدود ، ان مكان الطفل من فرق الدم يمكن تعيينه بعيد الولادة ، وانه لا يتغير بعد ذلك مدى الحياة ، وانه يتوارث بحسب قواعد مندل في الوراثة . وهذه حقائق اثبتها العلماء ولا تقبل الريب الآن

ويروي الدكتور الكسندر ويتر (كاتب هذا المقال في عدد ابريل من المجلة العلمية الشهرية) انهُ من عهد قريب اتهمت سيدة من مقاطعة نيوهايشن رجلاً بأنه والد ابنها غير الشرعي . فانكر المتهم التهمة الموجهة اليه ، ولكن الرأي العام كان ضد الرجل . فبعث بدم الرجل ودم السيدة ودم الطفل الى كاتب المقال وهو من قسم الباثولوجيا في احد المشافي الكبيرة بنيويورك فامتحنها جميعاً وثبت له من الامتحان ان الرجل المتهم من فريق (A) والمرأة من فريق (O) والطفل من فريق (B) ولما كان كريات دم الطفل تحتوي على اغلوتينوجين (B) وهو غير موجود في كريات دم الام ، فوالد الطفل يجب ان يكون من فريق (B) او فريق (A B) والمتهم ليس منهما . ولما واجهت المحكمة المدعية بهذه الحقائق استردت تهمتها وبرئت ساحة الرجل . فحال امتحان الدم في هذه القضية دون انحراف العدالة

ولكن لنفرض ان امتحان دم الرجل المتهم اثبت انه من فريق (B) او فريق (A B) كما يجب ان يكون والد الطفل . فهل يثبت هذا ان الرجل والد الطفل حقيقة ! كلاّ . اذ اي رجل من فريق (B) او فريق (A B) يمكن ان يكون ذلك الوالد . فقائدة هذه الطريقة انما تنحصر في ابعاد الشبهة عن رجل متهم اذ ثبت انه من فريق غير الفريق الذي تتوافر فيه الشروط المطلوبة ، ولا تمتد الى اثبات الابوة بالمعنى الدقيق

الاّ ان العلم يأبى التسليم بالخذلان ، وفي جعبته فراغ ومالٌ للبحث وذكاء للابتداع . وكذلك

والى العلامة لاندشتينر بحثهُ بالتعاون مع طبيب آخر يدعى لفين Levine فوجدا سنة ١٩٢٧ مادتين جديدتين في الكريات الحمر بدم الانسان تولدان الملبدات (اي من قبيل اغلوتينوجين A و B) فدعيا الواحدة اغلوتينوجين M والثانية اغلوتينوجين N وكان قد فات الباحثين كشفهما لانهُ لا توجد عادة ملبدات في مصل دم الانسان وبعض الحيوانات تؤثر فيهما . ولكن بحقن هاتين المادتين في عروق الارانب والهررة والماعز يمكن الحصول على الملبدات الخاصة بها . وهاتان المادتان والملبدان اللذان يقابلانهما لا صلة لهما مطلقاً بالمواد A و B والملبدين الفاويتا . فيمكن اذاً تقسيم الناس تقسيماً آخر بحسب المادتين M وN وملبديهما الى ثلاثة فرق جديدة أحدها فريق M في دمهِ اغلوتينوجين M فقط والثاني فريق N ودمهُ يحتوي على اغلوتينوجين N فقط والثالث فريق M N ودمهُ يحتوي على المادتين معاً. وقد فُحص حتى كتابة هذه المقالة ٣٠ الف رجل واحرأة وطفل فلم يوجد ان دم احدهم خالٍ من احدى هاتين المادتين MوN

وفي سنة ١٩٢٨ اثبت لاندشتينر ولفين ان هذه الخصائص الدموية الناشئة عن وجود مادتي N وM تورث بحسب قواعد منذل واذن صار من الممكن الاعتماد عليها في اثبات الابوة

قلنا في ما تقدم انهُ اذا توزع في ابوة طفل وكان دم الطفل يحتوي على اغلوتينوجين A وجب ان يكون والده من فريق A او من فريق A B. فاذا كان الرجل المدعى عليهِ من فريق B أو O فلا يمكن ان يكون والد الطفل . وكذلك يبرأ . أما اذا كان المدعى عليهِ من فريق A اوفريق A B وكان زوج المرأة الشرعي كذلك ،فلا يمكن بحسب هذه الكواشف ان يعين من والد الطفل وكل ما يمكن ان يقال ان الرجلين من فريق الرجال الذين يمكن ان يكون احدهم والد الطفل فبإضافة الكواشف الخاصة بمادتي NوM اللتين تقدم ذكرهما يمكن الوصول الى تحديد أدق في هذا العدد

خذ مثلاً على ذلك القضية التالية . كان محمود نزاعاً على ابوة طفل . وكان زوج والدة مستعداً ان ينفق على الطفل بصرف النظر عمن كان أباه . ولكن المرأة اصرت على انها لا تسكن الاَّ والد اينها الحقيقي . وكان الرجلان من فريق A وكذلك الطفل . فتعيين الواحد دون الآخر لم يكن ممكناً بحسب الكواشف الاولى . فلما امتحنت دماء الاربعة لتبين ما فيها من مادتي

الزوج A ، M العشيق A ، N الزوجة B ، M الطفل A ، M

فتبين ان الزوج هو والد الطفل، لانه لا يمكن ان يرث الطفل مادة (M) من والد ليس في دمه الاَّ مادة (N) . ولكن الزوجة خرجت على قرارها الاول واختارت ان تلحق بعشيقها . وفي حادثة اخرى كان النزاع على ثلاثة اولاد . فنكتفي بنتائج بحث الدم للمادتين (A وB) وللمادتين (M و N)

الزوج M N, O[1] العشيق A, N الزوجة M N, O الولد الاول M N, O الولد الثاني M N, O الولد الثالث A, N

(١) أي ان دمه لا يحتوي مادتي A ولا B ويحتوي على مادتي M و N

ولما كان الوالدان اللذان من فريق O لا يمكن ان يلدا الا اولاداً من فريق O فالطفل الثالث لا يمكن ان يكون ولدهما بل قد يكون ولد العشيق

اما البلدان التي تعتمد على كواشف لاندشتينر لاثبات البنوة في اوربا فهي النمسا والمانيا والدنمارك وايطاليا والسويد . ولكن الاعراض عنها في اميركا يكاد يكون تاماً لولا حوادث متفرقة في ولايات كونكتكت واوهايو والينوي وبنسلفانيا . ومع انه من الحكمة التريث قبل استعمال المكتشفات العلمية في الاوضاع القانونية الا ان الثقات يذهبون الى ان كواشف الدم لاثبات البنوة في النطاق المحدود الذي رسمناه قد خرجت من دور التجربة ويصح الاعتماد عليها

***

ويجدر بنا في هذا العدد ان نذكّر ان اول من كشف فرق الدم ، كما بيّناها في ما تقدم كان الطبيب لاندشتينر النمسوي وهو الآن من اطباء معهد روكفلر الطبي في نيويورك وقد احرز جائزة نوبل الطبية من سنوات

وقد كان لاندشتينر كذلك اول من اقترح الاعتماد على هذا التقسيم في عمليات نقل الدم من سليم الى مريض . ولهذا الاقتراح ، شأن خطير في تقدم بعض ضروب العلاج الحديث . ففي العمليات الاولى التي عولج بها بعض المرضى بنقل الدم اليهم استعمل دم الحملان (دنيس سنة ١٦٦٧). فتلا ذلك ردُّ فعل مميت . وظلَّ الاطباء في حيرة من هذا الامر الى ان ثبت لهم ، ان مصل دم الحيوانات يليّد الكريات الحمر في دم الانسان او يلاشيها . وان مصل دم الانسان يليد الكريات الحمر في دم الحيوانات كذلك (لاندوى سنة ١٨٧٥) . فعدل عن هذه الطريقة الى طريقة نقل الدم من انسان الى انسان ، وحجة القائمين بها حينئذٍ ، انهُ ما زال الناس من نوع واحد ، فهذه الطريقة يجب ان تكون سليمة . ولكن بعض الحوادث التي نقل فيها الدم من انسان سليم الى انسان مريض عقبها ردُّ فعل مميت . وظلَّ الامر سرًّا مكتوماً عن افهام العلماء حتى جاء لاندشتينر وبيّن ، ان الناس اربعة فرق من حيث بعض خواص الدم وانهُ اذا نقل الدم من رجل سليم من فريق B الى رجل مريض من فريق A عقب النقل ردُّ فعل مميت لان مليّد الفا في دم الرجل السليم يليد الكريات الحمر في دم الرجل المريض

واعتماداً على اكتشاف لاندشتينر هذا يمكن الآن القيام بعمليات نقل الدم من سليم الى مريض على اهون سبيل ومن دون تعريض المريض لخطر الموت على شرط ان يفحص دما الرجلين قبل العملية للتثبت انهما من فريق واحد . واذا علمت ان عشرة آلاف عملية من هذا القبيل تعمل كل سنة في مدينة نيويورك وحدها ادركت مقام هذا الاكتشاف في الطب الحديث

سجل هذا الكتاب برقم

لورنس

العسكري والرجل والثورة العربية

Lawrence of Arabia (١)

كان غرضهُ من ساعة دخولهِ الميدان مزدوجاً — ان يبدّد ما أحاط بمقام بلاده من الغيوم في الشرق الادنى بانشاء دولة عربية تتكىء عليها بريطانيا في خطتها الحربية ، وان يحرّر العرب من نير الاتراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديهِ أبدع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت باشراف لورنس في خلال الحرب ، كان لها شأن كبير في شل قوى الاتراك وتفخ روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملا حيويًّا في هزيمة الاتراك ونصر الانكليز . ثم ان تيار الثورة العربية الذي امتدَّ من مكة الى دمشق انتهى الى انشاء دولة عربية في سورية

أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناء الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الاعتراف ، ولكنهُ خرج في سنة ١٩٢١ من عزلتهِ في اكسفورد فوجه سياسة دولتهِ توجيهاً كان من شأنه ان منح فيصل مُلْكاً جديداً بعد أن سلبهُ الفرنسيون ملك الشام . وأقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدها وهي في مهدها أهم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الاخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراكاً فعالاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون ، عاملاً قويًّا في ميدان السياسة يجب ان يحسب حسابهُ . فالصال العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد يسوّغ من الناحية التاريخية تلقيب لورنس — وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس أوف ارابيا

ولكن هناك تسويغ اهم شأناً وابعد اثراً وهو التسويغ النفسي . فالالقاب الجغرافية . تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراء اندماجاً تامًّا

كان لورنس يحبُّ التجوّل من حداثتهِ ، ويميل الى العزلة بفطرتهِ . فكان يقضي ساعات فراغهِ في حداثتهِ يتتبع الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الخزف الروماني القديم او

(١) ملخص فصل انشأه ليدل هارت Liddel Hart احد النقدة العسكريين الانكليز في كتابه «العظماء المعاصرون» الذي نشره محل كامل في اوائل هذه السنة ويؤلف الفصل كتاب حديث في سيرة لورنس

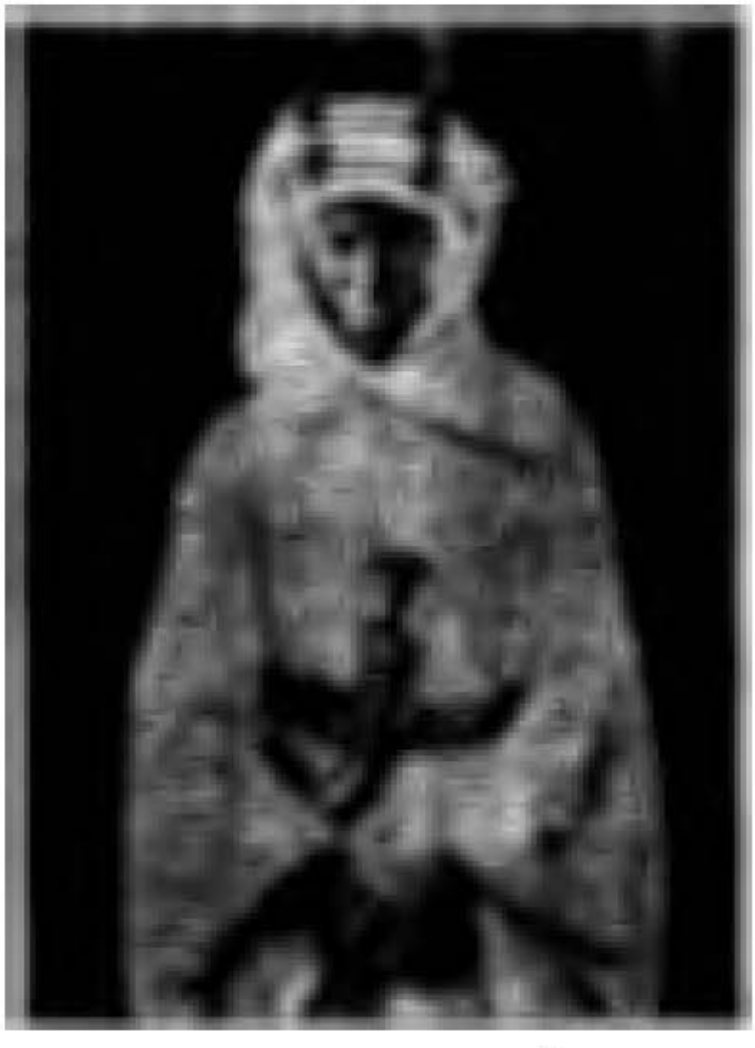

الكولونل لورنس بملابسه الرسمية

Colonel T. E. Lawrence

يرود وحدهُ الكاتدرائيات والتصور القديمة معنيًّا بتفصيلات هندستها المعمارية

وفي حداثته كذلك تجوّل في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على الاقدام ، في حرارة العطلة الصيفية ، باحثاً في قصور الصليبيين منقباً عن آثار الحصين . ثم عاد اليها في السنوات السابقة للحرب ، لممارسة اساليب البحث الاثري . فلما توقفت اعمال التنقيب في قرقميش جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليونان . وكان يصحبهُ في بعض رحلاته احد ابناء البلاد . وكان يرتزق في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انهُ اشتغل مرة مع زمرة العمال في بور سعيد في تعبئة احدى البواخر بالفحم . وقد اشار الى ذلك في بعض كتاباته فقال: «كنت دائماً رائحاً وغادياً حيث كان الرواح او الغدوُّ رخيصاً » . وقال ايضاً : « حملني فقري على الاتصال بالجماهير ، حيث السائح الغني يتفصل عنها بمالهِ ومَن يتولى خدمته» . وكذلك افلح لورنس ، بتخلّيهِ عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورتهِ مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اوربيًّا لبلاد العرب . فكانت لا تهشُّهُ مظاهر الاحترام ، التي يطلبها ويتوقعها الزوّار الاوربيون وبوجهٍ خاص الزوار الانكليز . وقد مهَّد له هذا السبيل انعتاقه من قيود الشعور بان الناس طبقات فاندمج في العرب وساز احدهم بالانتساب

ولكي يسهل الامر عليهِ ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجوالهِ . وحجتهُ في ذلك « انهُ اذا ذهب بعض العرب الى وغن (وهي بلدة صناعية في لانكشير) بثوابهم العربية فالغالب ان اولاد وغن يرجمونهم بالحجارة »

فالاختلاط بالاطفال يقتضي ان تجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصيهم عنك . ولعل هنالك من يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاشقر ، وذقنه الحليق ، وبشرته التي تحمرُّ من وقع الشمس بدلاً من ان تسمرَّ ؟ بيد انَّ هنالك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث اقضى اختلاط السلالات الى كون بعض ابناء البلاد شقراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الاَّ معرفة ناقصة . قال : « كان من المستحيل عليَّ ان احسَب عربيًّا ، ولكنه كان من السهل ان احسب احد ابناء البلاد الذين يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخطَّى في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحهِ وهو مقدرته على فهم العرب . فقد كان هذا الفهم ميسوراً له لان روحه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للحرية المطلقة . وكان مثلهُ مجرداً من اية رغبة في حيازة المستلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالياً بخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرَّ فهمه للعرب . فبهذه الملكة استطاع ان يتبين انه لا توجد بينهم فوارق طبيعية او تقليدية ، الاَّ فارق القوة التي يمتاز بها شيخ من الشيوخ نتيجة لعمله . قال: « وقد علمتني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الاَّ اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وعاش في مستواهم على ان يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم » . هذه المعرفة عند التطبيق كانت سرّ نجاح لورنس في صلته بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين بعثوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . فهذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصاعب وبيان لما تقتضيه من الجهد

ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امضِ في الطريق الى نهايتها . اترك اصدقاءك الانكليز وعاداتهم على الشاطىء واتبع عادات العرب بمذاقيرها . . . . على ان جهد المعيشة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تفهمهُ الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل الغزال وسكون ، واستحالة تراخيك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهوراً متوالية ، كلُّ ذلك مضافاً الى المصاعب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبئاً ثقيلاً ، فعليه ألاّ يختار هذه الطريق الاّ بعد تأمل وتفكير عميق

« ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الونى عن درسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلذُّ لهم ، وتبيَّن مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفهُ لنفسك . . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »

في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجهٍ عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم ظفر اوتيهِ لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدرتهِ كزعيم عسكري ، على اخوانهِ الضباط الانكليز الذين اتصلوا بهِ اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعث على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادته . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين ، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو برهان كذلك على صفاتهِ العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسّر مقامهُ هذا بعض التفسير بايراد العبارة التي قالها ڤولتير في القائد مولبورو : كان يمتاز عن سائر قواد عصرهِ بشجاعتهِ الهادئة في وقت الصخب ، وبطمأنينة نفسه في زمن الخطر ... وهما أعظم ما تهبهُ الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء اكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن باسم لورنس والغموض الذي أُضفي على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بفنون الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمدُّ من عملهِ العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعمق معرفة بقواعد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الاخير باعثاً على الاستغراب عند النظرة الاولى . ولكنهُ في الواقع قول صحيح. فلا ريب في ان طائفة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنهُ كان يمتاز عليهم في كل ناحية اخرى. وقد ساعده على ذلك شبابهُ. كان معظم هؤلاء القواد قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في سبيل الارتقاء من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابهم اما ضباطاً في «المدفعية»، او في «المشاة» او غيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا بهِ فقدت اكبر جانب من قيمتها بارتقاء وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما تخطوا هم دور الشباب . ولكن لورنس توفر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شابٍّ متحمس ذكيٍّ ، ثم إنهُ لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعهِ الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة مما لا يستغني عنهُ القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انهُ لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتمَّ مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاء التي وقعوا فيها

كان لورنس في حداثتهِ قد وثَّق معرفتهُ بالتاريخ وبنظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعاتهِ في هذا الموضوع . بدأ وهو في السادسة عشرة بمطالعة ما كتبهُ كرسي وناپيير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهؤلاء كانوا في الغالب جهد ما يبلغهُ القائد البريطاني في دراستهِ العسكرية . ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز ولتز وجومينى وجولتز وفوش . ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نپوليون التي تملأ اثنين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نپوليون قواعد خططهِ العسكرية فانكبَّ على دراسة جيبر وبورسه وساكس . وكذلك نرى هذا الطالب الفتى يتتبع الخطط النپوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيهِ هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعاتهُ في التاريخ العسكري ، الا ناحيةً واحدة فقط من مطالعاتهِ الواسعة النطاق، حتى لقد قيل انهُ قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد اكسفرد . ولكن الصحيح انهُ قرأ كل كتاب لذَّت له قراءتهُ فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رفٍّ من الكتب في موضوع يهمهُ ، فيتصفح بعضها ويأخذ معهُ الى داره ما يهمهُ انعام النظر فيهِ . فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزينة في اليوم ورواية بعد الظهر استجماماً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعاتهِ يعمد الى المراجع ولا يكتفي بالنتف والملخصات

ومما كان لهُ اثر عظيم في تنمية مطالعتهُ لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهَّدوا للثورة الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلتهُ فذّاً بين قوَّاد عصرهِ . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرتهُ وعناصر شخصيته القوية حوَّل معرفته العسكرية النظرية الى عبقرية عسكرية عملية نادرة

مكنتهُ عبقريتهُ هذه من التغلُّب على حوائل لم يتعرَّض لها كبار القوَّاد في الحرب الكبرى. كان عليهِ ان يكون قائداً من دون قيادة. وزعيماً لا يسمعُ الاَّ افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد. وكان جيشهُ مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة أحياناً. أما وسائل الحروب الحديثة، التي درسها لورنس وعرف مزاياها، فكانت غير متوافرة لديهِ فاضطرَّ ان يعتمد على قوة ابتداعهِ، لابتكار الخطط التي تمكنهُ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيهِ. بل ان اكبر العوائق التي قامت في سبيلهِ كانت اقناع رؤسائهِ بقيمة هذا الجيش في الصحراء، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر. ان ما تمَّ على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري. فقد نظمت الثورة العربية، وتحوَّل احتلال الاتراك للجزيرة الى حامية محصورة، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبَّة الريح. وقد كان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربيّ. فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الاتراك. فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب بهِ الجيش الانكليزي في غزة، وتفويتاً لاضرارهِ، وأزال كلَّ خطر يهدِّد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس. ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب، كان لهُ الى جانب هذه النتائج السلبية، نتائج ايجابية، لان عدد الاتراك الذين عهد اليهم في حماية سكة حديد الحجاز، والبلاد التي الى جنوبهِ، كانوا اكثر من الاتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين، أي بعد احتلال القدس، كانت القوات العربية، كالجنّ يحمي مؤخرة الجنرال اللنبي، ويستوقف نظر الاتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواهم بين فلسطين والصحراء. وقد بدأت خدمة العرب هذه، بعناية لورنس بتدمير قطارات سكة حديد الحجاز، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع، حتى لقَّبه المعجبون بهِ من العرب «بمدمر القاطرات». ولما كانت ذخيرة الأتراك من القاطرات أقلَّ من ذخيرتهم من الرجال، كان تدمير القاطرات افعل في اضعافهم من قتل الرجال. ثم قطع العرب موارد الاتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً. وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يسترعوا عناية الاتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش اللنبي قد نقل الى فرنسا لتعويض خسائر الحلفاء في مياديها

ثم انهُ جاء الى هذه حال دون تجميع الاتراك لقواتهم، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني، فمهَّد خير تمهيد، لضربة اللنبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨. وقد اعترف الجنرال لمان فون ساندرز انهُ تخلَّى عن فكرة مقاومة الانكليز لانهُ عجز عن صدّ ثوَّار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان اللنبي مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي ، المرابط الى جنوب دمشق مضطراً ان ينصرف عن مقاومة اللنبي خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء. وكذلك استطاع اللنبي ان يهاجم الاتراك بقوة تفوق قوتهم خمسة اضعاف . وكان لورنس في الشهر السابق قد خدع الاتراك بسلسلة من المناورات ، فحملهم على الظن ان هجوم اللنبي سوف يجيء من الشرق من ناحية عمان بدلاً من الشمال من ناحية الجليل . وفي الايام الثلاثة الاخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة ، خرج العرب من مكامنهم ونسفوا خطوط السكة الحديد الى الشمال من درعا والى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الاتراك . فتضعضعت هذه الضربة الاتراك اذ كان اللنبي مستعداً للانقضاض عليهم فسحقهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطيارات البريطانية وفصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار . ولم يبق امام البريطانيين الا الجيش التركي الرابع ،وهو اقوى وحدات الاتراك . فاقدم لورنس بفصيلة من العرب على الزحف الى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدداً فانهكه التراجع، وعند ابواب دمشق التقى العرب باكبر شرذمة منهُ فاجهزوا عليها ، ودخلوا دمشق امام الانكليز

لم يكن احتلال العرب لدمشق ، تزكية لثورتهم فقط ، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس، وتأييداً لنظرية عسكرية مضى عليه زمن وهو يطبقها. واذا كانت بزور هذه النظرية قد زرعت في ايام المطالعة اذ كان لا يزال طالباً في اكسفرد ، فان ميعاد القطاف جاء في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس، وامامه من الوقت متسع للتفكير والتأمل. فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع ان يعالج القوة التركية في الحجاز ، وكانت حينئذٍ مجتمعة في المدينة . فالخطط الحربية المتبعة كانت تقضي ببذل الجهد لاخراجهم من المدينة . ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف شعور العرب من قتل الحرب . واذ هو يفكر هبط الجواب عليه، كأنهُ نفحة من الالهام . فقال : ولماذا نهتم هذا الاهتمام بالمدينة وحاميتها . انافتتاحها الآن متعذر. ولكن ما الفائدة من افتتاحها على اية حال. بل اليس من الضرر ان نفتتحها ؟ واليك ما كتبهُ في هذا الصدد

«ان الاتراك فيها مدافعون لا يتحركون ، يتغذون بلحم الحيوانات التي يجب ان تستعمل لنقلهم الى مكة . انهم وهم مرابطون في المدينة لا يستطيعون ان ينالونا باذى . فاذا اسرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر . واذا اخرجناهم من المدينة ودفعناهم امامنا الى الشمال انضموا الى الجيش التركي المرابط لنا في سيناء . فالافضل ان يبقوا حيث هم . هم يهمهم البقاء في المدينة . فليبقوا فيها »

على ان لورنس لم يكتف بهذا . بل قال في نفسه ، ولماذا لا نعمم هذه الخطة ، فنطلقها على جميع الاماكن التي يمكن حصر الترك فيها . « فالاتراك يحتاجون عندئذٍ الى ستمائة الف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب . وليس عندهم الا مائة الف »

ثم هناك ناحية اخرى . كانت ذخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي اكثر من الادوات الحربية اللازمة للنزال . لذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقعة تركية ، اكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي تمثله صحراء لها اول ما لها آخر . اما نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مواد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب الا نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تكون اقرب ما يكون الى متناولنا »

هذا الابتداع في الخطط الحربية ، اذ درس مقترناً بنتائج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسمه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات . بل انه ذو عبقرية فذة في تدبير الخطط العسكرية ، وقد استشف بثاقب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمقبلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشيء عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وها نحن نرى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل اقناء المحاربين . وقد اثبت ليدل هارت بكتاب وردله من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خططه هذه في تطبيقها على الحروب بوجه عام

***

فلما تُحجب الحقيقة المنطوية في القول المأثور « ان التاريخ يعلمنا اننا لا نتعلم وزناً لعبر التاريخ » عن رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا باعثاً له على الشعور بوجوب الانفصال عن الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فانتظم « نفراً » في سلاح الطيران الجوي البريطاني ولم يقبل الا ان يكون « نفراً » فيه . واتفق ساعات فراغه في دراسة الآداب القديمة وقد اخرج للناس من سنتين ترجمة جديدة لالياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تاماً — وقلما تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افضت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق العنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، أذية أصحابها وخلطائهم والقضايا التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاء ذهني كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرته اثبتت له تنافرهما . فأطبق « فراملَ » التأمل على « جيلات » العمل وقال لنفسه الى هنا وكفى

كان في السادسة والعشرين من عمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحرز

لقب « فارس » قبل ان يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين اذ كان تحقيق هذه الاغراض في متناول يده . ولكن المطمح الذي ظلّ قائماً في نفسه وهو في طريقه الى دمشق ، كان العمل دون الابهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المطمح الى الرياح . اقام في دمشق ثلاثة أيام وهو حاكمها المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، ادرك خطر السلطان على حكمته وحريته فارخى العنان . ذلك ان رداء السلطان كان قد ألقي على كتفيه عند ما نضجت في نفسه ثمرة الحكمة المبتغاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان الطموح آخر قيد يغلّ حريتهُ الروحية ، فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام . وكأنّ الطبيعة قد أعدتهُ خاصة لذلك فجردتهُ من شهوات معظم الرجال . فليس لشهوة الطعام والشراب اثر في حياته . انهُ يستطيع ان يأكل عشاء كامل الالوان وان يتمتع بلذاذته ، الاّ انه يفضل اكلة واحدة في اليوم ، وافضل الطعام ابسطهُ . ويظهر انهُ كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرء الاّ ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان ، وكيف تكبلانه بقيود منظورة وخفية ، حتى يعرف مدى الحرية التي ادركها لورنس بتجرده منهما

ثم هناك قيد آخر تتقيّد به الروح الحرة ، ولكنهُ قيد خفي ، وهو النزوع الى المنافسة . فهذا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنهُ يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطوا بضع خطوات . اما لورنس فقد تجرد منهُ فكان في حداثته يرغب عن الالعاب المدرسية القائمة على المنافسة ، ويروى انهُ من سنوات العمل العنيفة بحديقة صغيرة عزيزة عليه ، في محطة الطيران ، لما اعلن ضابط الفرقة انهُ يمنح جائزة لمن تتفوق حديقتهُ على حدائق اخوانه

فقد كان همّ لورنس في خلال حياته ، ان يبلغ مستوى معين من الرجولة اقامهُ في ذهنه ، لا ان يتفوق على احد . وكذلك ازال من حياته ، مصدراً من اهم مصادر النزاع بين الناس

ثم ان غريزة الامتلاك ابعد اثراً في تكبيل النفس من نزعة المنافسة . وقد حاول لورنس جهدهُ ان يقطع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو انسان . ها هي تظهر في كتاب يملكهُ او في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس ان ينقص مطالبهُ المادية الى اقل حدّ مستطاع ، ومحاولاتهُ في التفلّت من بعض قيودها وسمت بعض افعاله بسمة الشذوذ . قال : « لو كان في وسعي لوهبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنهُ لم يستطع ذلك ، من دون ان يتعرض لاخماد رغباته الروحية ، او رغباته الحسية المتصلة بالروح . فالجمال لا ينفصل عن الحق . والحكمة نفسها تحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفهُ في اقترابه من الحرية المطلقة . ولكنهُ لم يستطع بلوغها . كان روح الحرية مجسماً في عالم مكبّل بالاغلال ، ولكن تجسيم هذه الروح في قالب انساني ، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الانسان العادي

سوريا في زمن الصليبيين[1]

لنقولا زياد

حالة سوريا السياسية

سهل ساحليّ ضيق في الشمال ، متسع في الجنوب ، تحدب عليهِ من الشرق سلسلة من الجبال الجيلة ، وقد يقوى عطفها عليهِ ، فتعانق البحر مرات رأفة بهِ ، وتسند هذه الجبال سلسلة اخرى الى الشرق منها ، تندفع عنهما فائلة البحر الرملي المنبسط شرقاً الى حدود العراق . وبين السلسلتين سهول منخفضة ، يشتدُّ بها الانخفاض والضغط حتى تفقد الحياة في البحر الميت . في شمالها جبال طوروس الوعرة المسالك ، وفي جنوبها صحراء سيناء القديمة السبل — هذه هي سوريا

تتوسط الشرق الادنى ، وبذلك كانت قلب العالم المتمدن الخفاق . تقوى مصر فتمتد اليها ، ويشط العراق فيتطلع نحوها ، وتقوم قائمة آسيا الصغرى فتفكر فيها . ويدفع البحر المتوسط بأقوامه وسفنه فيجدون في شواطئها الملجأ . وتقسو الصحراء على اهلها ، فيهرعون اليها ، ليستمتعوا بخيراتها ، وليستوطنوا اديمها . ويسود السلام انحاء العالم ، فيعنى بالتجارة ، وفي موانىء سوريا تتبادل سفن اليمّ وسفن الصحراء اثقالها

من الصحراء جاءها اكثر سكانها ، قرناً بعد قرن ، حتى كانت خاتمة المطاف هذه الحملة الاخيرة العربية ، التي وحدت — الى درجة كبيرة — لغة السوريين ، وثقافتهم ، وعقليتهم ، وتفكيرهم ، ودينهم ، منذ ثلاثة عشر قرناً

خضعت سوريا للراشدين ، وحت الامويين ، وتبعت العباسيين ، وتقربت من الفاطميين . وطالعها القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وهي نهب مقسم بين المتغلبة على الاطراف من اتباع العباسيين وخصومهم . فالفاطميون في القاهرة ، والسلاجقة في ظلال الخلافة البغدادية ، والامراء المحليون والقبائل التركمانية والروم والقرامطة والمماليك ، يتنازعونها . وكلٌّ يستميل ويسترضي ، ويهب ويمنح ، ويقاتل ويفتح ، لقاء خضوع يرجوه ، او مال يزجى اليهِ ، من خلال الفلاح ، او رسم يفرض على تجارة تهبط البلاد

اما السلاجقة فقد شغلوا بامر انفسهم واطماعهم الخاصة ، فلم تكن لهم دولة بل دول ، وما كانوا يمتنعون عن اللجوء الى خصم اجنبي ليتقووا على آخر شرقي ، خصوصاً بعد وفاة كبيرهم ملكشاه (١٠٩٢ م) ، فصار الامر الى الاتابكة الذين شغلوا الناس في القتال دون مطامعهم

---

(١) القيت في ندى الشبيبة الارثوذكسية بيافا (فلسطين)

واما الفاطميون فمع ان سلطانهم السياسي قد دفع عن اكثر سوريا، فقد بقي لهم في المدن الكبرى وفي الضياع اتباع يدينون برأيهم حتى ان السلاجقة الامراء كانوا كثيراً ما يترضونهم [١] وما تغلب السلاجقة الا لانهم سنيون واكثر السكان من مذهبهم [٢] ، ولان المصريين اساءوا السيرة مع هؤلاء [٣] ثم انهم لم يميروا السكان التفاتاً لما دهمهم الخطر الافرنجي . فقد ذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول الخليفة الفاطمي على مركب يطلب منهم، لاسم الخليفة ، جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب [٤] اضف الى ذلك انهم (اي المصريين) لما دهشوا لغزو الفرنج الشام ، لم يريدوا ان يثيروا حفائظهم خشية ان يهاجموا مصر ، فكان انجادهم للشام ضعيفاً

والخلافة العباسية كانت في نجوى عن كل ما في الشام او غيره . فالضعف مستحوذ عليها وامرها بيد غيرها . فلا خير يرجى منها ولا أمل . فهذا ابن عمار صاحب طرابلس ، يشتد به الأمر (١١٠٧م و٥٠١ هـ) فيذهب الى بغداد مستنجداً ، ويطول مقامه هناك على غير طائل [٥] . وهذا هاشمي من حلب، يذهب الى بغداد (١١١١ م و٥٠٥ هـ) يصحبه صوفية وتجار وفقهاء ليستنجدوا، فلا يؤبه لهم حتى يدخلوا جامع السلطان ، فينزلون الخطيب من المنبر ، ويكسرونه ، ويصيحون ويبكون ، لما أصاب سوريا من غزو الفرنج ، ويمنعون الناس من الصلاة جمعتين متتاليتين ، حتى يرعز السلطان — وهو صاحب الأمر والنهي في الخلافة — الى رؤساء الاجناد ، بالتأهب للسير الى دار الجهاد [٦]

وفي غمرة هذا النزاع ، ينشىء الامراء العرب أماراتهم الخاصة في سوريا . فطي ء [٧] في شرق الاردن ، وعقيل في اطراف العراق ، وكليب في حلب ، وبنو عمار في طرابلس ، وبنو منقذ في شيزر [٨] . هذا الى عدد كبير كانت له سيادة خاصة [٩] . كما ان غيرهم من متغلبة الامراء ، صرفوا همهم في لهو وعبث ، وترف وبذخ [١٠] . والأمير يرث ابناؤه ملكه ، كما يرثون مزرعته وبيته ، فتنقسم الامارة الواحدة ، وتصبح حرباً على نفسها [١١]

ويتراءى لنا أن سكان البلاد كانوا راضين بهذا الذي أصابهم ، من خصومة تستمر ، ونزاع يستعر ، بين الدول والامراء والزعماء والمتغلبة . ولكن الواقع أن هؤلاء هم الذين كونوا مادة الدول وقوتها ، وكانوا هشيم القتال وناره ، وكان لهم من ثم ، نفوذ في شؤون بلادهم ، وخشيهم حكامهم الاتراك ، كما استعانوا في الدفاع عن نفوسهم ضد الصليبيين [١٢] . وكانت جبال لبنان مأوى الموارنة ، وشماليهم النصيريون (العلويون) وجنوبهم الدروز وشيعة جبل عامل ، وقد استطاع

(١) Gibb 16—17 (٢) الخطط ١ — ٢٦٣ (٣) الخطط ١ — ٢٤٩ و٢٥٨ (٤) نقل كردعلي الخطط ١ — ٢٩٢
(٥) الخطط ١ — ٢٩١ (٦) الخطط ١ — ٢٩٦ (٧) اسامة ١٢ (٨) راجع مقدمة الدكتور فيليب حتي لكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ (٩) Gibb 17—18 والخطط ١ — ٢٤٦ و ٢٤٩ (١٠) الخطط ٢ — ٥٢
(١١) الخطط ٢ — ٤٨ (١٢) Gibb 26—27

هؤلاء ان يستعينوا باستقلالهم المحلي الى مدىً بعيد [١] . وفي القلاع الحصينة القوية كان الاسمعيليون [٢] الثوار، ينظمون شؤونهم، ويوفدون رسلهم ليغتالوا كل من يحاول النيل منهم أو التعرض لهم وكل من هؤلاء الامراء كان يعنى بتحصين قلاعه وتضخيم أسواره ضد سيده أو جاره [٣]

وباختلاف هؤلاء القواد كانت تختلف أجناس الجند، فأكثرهم أتراك من اواسط آسيا، ولكن بينها السلاقيون من شرق اوربا، والروم، والارمن، والكرج [٤] (الشراكسة) والديلم [٥] والتركمان (الغز) [٦]، والمغاربة [٧]، والاكراد [٨]، والخوارزمية [٩]، والخراسانية [١٠]. فقد اجتمع في الجيش الصلاحي، مثلاً، من الجموع والألسنة، من لا يحصر معدوده، ولا يتصور وجوده [١١]

والجيوش التي جيّشها مختلف الامراء تفاوت عددها كثيراً. فقد كان جيش ملكشاه (٤٠٠،٠٠٠) ولهُ (٤٦،٠٠٠) من العبيد [١٢]، وجيش كربغا الذي قاده لحصار انطاكية (٥٠،٠٠٠) [١٣]، وفي سياحات مندقل أنهُ من السهل على ملك مصر أن يجيش (٥٠،٠٠٠) [١٤] أما جيش صلاح الدين في حصاره لعكاء (١١٨٩ — ١١٩١) فنستطيع ان نتصور عدده اذا اطلعنا على ما جاء في السلوك عن « السوق الذي في عسكر السلطان » [١٥]. فقد روى المقريزي نقلاً عن البغدادي « كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكاء عظيماً جدًّا، ذا مساحة فسيحة. فيه مئة واربعون دكان بيطار. وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً، كل قدر تسع رأس غنم. وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مئة دكان، لان الحوائج في الاعدال والجواليقات. ويقال ان العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد. وزن حمال اجرة نقل متاعه سبعين ديناراً. وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل. وكان في العسكر أكثر من الف حمام، يغسل الرجل فيه رأسه بدرهم أو اكثر» وكان أصغر الامراء له على الاقل الف جندي [١٦]

---

(١) Gibb 23، الخطط ٢ — ٤ و ١٤ و ٣٢ و ١٢٢ و ١٣٥ و ١ — ٢٠١ والكملة ١٨ — ٢٠٩ و Lamb ١٨٧ والحريري ٧٦ ولعل بعض الثوار انضم الى الصليبيين كما ساعدهم بعض شيعة جبل عامل (٢) ابن جبير ٢٢٩ والمقريزي (السلوك) ١ — ٦١ (٣) مثل حصين انطاكية — راجع Kugler 45 و Lamb 106 (٤) Gibb ٢٩ و ٣٣ و Kugler 7 و Lamb 166 والخطط ١ — ٢٨٠ واسامة ١٠٣ و ١٠٦ و ٢٠١ وتاريخ الكنيسة ٧٥ (٥) Gibb 35 (٦) Gibb 19, 25, 36 والخطط ١ — ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، والفتح ١٥٦ (٧) Gibb 37 (٨) اسامة ٣٧ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٦ و ٩٥ و ١٢٢ و ١٤٩ (٩) تاريخ الكنيسة ٨١ و ٨٢ والخطط ٢ — ١٠١ (١٠) اسامة ٧٣ و ٧٤ و ١٥٦ و ١٥٨. والظاهر ان مهنهم كانت نقب الاسوار (١١) أبو شامة ٢ — ١٨٥ والفتح ٢٤٩ — ٢٥٠ (١٢) Gibb 36 والخطط ١ — ٢٧٥ (١٣) Kugler 50 (١٤) Early Travels 146 (١٥) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٤. والمقريزي يقول انه نقله عن عبد اللطيف البغدادي، ولعل المصدر الذي يشير اليه هو الذي يسميه البغدادي الكتاب الكبير المذكور في كتابه المطبوع. والكتاب الكبير هذا لم يصل الينا (١٦) Gibb 36

ومن ملاحظة ما ذكرناه عن الجند نستطيع أن نقول أن سكان سوريا في العصر الصليبي كانوا مجموعة من الشعوب ، اكثرهم عرب ، ومعهم هذه القبائل التي مرت بنا ، وفيهم النساطرة واليعاقبة واليونان والموارنة من النصارى [١] ، والباقون — وهم اكثر السكان طبعاً — المسلمون . وفي كثير من المدن كان اليهود ، وبأيديهم الصناعات [٢] . ولعلّ عددهم لم يتجاوز العشرة آلاف [٣] . وكانت اللغة العربية اللغة الجامعة لهم جميعاً ، ولهم لغاتهم الخاصة . والعلاقات بين أهل سوريا ، مع اختلاف المذاهب ، كانت حسنة [٤]

وقد أناط الحكام بالنصارى واليهود أعمالاً رسمية كثيرة من ذلك ان العادل ولى (١١٨٣ م و ٥٧٩ هـ) الانشاء وما يتعلق بأمور السر « الصنيعة بن النحال » وكان نصرانيًّا — ثم اسلم على يد العادل — فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فاق دين المسيح في دولة الـ ـعادل حتى علا على الأديان
ذا أمير وذا وزير وذا وا ـل وذا مشرف على الديوان [٥]

كما أن مستوفي دار حلب كان نصرانيًّا [٦]

الحالة الاقتصادية

هذا الوضع السياسي الشاذ الذي كانت فيه سوريا ، ترك في كل نواحي الحياة فيها آثاراً سيئة ، فهذه الاحداث المستمرة أثرت في احوال البلاد الاقتصادية ، زراعتها وتجارتها وصناعتها . واذا ساءت الادارة ساء معها كل شيء . وهذه دمشق ينقص عدد سكانها من نحو نصف المليون الى ثلاثة آلاف بسبب ادارة الفاطميين السيئة (١٠٠٥ م) [٧] . أما حلب فتنمو وتتقدم بحسن ادارة اق سنقر [٨]

فأما الزراعة فلم يولها السلاجقة عنايتهم ولا رعايتهم . وكان أصحاب الاطراف أشد وطأة منهم [٩] وتضررت البلاد من الاحداث . فلم تُنِع الثمار ، وتكثر الزروع ، وتستغل الأرض ، الا في الأماكن الممتازة بحسب تربتها وكثرة مائها كغوطة دمشق واطراف يافا وقيسارية وانطاكية وطرابلس . ولعلّ سبب ذلك شيوع التملك الفردي [١٠] . وفي زمن احتلال الصليبيين للبلاد لم يكن للفلاحين حرية في استثمار الارض بله امتلاكها ، وتأخرت الفلاحة السورية وبقيت اراض كثيرة مواتاً [١١] . ومن هنا كانت كثرة حدوث المجاعات في سوريا أبان القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر [١٢] . على أن بعض التحسن طرأ على الحالة الزراعية بعد ان استقرّ الفرنج في البلاد ، واطمأن اليهم الفلاحين ، واطمأنوا هم الى الفلاحين

---

(١) Gibb 29 و Kugler 11 و Lamb 127 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و ٧٧ واسامة ٧٩ و ٨٠ وأبو شامة ١ — ٣٢ (٢) المسبحي ١١٨ (٣) Prutz 8,151—152 و Early Travels 73—98 (٤) ابن جبير ٢٦٨ ، ابن بطوطة ١ — ٤٩ (٥) ابو شامة ٢ — ٥٢ (٦) الخطط ٥ — ٧٢
(٧) Gibb 27 عن سبط ابن الجوزي (٨) نفس المكان (٩) المسبحي ١٠٠ (١٠) المسبحي ١٠١ (١١) المسبحي ١٠٥ (١٢) نفس المكان

وأما الصناعة فقد قامت في المدن الكبرى قوية على الصموم . وقد كانت سوريا مناطق ، تجيد كل منطقة منها صناعة . ففلسطين تصنع المرايا المعدنية والزجاجية وقدور القناديل والابر والخرز ، وصور تصنع الزجاج ، ودمشق تصنع الديباج والانسجة ودهن البنفسج والورق ، وبعلبك وحلب تحيك الاردية وبيروت تتقن تربية الحرير ونسجه [١] . وتشارك طرابلس تكرير السكر ونسج الحرير [٢] ، وفي طرابلس وحدها كان المشتغلون بالحرير نحو اربعة آلاف [٣] واشتهرت مدن اخرى بالمينا والصيني . هذا الى الاسلحة المتنوعة المموهة بالذهب . وقد وصلت المُدى الشامية جاوه في جزر الهند الشرقية [٤]

***

وفي زمن الحروب الصليبية احتاج الجنود الكثيرون الى الثياب والعُدة والسلاح ، فقوى ذلك الصناعات المختلفة . وقد ترك لنا ابن جبير الرحالة المغربي وابن بطوطة والادريسي والمقدسي وجوانفيل ومندفيل [٥] وغيرهم ممن اقام في سوريا او ساح فيها في تلك الازمنة صوراً حية قوية للتقدم الصناعي الذي كانت عليه سوريا ، وانواع الصناعات التي كانت فيها ، ومدى اتقانها . فالحرير والزجاج والصابون والاسلحة والصيني والسكر والدبس السوري كان في درجة المصنوعات الرومية والاصفهانية والعراقية والمصرية [٦]

وقد احتفظت سورية بقيمتها التجارية ، سيما وان المدن الايطالية كانت لا تعرف غيرها طريقاً للشرق الاقصى ، وخصوصاً بعد ان ضيق ملوك بزنطية الخناق عليهم خوفاً من منافستهم . وهذا الاتجاه الجديد في اتخاذ موانىء سوريا مراكز للاتجار مع الشرق الاقصى قام به الجنويون والبيزيون والبنادقة والاملفيون [٧] والنابليون ؛ فصارت عكاء واسكندرونة وطرابلس وصور محط رحال القوافل ، ومستودعاً لحاصلات الصين والهند وبلاد العرب ، وموزعاً لاسواق ايطاليا وفرنسا . وقد كان اول فصل في التاريخ يدفيًا تعين في عكاء في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي [٨] وفي اثناء الحروب امان تجار الاوربيين الصليبيين على الفتح ، وكان جزاؤهم على ذلك اسواقاً وخانات خاصة بنوها لتجارتهم وتجارهم ، مع انهم لم يهتموا ببناء كنيسة حتى في القدس . وزاد في العصر الصليبي اشتراك اهل جنوب فرنسا مثل سكان مونبلييه ومرسيليا وزبون . في هذه الاسواق السورية كانت تلتقي الثمار والفواكه والمصنوعات المحلية بالجهارات والجواهر والمسك والتمر والنيلة واليشب وبقية

---

(١) الحسني ٩٢ — ٩٣ و ١١٦ (٢) الحسني ٩٤

(٣) الحسني ١١٢ عن هايد (٤) الحسني ٩٤ (٥) رحلة الكليزي زار سوريا في القرن الرابع عشر راجع اشاراته في Early Travels 127—252 وعن الصناعة ١٤٣ (٦) الحسني ١١٦ — ١٢٠ (٧) كان لالماني المدينة الايطالية مستعمرات تجارية في بزنطية وانطاكية والقدس . راجع Kugler 8 — 9 و Prutz 46,47 108-9,358

(٨) فيليب حتي سمه الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف ١٤٩

منتجات الشرق الاقصى ، وبالاجواخ والانسجة الملونة والكتان والطيوط الذهبية والحرير الفرنسية والايطالية [١]

ولعل خير شاهد على التقدم التجاري ، غير ما مر بنا ، الخانات التي كانت بين المدينة والاخرى ينزل فيها التجار . فبعضها كان كأنه القلاع امتناعاً وحصانة وابوابه حديد ، وهي من الوقاية في غاية [٢] حتى أبان المعارك ، ما كانت تقف التجارة ولا تمتنع . يقول ابن جبير [٣] ومن العجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وفي مكان آخر [٤] ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . وقد شاهد هذا هو بنفسه . وكانت الضرائب معينة متفقاً عليها بين الافرنج والمسلمين ، يدفعها تجار كل قوم في بلاد الآخرين [٥] وكانت هناك ضرائب على الجسور عند مداخل الاودية وامام الحصون [٦] اما كن دفع الضريبة منها تبنين وبانياس وكان بين مصر وسوريا مركز جمركي في قطيا (حول العريش) حيث يفتشون التجار والامتعة والجواز عليها من الشام الى مصر وبالعكس ببراءة ، وعجباها كل يوم الف دينار من الذهب [٧] على انه لما خضعت مصر والشام لدولة واحدة ، واشتدتا في مقاومة الصليبيين ، قويت التجارة بينهما وزالت الحواجز الجمركية [٨]

الحالة العلمية

قبيل الحملة الصليبية الاولى كانت سوريا مركزاً قوياً من مراكز الحضارة الاسلامية . ذلك لان الثقافة الاسلامية ، التي انتصرت قبلاً على بغداد وما إليها ، وجدت الآن في كل مدينة كبيرة تربة خصبة . فتنقل العلم في المدائن ، وانتشرت المكاتب الكبرى ، ووضعت الموسوعات ، وتعددت انواعها كما تنوعت الابحاث العلمية والسياسية والاقتصادية ، واصبحت المعرفة موزعة على كثير من الكافة بعد ان كانت وقفاً على الخاصة . وشجع الامراء المحليون هذه النزعات الادبية ليتم لهم مجال الفخر على اقرانهم ، والتفوق على أندادهم ، أو حرصاً على نشر التعاليم الاسلامية أو رغبة في العلم نفسه [٩] فأدى هذا الى نضوج الفكر [١٠] في كل ما درس من علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة والمنطق . ومع أن الاوضاع السياسية والحربية في العصر الصليبي كان من شأنها ان تصرف الناس عن العلم ، فقد احتفظت سوريا بالكثير من علمها ، وكانت المدارس منتشرة [١١] ، وحلقات التدريس في المساجد

(١) الحسي ١١٢ والمقريزي «السلوك» ١ — ١٨٦ (٢) ابن جبير ٢٣٣ — ٢٣٤ (٣) ابن جبير ٢٦٨ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و٢٨٢ (٥) ابن جبير ٢٦٨ (٦) الحسي ١١٢ (٧) ابن بطوطة ١ — ٣١ (٨) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٩

(٩) تاريخ الموصل ٢ — ٨٩ — ٩٠ (١٠) زيدان — آداب اللغة العربية ٢ — ٢٣١ (١١) زيدان — آداب اللغة العربية ٣ — ١٢

مفقودة ؛ ودور القرآن بالطلاب عامرة ، والمعاجم التاريخية والجغرافيا موضوعة بين أيدي الناس . والذي وصل الينا من أمهات الكتب التي ألفها العلماء في الابحاث المختلفة ، منذ أواسط القرن الرابع الهجري الى أواسط القرن السابع أربى على السبعمائة غير ما فقد منها وهو كثير [١]

وأول من أنشأ ابنية خاصة للمدارس هو نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، ثم حذا الاتباع حذوه . وكانت قبله دور العلم هي المساجد وحدها . وقد زاد عدد المدارس السورية الكبرى ، في امهات المدن ، عن المائة والخمسين بين القرن الخامس والقرن السابع الهجري [٢] . وكان في دمشق وحدها ثلاث مدارس عالية للطب [٣] ومدرسة للهندسة [٤] . وهذا صلاح الدين لا يكاد يفتتح القدس (١١٨٧م و ٥٨٣ هـ) حتى يؤسس فيها مدرسة [٥] ، ويفعل مثل ذلك في عكاء [٦] وقد عني الامراء بانشاء دور للقرآن [٧] ودور العلم والحكمة ، كالتي انشأها ابن عمار في طرابلس ، فأصبحت طرابلس بها مباءة علم ودرس ومباراة في التعليم ، وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد [٨] وكانت فيها مدرسة اليعاقبة [٩] ولعل طرابلس كانت اول مدينة علمية بالشام لما استولى عليها الصليبيون [١٠] وكذلك كانت مدن كثيرة في سوريا مشحونة بالعلم ككفر طاب وقرى دمشق [١١] والقدس . وكان الانفاق على التعليم يتوافق مع العناية بالمدارس ، لان لكل مدرسة اوقافاً تحبس عليها ، فلا تصرف في غير هذه السبيل . وقد كان ارزاق ارباب العمائم في دولة صلاح الدين تتجاوز مائتي الف دينار بشهادة ابن شداد [١٢] وكان للسلاطين وكبار القواد والامراء مجالس ادب يحضرها العلماء والفقهاء ، والمحدثون والشعراء ، فتكون سبيل ارشاد وافادة [١٣] وهذا صلاح الدين كان ينفق من صدقاته على ستمائة من فقهاء دمشق [١٤] والملك المنصور صاحب حماة كان يصحبه نحو مائتين من النحاة والفقهاء والمشتغلين بالعلم [١٥] وكان في سوريا ، وفي مدنها الكبيرة فقط ، نحو عشرة مستشفيات مع ما يتصل بها من صيدليات ومدارس طبية [١٦]

هذه العوامل المختلفة ساعدت على نشر التعليم بين عدد كبير من الناس كما قدمنا ، ولم تحصره في عدد قليل من الخاصة . ولعل من الخير ان نشير هنا الى ان تعاليم اخوان الصفا الفلسفية كانت منتشرة بين الاسمعيليين [١٧] . وقد عثر على كثير من نسخ رسائلهم في انقلاع الاسمعيلية [١٨] . وقد كانت أشهر الكتب تداولاً في نهاية القرن العاشر للميلاد رسائل اخوان الصفا ومفاتيح العلوم والفهرست لابن النديم [١٩] ، وهي كتب لها خطرها في الحياة العقلية

---

(١) راجع زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الثاني والثالث وأيضاً Pratz 53 ـ 4
(٢) الدكتور خليل طوطح ١٤٤ ـ ١٦٣ والخطط ٦ ـ ٦٨ ـ ٧٠ وتاريخ الموصل ٢ ـ ٩٠ ـ ٩١ (٣) الخطط ٦ ـ ١٠٢ (٤) الخطط ٤ ـ ٤٩ (٥) Pratz 54
(٦) الفتح ٧٣ (٧) الخطط ٤ ـ ٧ و ٣٨ ٥ اول دار انشئت للقرآن سنة ٤٤٤ هـ » (٨) الخطط ٤ ـ ٣٨
(٩) منهم ابو الفرج الجريء المؤرخ . راجع الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٠) الخطط ٤ ـ ٣٨ عن قال برشم (١١) ابن النديم في الخطط ٤ ـ ٣٨ (١٢) القاضي الفاضل في الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٣) الفتح ١٢١ والنوادر السلطانية ٧ (١٤) الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٥) الخطط ٤ ـ ٤٤ (١٦) الخطط ٦ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ (١٧) الكلية ١٨ مقال السيد طيارى عن «اخوان الصفا» (١٨) نفس المكان (١٩) نفس المكان

جبال النور

لصفحي ميلي
بمصلحة السكك الحديد المصرية

ان العمل بالمراصد الفلكية الرئيسية في أنحاء الكرة الارضية قائم الآن على قدم وساق لوضع خريطة مساحية لتخطيط السماء (Great Star Map) فآلة التصوير تعمل مضافة الى المرقب (التلسكوب) بجد ونشاط والمديرون يديرون دفة الاعمال بهمم عالية ومساعدوهم يدأبون أناء الليل واطراف النهار . ومع ان هناك صعوبة تذكر في تصوير النصف الجنوبي من السماء لقلة عدد المراصد الفلكية في نصف الكرة الارضية الجنوبي وعدم انتظام مواقعها الجغرافية بالمقابلة مع نصف الكرة الارضية الشمالي ، فقد بلغ عدد النجوم التي تمّ تصويرها فعلاً حوالي عشرين مليون نجم ، ولا تستغربنّ فسألة تسجيل عدد النجوم أصبحت سهلة الآن بفضل استعمال الجهاز المسمى (Billiard Marker) المستعمل عادة عند كبار هواة البلياردو فبينما الفلكي يحرك لوحاته تحت المرقب بأحدى يديه وهو « سهران يعد النجوم » يمكنه باليد الاخرى أن يضغط على زنبركات الجهاز ضغطات تسجل كل منها عدداً معيناً من النجوم التي يكون قد عدّها من دون أن يحوّل نظره البتة عن لوحاته فيتم العمل على هذا الوجه بسرعة وضبط متقطوعي النظير . ويقول اولو الامر أن تلك الخريطة المساحية العامة ينتظر أن تقع في جملة لوحات (Charts) لا يقل عددها عن ٣٠٠٠٠ لوحة لو وضعت بعضها فوق بعض لبلغ ارتفاعها اكثر من تسعة أمتار ولبلغ وزنها طنين كاملين

وهنا ربما سأل سائل ما هو مجموع عدد النجوم التي ينتظر ان تحويها تلك الخرائط المكدسة بعضها فوق بعض في النهاية يا ترى ؟

يعتقد الفلكي الشهير الدكتور شابلي الاستاذ بجامعة هارفرد ومدير مرصدها Dr. Shapley أن عدد نجوم المجرة وحدها Milky Way — ونظامنا الشمسي جزء منها — يبلغ مائة الف مليون نجم ويعتقد وغيره من الفلكيين أن عدد نجومها يربي على ثلاثة أمثال هذا الرقم . وليست مجرتنا هي المجموعة النجمية الفردة في الكون لا بل من المسلم به أن بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن — وقطر مرآته العاكسة مائة بوصة — يمكن الوصول الى نحو مليوني مجرة كمجرتنا منثورة كالجزر في بحر الفضاء . فمجرتنا اذن كما قال الفلكي العظيم السر جيمز جينز Sir James Jeans ما هي الا منزل واحد من ملايين المنازل وأسرة واحدة من ملايين الأسر النجومية (السدم) ، فلو قلنا بعد ذلك أن مجرتنا تحوي أكثر نجوم السماء كان مثلنا مثل من قال أن منزلاً واحداً يحوي سكان بريطانيا العظمى بأسرها

والآن دعنا نضرب صفحاً عن عدد المجرات التي سوف نراها اذا ما تمّ بناء التلسكوب الجديد الذي صرف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة والذي قبل أن من المنتظر الوصول به الى ١٦ مليون مجرّة . ودعنا نتساهل الى أبعد حد ممكن ونعتبر فرضاً ان ليس في فضاء هذا الكون الفسيح الرحيب سوى مجرتنا العظيمة والمليوني مجموعة من المجموعات النجمية التي ترى بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن فكم يكون مجموع النجوم التي ينتظر أن تحويها صحائف مجلدات الخريطة النجومية الكبرى الجاري وضعها الآن ؟

ان مجرتنا كما قال الدكتور شابلي تحتوي على مائة الف مليون نجم اما كل مجرّة من المليوني مجرّة الاخرى فتتكوّن على الارجح من الفي مليون نجم في المتوسط فيكون المجموع هكذا :

مائة الف مليون نجم + ٢ مليون مجموعة = الفي مليون نجم = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

+ ٢٠٠٠٠٠٠ × ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ = ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

+ ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ = ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نجم !

هنا دعنا نسلّم جدلاً ان تلك النجوم والكواكب والشموس التي يفوق حجم كثير منها حجم شمسنا مئات المرّات قد تضاءلت وانكمشت حتى اصبح حجم الواحد منها لا يزيد عن حجم البرتقالة العادية ودعنا ايضاً نصدّق ما لا يمكن لعقولنا تصديقه من ان تلك البرتقالات اللوامع قد هبطت جميعها بسلام على سطح كرتنا الارضية فكم يكون حجم تلك البرتقالات اذا ما تراكمت بعضها فوق بعض او قل معي كم يكون حجم «جبال النور» المتلألئة التي سنراها يا ترى ؟

اننا لو قدّرنا ان قطر البرتقالة العادية يساوي ثمانية سنتيمترات لكانت هذه البرتقالات الساطعة اللامعة مجتمعة بعضها فوق بعض على شكل مكعب متساوي الاضلاع تساوي ما يأتي : —

٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ × (٨ × ٨ × ٨) = ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سم٣ = ٢٠٤٨ ٠٥١ ٢٠٠ م٣

اي ٢ ٠٤٨ ٠٥١ ٢٠٠ ٠٠٠ متراً مكعباً اي اكثر من ٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً

اي ان « جبل النور » هذا يبلغ طوله ١٢٧٠٠ كيلو متر وعرضهُ ١٢٧٠٠ كيلو متر وارتفاعه كذلك ١٢٧٠٠ كيلو متر . فتأمل ! !

واذا تراصّت هذه البرتقالات على شكل هرمي لبلغ حجم هذا الهرم ما يأتي : — نفرض ان عدد صفوف هذه البرتقالات اللوامع المتراصة على شكل هرمي هو « ن » فيكون ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ برتقالة = $\frac{1}{6}$ ن (ن + ١) (٢ ن + ١) تقريباً ومن هنا ينتج أن « ن » اكبر من ٢٢٨٩٤٤ واصغر من ٢٢٨٩٤٥ اي ان العدد الاخير عند قاعدة هذا الهرم البرتقالي يحتوي على ٢٢٨ ٩٤٤٢ برتقالة

ولما كان قطر البرتقالة هو ثمانية سنتيمترات فرضاً

فاذن : طول ضلع القاعدة المربعة لهذا الهرم الموهوم يساوي : —

٢٢٨ ٩٤٤ × ٨ = ١٨٣١٥٥٢ سنتيمتراً اي ١٨٣١٥ متراً

عالم المستقبل العجيب

مستقبل الحرب والملبس والمأكل

إن أهم ما جاء في محاضرتين أذاعهما رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية في شهري مارس ومايو الماضيين وحقائقهما مترجمة في اثنائي من كتاب « ولادة المستقبل » لرتشي كالنر و « عالم المستقبل العجيب » للاستاذ لو و « شكل الاشياء القادمة » للكاتب الانكليزي ولز. وقد نشر الجانب المتوسط الخاص بمستقبل الحروب في مجلة الراديو المصري.

١ — الانباء بالمستقبل

اذا تصفحنا برامج التعليم بوجه عام تبينا لدراسة التاريخ فيها مقاماً عالياً . ولكننا قلما نجد ذكراً لدراسة المستقبل . بل لو قال أحد المتحمسين ان المستقبل ، يجب أن يدرّس في المعاهد لقوبل قوله بالازدراء والاشفاق على عقله ولقيل في الرد عليه: « ان كل صبي يقرأ أقاصيص الروائيين أمثال قصص جول فرن وحكايات ولز العلمية وما هو من قبيلها ولكننا لا نستطيع أن نقيم وزناً لدراسة هذه الموضوعات ولا أن نعنى بها عناية جدية . أما دراسة التاريخ فتختلف عن دراسة المستقبل لانها تتناول حوادث معينة نعلم حق العلم أنها وقعت في الماضي

الاّ أن طائفة كبيرة من المفكرين أصبحت ترى رغم هذا الاعتراض أن المستقبل يمكن أن يدرّس في المعاهد . وان دراسته لا تقل في دقتها عن الدقة في دراسة الماضي . وانها على كل حال أجدى وانفع . فنحن اذا عجزنا عن تغيير الماضي فالاهتمام بالمستقبل قد يكون ذا شأن يسير في تحويل مجراه

ولرب معترض يقول : كيف تستطيع أن تعرف ما قد يقع في السنة القادمة ، دع عنك ما قد يقع بعد خمسين سنة أو بعد مائة سنة ؟

والرد على ذلك انهُ أيسر على العلماء ان يعرفوا ما ينتظر حدوثه بعد خمسين سنة من أن يعرفوا ما قد يحدث في السنة القادمة . وما يصح على دراسة المستقبل من هذا القبيل يصح كذلك على دراسة الماضي . فكتابة تاريخ السنة الماضية أشق من كتابة تاريخ لعهد الملك ادورد مثلاً . فقد يكون الحادث الاهم في السنة الماضية حرباً نشبت بين دولتين كبيرتين . ولكن اذا كتب تاريخ السنة الماضية

بعد خمسين سنة ، فقد لا يقرأ حفدتنا عن هذه الحرب الا بضعة سطور . وقد يكون المقام الاول في تاريخ السنة الماضية حينئذٍ، لاكتشاف وسيلة وافية لخزن الطاقة الكهربائية. فقربنا لحوادث السنة الماضية يحير نظرنا ويجعل وزن الامور بميزانها الحقيقي من أعسر الاعمال بل من الاعمال المتعذرة

وقد كانت دراسة التاريخ الى عهد قريب تتناول الحروب وتتويج الملوك في الغالب . وارب تاريخ فتح أو غزوة او تتويج يتعلمه جميع طلاب المدارس على انهُ من حوادث التاريخ الخطيرة لا يقابل من حيث أثره في العمران بمكتشفات فراداي الكهربائية بل لا يقابل بأحدها . فنحن نعلم ان أحد ملوك فرنسا قطع رأسه في الثورة الفرنسية ، ولكن حادثاً اخطر شأناً من هذا الحادث ، وهو اعدام لافوازييه الكيماوي ، قلما نراه مذكوراً في تواريخ الثورة الفرنسية او اذا ذكر فانه يذكر عرضاً أو في الهامش

فالكتابة عن المستقبل يسهل فيها اجتناب مثل هذه الاخطاء . فلست تجد حافلاً يجرؤ ان يقول لك من يكون رئيساً للولايات المتحدة الاميركية بعد خمسين سنة ، ولا هو يستطيع ذلك . ولكن من المستطاع أن تتصور كيف تكون معيشة الناس بعد قرن من الزمان او بعد عشر قرون. فني وسعنا ان نعرف على وجه من الدقة ، الطعام الذي يأكلون والملابس التي يرتدون والسيارات التي يمتطون ، وهذا كله وما هو من قبيله أخطر شأناً من تتويج الملوك وسقوطهم وانتخاب الرؤساء او اخفاقهم في الانتخاب . ان لافوازييه اخطر شأناً من الملك لويس السادس عشر . واقليدس وارخميدس أبعد اثراً في العمران من جميع الملوك والقواد في عصرهما

ان الكتابة عن المستقبل ليست حزراً يوفَّق او يخطئه التوفيق . فاذا قلت لك انك سوف تربح الجائزة الاولى في نصيب المؤاساة في السنة القادمة او اذا قلت لك انك سوف تتزوجين رجلاً مديد القامة أسمر اللون كان عملي من قبيل الحزر . وفي بعض القوانين في بعض البلدان ما يعاقب على هذا العمل . ولكن اذا اكدت لكم انهُ بعد انقضاء قرنين من الزمان لا تجد قطع النحم الا في دور الآثار وان الناس في سنة ٣٠٠٠ ب م قلما يعرفون ما هو الدخان المتصاعد من المصانع لا أبني قولي على الحزر . بل اكون عارضاً رأياً مبنيًّا على دعامتين من الحقائق المعروفة المؤيدة الآن وما يرجح رجيحاً عليًّا اننا سوف نبلغه في المستقبل . وهذا هو صميم الاسلوب العلمي . خذ مثلاً على ذلك تزايد سرعة الطائرات في سباق شنيدر . فاذا نحن دونّا سرعة الطائرات التي فازت بالكأس في العشرين السنة الاخيرة ، والسنوات التي فازت فيها استطعنا أن نعرف على وجه من الدقة ما قد تبلغه سرعة الطائرة الفائزة في السباق المقبل اذا تم هو او ما كان من قبيله ، وقد جربت هذه الطريقة في السباق الاخير وعينت سرعة الطائرة الفائزة قبل السباق على هذا الاساس فلما عرضت سرعة الطائرة الفائزة فعلاً ظهر أن التقدير اخطأ ٢ في المائة فقط

ويمكن استعمال هذه الطريقة في جميع نواحي الحياة فنبني على النتائج التي تسفر عنها صورة

للمستقبل . ومن الواضح أن التقدير في مسائل يشوبها شيء من الغموض مثل ملابس الناس ولغاتهم لا يمكن أن يكون دقيقاً في تفصيلاته فيكتفى فيه بالخطوط العامة

٢ – الحروب

يقول بعض الكتّاب ، ان حروب المستقبل ، سوف تكون اشد ترويعاً ، واكثر اهوالاً من حروب الماضي . ولكن طائفة العلماء ، بوجه عام ، لا توافق على هذا الرأي . لا ريب في ان الحروب المقبلة سوف تكون فتاكة ، شديدة الفتك — وقد كانت الحروب جميعها كذلك — ولكن العلماء يقولون ، ليس الموت طعناً بالرماح ، اسهل من الموت اختناقاً بالغاز . على ان هذا ليس بالامر المهم . بل المهم ان واضعي الخطط الحربية في المستقبل ، سوف يدركون ان الظفر في حروب في المستقبل لن يكون بتقتيل بعض الجنود في الخنادق . لذلك ينتظر ان تتجه انظارهم اولاً وقبل كل شيء الى العقد العصبية في جسم الامة ، الى المصانع التي تجهز الجيش بل وسائر طبقات الامة ، بالغذاء من جهة وبوسائل الكفاح من جهة اخرى . وعلى ذلك لا بد ان يزول الفرق في الحروب المقبلة ، بين فريق المحاربين من الامة الواحدة ، وفريق غير المحاربين

فاذا قلنا وما ذنب غير المحاربين حتى يعرّضوا لوسائل التقتيل ، قيل لنا لان غير المحاربين عليهم العمدة في تجهيز المحاربين بالقنابل والطيارات والغذاء ، فهم والمحاربون سواء . فاذا منعنا غير المحاربين عن صنع الاسلحة والغذاء ، تعذر على المحاربين ان يحاربوا

ولذلك ينتظر ، في مفتتح حروب المستقبل ، ان تتجه وسائل الهجوم — وهي الطيارات في الغالب — الى العقد العصبية في جسم الامة ، ترميها بالقنابل المتفجرة ، فتدمر المصانع ، وبالقنابل المحشوة بالغازات والجراثيم ، فتميت الاهلين . والدليل على ذلك الاتجاه ، ان بعض الدول التي تخشى الحروب ، اخذ يمرن ابناءه على استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . هذا من حيث خطة الحروب المقبلة بوجه عام

***

أما من حيث وسائلها فمن المتعذر تعيينها الآن ، لأن وسائل الحروب تتأثر الى حد بعيد بالاختراعات التي تكون سائدة عند نشوبها . ففي سنة ١٩٠٠ مثلاً ، كتب أحد الكتّاب فقال إنه من المنتظر أن يكثر استعمال العجلة (البسكليت) في الحروب القادمة . ولكن قبلما نشبت الحرب الكبرى كانت قد استبطت السيارات والطيارات واتقن صنعها الى حد ما ، فكانت في مقدمة الوسائل التي اعتمد عليها في الحرب الكبرى وقلما استعملت العجلات الا ما كان يسير منها بآلة شبيهة بآلة السيارة (الموتوسيكل)

ولما كانت هذه الوسائل تحتاج الى البنزين في تسييرها، كان للبنزين اكبر مقام في الحرب . لذلك لما قلّ البنزين في فرنسا في خلال الحرب بعث كليمنصو الى الرئيس ولسن تلغرافاً يناشده فيه العناية بالامر ، فقال — ولم يكن مبالغاً من الوجهة العسكرية — «ان كل قطرة بنزين بمثابة قطرة من الدم»

ولكننا قد لا نجيد عن حدود المنطق العملي اذا قلنا ان الطيارات سوف تكون من أهم وسائل الحروب المقبلة . والصورة المروعة التي يرسمها الكتّاب لاستعمال الطيارات ، هي كما يلي في الغالب : لا تكاد تنشب الحرب ، حتى تتجه أساطيل الطيارات حاملة قنابل منوّعة ، فمنها ما يكون محشوّاً بالمواد المتفجرة فتدمر ماتقع عليه ، ومنها ما يكون محشوّاً بالغازات والجراثيم فيفتك بالناس . ويرجح بعض العلماء ان المخترعين يكونون قد تمكنوا في المستقبل من اختراع وسائل لتخفيف ازيز الطيارات ، ووسائل اخرى تمكنها من الارتفاع اسراباً الى علو عشرين الف قدم ، ابتعاداً عن المدافع الخاصة باطلاق النار على الطيارات ، ومن ذلك العلو الشاهق تلقي قنابلها المختلفة على المراكز الصناعية المهمة

ولا ريب في ان طيارات الدفاع تكون قد اتقنت كذلك . فتستطيع ان تحلق تحليق طيارات الهجوم ، وان تسرع إسراعها ، وان تجهز بنوع جديد من القنابل على مثال الطوربيد الذي تطلقهُ الغواصات على السفن ، لترمي بها الطيارات الضخمة المهاجمة

والمرجح ان يكون لاشعة الراديو ، اي الاشعة اللاسلكية ، أثر في هذه الناحية من نواحي الحرب . فقد جرب بعضهم التجارب لتسيير البوارج والطيارات من بعيد بواسطة الاشعة اللاسلكية . ذلك ان البارجة تكون خالية من الربان والبحارة ، والطيارة تكون خالية من السائق ومعاونهِ ، ولكن كلتيهما تحتوي على جهاز خاص ، يتأثر بنوع معين من الامواج اللاسلكية . فتطير الطيارة من ارض المطار بتوجيه هذا النوع المعين من الاشعة اليها ، ثم اذا ارتفعت الى علو معين استطاع الرجل الجالس في غرفة على الارض ان يسيّرها يميناً او شمالاً ، الى ان تبلغ مكاناً معيّناً على الخريطة امامهُ ، فيضغط حينئذٍ على زرٍّ امامه ، فتلقي الطيارة قنابلها من تلقاء نفسها

وما يصح على الطيارة يصح كذلك على البارجة

هذه الاعمال لا تزال في دور التجارب الآن . ولكنها في الغالب تصبح من الوسائل العملية بعد خمسين سنة على الاقل ، ان لم تقل قبل ذلك

ويقول أحد العلماء ان من وسائل حروب المستقبل حصوناً تبنى في الهواء . وهنا قد يعترض معترض فيقول وكيف يكون الحصن في الهواء ، والاصل في الحصن ان يكون راسخاً في الارض ، متين البناء لا تزعزعه القنابل ولا يدمره وقعها عليه

والواقع ان الأصل في الحصن هو الذي تقوله المعترض . فاعتراضه في محله . ولكننا أشرنا الى ان أهم سلاح في المستقبل سوف يكون سلاح الطيارات تلقى قنابلها من الجو ، واذاً تحتاج كل

مدينة كبيرة : أو كل مركز صناعي ، الى وسيلة تمكنها من صد إغارات الطيارات . لذلك يقترح بعض العلماء أن تبنى حصون تحمل في الجو على « كياس » صغيرة من الهليوم . والهليوم غاز خفيف لا يلتهب اذا مسته النار . أما الاكياس فيجب أن تكون كثيرة وصغيرة ، لانها اذا كانت كبيرة وقليلة ثم خرقت أحدها رصاصة ، مال الحصن الهوائي وفقد توازنه . أما اذا كانت صغيرة فاختراق كيس هنا وكيس هناك ، لا يؤثر هذا التأثير في فقد توازن الحصن . وينتظر أن يجهز الحصن الهوائي الذي من هذا القبيل ، بمدافع لها قنابل تمزق ما تصيبه وتحدث فيه ثقبا ، فاذا اقترب الأسطول الجوي المهاجم من احدى المدن ، كان هذا الحصن على علو كاف يمكن رجاله من اطلاق القنابل على الطيارات المهاجمة ، حالة ان المدافع في الحصون الارضية لا تستطيع أن تبلغها

ومن القنابل التي ينتظر أن تستعمل في مدافع هذه الحصون الجوية قنابل تحتوي على الغاز . ولكنه ليس بالغاز السام ، لأن طياري الاعداء يكونون لابسين على أفواههم وأنوفهم كمامات تقيهم منه ، ولكنه يكون غازاً يلتهب بشرارة صغيرة . فتطلق القنابل على الطيارات ثم تشعل بشرارة خاصة فتلتهب ، والتهابها يعرقل عمل الطيارين المهاجمين أولاً ، ثم ان تمدد الهواء بالتهاب الغاز يقلقل الطيارات نفسها

ومن أسلحة الحرب القادمة جهاز جهنمي يجمع بين مبدإ الدبابة (التنك) ومبدإ الغواصة . فتبنى دبابات وهي حجر لا يخترقها الماء وهي كذلك محركات كمحركات السفن . فاذا اعترض الدبابة نهر عريض اجتازته عوماً كأنها سفينة من السفن . ثم إذا بلغت الضفة الاخرى ، استأنفت سيرها على عجلاتها والسير الذي يحيط بالعجلات

بل قد جمع بعض المستنبطين بين الغواصة والطيارة . واليكم ما كتبه أحد الكتاب الحربيين قال :

رؤي من عهد قريب منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه الماء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى أصبحت برجاً من الابراج التي ترى فوق دكات الغواصات . وبعد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء ، ثم فتح البرج وخرج منه بعض الضباط واخرجوا طيارة مطوية الجناحين . فنشروا جناحيها ووضعت على رأس منحدر جرت عليه قليلا ، واذا هي في الهواء فيها سائق يديرها ووراءه ضابط للمراقبة . فحومت نحو نصف ساعة حول الغواصة ثم عادت ورست قربها . ثم رفعت وطوي جناحاها وأعيدت الى مخبئها . وبعد ذلك غاصت الغواصة تحت الماء فغابت بغتة عن النظر كما ظهرت بغتة »

وهم الآن يجربون تجارب خاصة في صنع طيارات ضخمة لمكافحة الغواصات وهي غائصة في الماء ، بواسطة قنابل فعالة تعرف بقنابل العمق ، حتى اذا رأى رجال الطيارة غواصة تحت الماء ، اطلقوا هذه القنابل عليها فتستطيع ان تمزق دروعها ولو كانت غائصة

وقد لصور المستر ولز ، الكاتب الانكليزي المشهور ، وسيلة فعالة عجيبة ، يرى انها سوف

تكون من وسائل الحروب المقبلة . ومع أن ما تصوره مبني على الخيال في الغالب ، فليس ثمة ما يمنع تحقيقه من الناحية النظرية . فقد تصور المستر وار مركباً كيماويًّا تنثره الطيارات كرشاش للماء فوق بقعة من الارض ، فيصيب أجسام الاحياء من نبات وحيوان وانسان ، فتصاب بالعقم اي تصبح عاجزة عن التناسل ، فاذا انقضت بضع سنوات ، اصبحت المنطقة التي رش فوقها هذا الرشاش قاعاً صفصفاً . ومن الصفحات المروعة في كتابه (شكل الاشياء القادمة) وصفه لحملة الجراثيم ، التي بثّت فيها جراثيم الاوبئة المختلفة : كالانفلونزا ، وانواع الحميات ، والكوليرا ، والطاعون

***

على ان بعض الكتاب يرى ان الحكومات في حروب المستقبل ، لن تكتفي بأساليب الفتك المادية كالقنابل ، والغازات والجراثيم ، بل سوف تعمد الى الوسائل النفسية السيكولوجية التي تقوم عليها فنون الدعاية . فتبني احدى الحكومات مثلاً ، محطة راديو عظيمة القوة ، تذيع بها دعاية قائمة على اصول نفسية ، غرضها ان تضعف القوى المعنوية في ابناء الامة التي تحاربها . وقد تعمد الى اساليب التلفزة — اي الرؤية عن بعد بالامواج اللاسلكية — فتمثل في « استوديو » خاص بالسينما ، مشهد انخذال اصيب به جيش العدو ، وتذيعه بآلة التلفزة ، على انهُ مشهد واقع ، فتفتّ في عضد الشعب الذي خذل جيشه

ومما لا ريب فيه ، ان تاريخ الحروب قد أثبت ، ان كل اسلوب جديد للهجوم ، يقابله ويماشيه اسلوب جديد للدفاع . فزيادة القوة في قنابل المدافع ، تقابلها زيادة السمك في الدروع . واستعمال الغاز يقابله استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . والطيارات المهاجمة ، تقابلها طيارات الدفاع السريعة ، والدعاية اللاسلكية ، تقابلها دعاية مثلها او طريقة علمية لتشويش الدعاية المذاعة وعدم فهمها

اشار الفلاسفة وبعض الساسة الى الحرب التي تقضي على الحرب . ولكننا لن نفوز بحرب تقضي على الحرب ، ما زلنا كلما اخترع اسلوب للهجوم والفتك ، اخترع اسلوب يقابله للوقاية والدفاع . ليس يقضي على الحرب الا التعليم والتثقيف ، والا البيان للناس بأن مصلحتهم افراداً وجماعات تقتضي السلام والوئام

٣ — الملبس

لا يختلف اثنان في أن اللباس والغذاء من ضروريات الحياة . ولعلّ بعض النساء يرى أن اللباس مقدّمٌ على الغذاء ، في خطورة الشأن وعلو المقام . فكتّاب الغرب يحدثوننا ، انه لا يندر في حواضر البلدان الاوربية والاميركية ، ان تستغني الفتاة العاملة عن الغذاء الوافي ، لتشتري بما توفره من ثمن الطعام ، جوارب حريرية تكسو ساقيها ، أو ثوباً على آخر طراز . وليس يندر بيننا في الشرق ان يضطرّ ربُّ البيت الى الكدح ، أو ربّة الاسرة الى التقتير ، لكي تهيأ للسيدة فرصة

مجاراة اخواتها اللواتي هنّ أيسر حالاً منها ، في ملابسهنّ . بل لعلّ موضوع الأزياء في الفصل القادم أو السنة القادمة ، واللون الغالب ، والنسيج المفضّل ، من الموضوعات التي تستغرق اكبر جانب من عناية السيدات ووقتهنّ . والعالم يهتمّ بالازياء كذلك . ولكنه يهتمّ بها من ناحية ما ينتظر ان تكون عليه ، بعد مائة سنة أو خمسمائة سنة . ويهتم كذلك بالمواد التي تصنع منها الملابس ، من حيث نسجها ولونها ودفئها واجتماع الشروط الصحية فيها ، رغبة في توفير كل ما يجب ان يتوافر فيها ، على أيسر حال

***

كان الغرض الاصلي من الملابس ، تجهيز الجسم بالدفء ووقايته من تقلّب الجوّ . ومن المحتمل ان تعود الملابس في المستقبل ، الى مكانتها الاولى في حياة الانسان ، فيصبح غرضها الدفء والوقاية فقط ، لا الزينة ، اذ لا يخفى انهُ انقضت قرون تليها قرون ، كان في خلالها الغرض الاول من الملابس الزينة لاستيقاف نظر الجنس المقابل . ولكن رأي الناس في المستقبل سوف يطرأ عليهِ تحوّل وانقلاب . فالريش الثمين في قبعة سيدة ، أو على صدر فستانها ، وقطع التخريم الملونة الواهية ، في اماكن ظاهرة من الملابس ، وتلوين الاظافر أو تفضيضها أو تذهيبها ، سوف ينظر اليها في المستقبل ، على انها طعمٌ جلسيٌّ ، لا اكثر ولا أقل . فتوضع المرأة التي تستعملهُ ، في طبقة واحدة ، مع الطيور والفراش ، التي تعتمد على أمثال هذه الاساليب ، لمثل هذا الغرض البيولوجي

والراجح أن مبتكري الازياء ، يكونون قد زالوا من الوجود حينئذٍ ، بعد أن اصبح الزيّ واحداً في كل مكان للنساء والرجال ، لأن الغرض من تفصيل الملابس ، في ذلك العهد البعيد ، سوف يكون الفائدة لا الزينة وجمال المظهر . هذا على الاقل ما يقولهُ العلامة الانكليزي الاستاذ لو في كتابهِ عالم «المستقبل العجيب» . ولما كان محدثكم ، انساناً ، تحركهُ دوافع الجمال فانهُ يرجو الاّ تصح نبوءة الاستاذ لو في حياتهِ ، ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد والفائدة

والفائدة في تفصيل الملابس تقتضي اموراً يحتمها العلم ، منها حسن التهوية للجسم المتمّط لحفظ الجلد سليماً ، ومنها سهولة اختراق الاشعة لنسيج الملابس ، من فتاتين وبدلٍ ، حتى نستفيد ونحن مرتدون الثياب ، الفائدة التي ينشدها طلاّب الرياضة على الشواطىء البحرية ، في ضوء الشمس والهواء الطلق . أما الضعف المستكنّ في الطبيعة البشرية ، الذي يسهل على مشعوذي الخياطين والخياطات ، أن يمتلوا على الجماهير ، أزياء الفصل المقبل ، ويفرضوا عليهم ما يجب أن يلبسوا وكيف يجب أن يلبسوه ، فنكون قد تغلبنا عليهِ ، بالتعليم والتثقيف ، لانهُ قد لا يصعب ان تقنع الجنس اللطيف في المستقبل ، بأن استعمال الملابس لما يستعملها لها ، أي للزينة واستيقاف نظر الرجال ، يضعهنّ في صفٍّ واحدٍ مع بعض الحيوانات والنباتات ، وانّ كرامتهنّ لا تحتمل الموازنة من

هذا القبيل ، مع الحيوانات والنباتات ، لأن بعض الأزهار ، أو جميع الأزهار ، تظل تتوقهن اشتياقاً مضاعفة في ابتكار الوسائل العجيبة لاجتذاب النحل والطير

***

يرجح العلماء ان الساعي معرفة الانسان باسباب تقلّب الجوّ ، سوف تمكنهُ من السيطرة ، عليهِ بعض السيطرة ، وعندئذٍ يصبح من الضروري جعل الملابس ، من نماذج قليلة ، متماثلة ، رغبة في التوفير والاقتصاد . اذ لا يصحّ أن يكون في متناولنا ، جعل الحرارة في غرفةٍ ما موافقة لسيدة مرتدية أوهى الحرير ، حالة أن زوجها في الغرفة نفسها يرتدي بذلة من الصوف الكثيف . فملابس الناس في العصر الحاضر لم تصنع لتكون ذات صلةٍ ، بحالة الجوّ على الاطلاق . فملابس الرجال تزهق النفوس في أيام الحرّ ، وتضيّق أطواقها على رقابهم ، وتشدُّ أحزمتها على معدهم . ثم أنها ليست صحية على الاطلاق في أيام البرد ، فبضع قطرات من المطر ، تحوّل القميص المكوي والياقة المكوية الى خرق مبللة ، والطربوش القرمزي الجميل ، الى سطح قرمزي مجدور . حتى في ايام الشمس الطالعة ، تحجب ملابس الرجال عن أجسامهم الاشعة المفيدة ، المنطوية في ضوء الشمس ، الا عن ايديهم ووجوههم ، وهذا يمهد سبيل الثروة لبعض الاطباء الذين يعالجون الناس بأشعة مصنوعة او مولدة في المعمل ، وهي تعم الفضاء مباحة للصالحين والطالحين على السواء . اما النساء فأفضل حالاً من الرجال من هذه الناحية لكثرة ما يكشفن في ايام الدفء أو الحر عن سيقانهن وأذرعتهن ونحورهن

من المحتمل ان يوفق علماء الكيمياء في المستقبل الى صنع نسيج شفاف للاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس . فزجاج شبابيكنا ، شفاف للضوء ، ولكنهُ يحجب هذه الاشعة المفيدة . اي اذا كشف احدنا عن صدرهِ ، وجلس في ضوء الشمس وراء زجاج نافذة مقفلة ، لا يجني من ضوء الشمس الفائدة التي يجنيها لو تعرض له في العراء على شاطىء البحر . ولكن العلماء تمكنوا في العهد الاخير ، بعد البحث والامتحان ، من صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي ، في اختراقهِ . وهو زجاج غالي الثمن ولا يستعمل الآن الا في المصحات . ولذلك فليس من المستحيلات صنع نسيج للملابس من قبيل هذا الزجاج العجيب

عندئذٍ يصبح غرض الذين يعهد اليهم في تصميم الملابس الصالحة الموافقة للحياة في المستقبل ان يصنعوها على ابسط مثال ، حتى يسهل خلعها وتعقيمها ، على اهون سبيل . لان ناس المستقبل ، رجالاً ونساء ، لن يسلموا بانفاق ساعتين او ثلاث ساعات كل يوم ، في لبس الملابس المؤلفة من قطع كثيرة صغيرة ، وخلعها . وهي في تعدد طياتها من اصلح ما يكون لتجمع الغبار في ثناياها وما يحمله الغبار من المكروبات . اذ لا يندر حتى في عصرنا هذا من يدعي ان وقته من ذهب وان كل ساعة من وقته تعدل جنيهاً او بعض جنيه او اكثر من جنيه . أفيدري من يدعي هذا الادعاء ، انهُ ينفق كل سنة ما متوسطه خمسمائة جنيه الى سبعمائة جنيه على الاقل في لبس الملابس

— لكثرة الآراء واختلافها — ان يلازموا ، موائد الطعام أو ان يموتوا جوعاً

ولكن لا شبهة في ان مقادير الطعام في المستقبل سوف تكون قليلة جداً . فنا نأكله الآن يفوق كثيراً ما نحتاج اليه لاغراض التغذية . ومن هنا كانت السجون اصح من الفنادق . واذن فسوف يكتفي الناس في المستقبل بأقل قدر من الطعام يحتاج اليه الجسم . فقد كانت العادة في الماضي ولا تزال في بعض البلدان ، ان يمضي الانسان في الاكل حتى يعجز عن الهوض . واصل هذه العادة عدم اطمئنان الانسان الى حصوله على الغذاء الوافي في ساعات الجوع او في مواعيد معينة . فكان الصياد اذا اصاب طريدة بعد بضعة أيام من الجوع يأكل منها ما يستطيع ، لانهُ لا يدري متى يصيب طريدة اخرى . ولكن هذا عاد غير ضروري الآن . بل أننا اذا مارسناه عاق عونا العقلي . ولكن من سوء الحظ أن معدة الانسان تعودت من قرون متطاولة ، أن تتلقى اقداراً كبيرة من الطعام . فاذا استطاع العلماء في المستقبل أن يحصروا القدر الوافي من الغذاء في بضع حبات يتناولها الانسان في اليوم — وهذا منتظرٌ تحقيقهُ — وجب كذلك أن نخترع اشياء اخرى تملأ المعدة ، ولو لم يكن فيها غذاء ما ، حتى تكفي المعدة هذا الاحساس الذي تعودتهُ في الماضي . وتبقى الحال على هذا المنوال ، حتى يتحقق ، ما يتخيلهُ الاستاذ لو وهو من أغرب ضروب الخيال

فالاستاذ لو يتخيل انهُ سوف يأتي يوم يصبح الانسان فيهِ غير محتاج الى المعدة التي عملها هضم الطعام حتى يصبح في شكل يسهل معهُ انتقالهُ الى الامعاء فيُمتَصُّ من جدرانها . فاذا تم صنع الغذاء في حبوب صغيرة كما قدمنا ، استغني عن المعدة وعملها ، وعندئذٍ تصبح عملية استئصال المعدة ذائعة ذيوع استئصال الزائدة أو ذيوع التطعيم والتلقيح ضدّ الأمراض المعدية . وعندئذٍ نعود لا نحتاج الى تناول الأشياء التي غرضها ملء المعدة فقط لمجرد ملئها . ويتبع كل هذا ، ان الوقت الذي ينفقهُ الناس حول موائد الطعام والشاي يوفّر حينئذٍ كلهُ ، أو على الأقل تسعٌ وتسعون في المائة منهُ ، وتنفق الساعات التي توفّر كل يوم ، من وقت اللبس والأكل ، في العمل أو في مطالب الروح والعقل العليا

وسوف يبحث الكيمائيون عن أفضل المشروبات للتناول اليومي . فالمشروبات الشائعة الآن هي الكحول ، كما في الوسكي والكونياك والويسكي (العرق) ، أو القهوة والشاي وعنصرهما الفعال متشابه ، أو التبغ (وقد حسبناهُ مشروباً مجوزاً) وعنصره الفعال هو النيكوتين . ولكل مادة من هذه المواد اخطارها . ولا ريب في أن تناول الكحول سوف يمنع منعاً عامّاً باتّاً في المستقبل . وليس سبب ذلك لان استعمال الكحول خطر على السواد من الناس ، بل لانهُ خطرٌ اذا حفلت به رؤوس الاقلية منهم . فالمسكرات ممنوع استعمالها أو عملها الا برخصة . وليس ثمة من ينكر أن للمسكرات فائدة في بعض الاحوال . ولكن الخوف من أن تقع في أيدي الناس اختلّ فيهم ميزان العقل والشعور ، أفضى الى منعها ، لئلا تصبح في أيديهم خطراً عامّاً . واذن فالكحول في المستقبل لا يمنع

الا برخصة ، لمن يقرُّ الرأي العمي ان الكحول ضروريٌّ لهم . عندئذٍ يحتشي الشبان السكارى المترنحون من الاماكن العامة . لانهُ من غرائب هذا العصر ، أن يحسب التثبُّؤ في مكانٍ عام على أثر الافراط في الأكل ، عملاً سمجاً ، ولا يحسب الترنح بأنفٍ محمرّ وعينين زائغتين على اثر الافراط في الشرب ، عملاً سمجاً كذلك

***

ولعلّ المشروب الجديد الذي يستنبطهُ الكيماويون ، يكون من اثره ، تمكين الناس من البقاء مستيقظين مدة طويلة من دون ان يصابوا باعياء او بردّ فعل سيىء بعد زوال اثر المشروب . والواقع ان مركباً من هذا القبيل امتحن في بعض معاجم المانيا في خلال الحرب الكبرى . فثبت انهُ يمكن العامل من ان يعمل اثنتي عشرة ساعة متواصلة بسهولة ولم يشعر العمال الذين جرب فيهم باي رد فعل سيىء بعد مداولة استعماله اثنتي عشرة شهراً

والمرجح ان المنبهات التي يتناولها ناس المستقبل ، لا يكون من اثرها تخدير الدماغ ، وخلق صورة غير حقيقية للحياة في اذهان من يتناولها . بل على الضد من ذلك سوف يكون من شأنها ان ترهف حواسه ، فيصبح الصناعي الذي يتناولها اقدر على متابعة الآلات السريعة ببصره او بسمعه . او قد يبلغ المصور مشروباً يرهف فيه الاحساس بالالوان ، ولكن الاعتراض على ذلك ان كل من رغب في مشاهدة صورته يجب ان يتناول هذا المنبه كذلك حتى يرى الصورة على ما يجب ان تُرى

ويرى المفكرون ان ارتقاء الصناعة الآلية ، سوف يفضي من تلقاء نفسه ، الى نشر الاعتدال في تناول المنبهات . فاستعمال السيارة كان افعل في هذه الناحية من عشرات من جمعيات الاعتدال لان سائق السيارة يفهم انهُ اذا لم يكن مالكاً لزمام عقله واعصابه ، عرّض نفسهُ وعرّض غيره للخطر . نعم الحوادث كثيرة وتبعث على الحزن والاسى . والذين كانوا سبباً لها يجب ان يعاقبوا اشدّ العقاب . ولكن الواقع ان العلم الصناعي ممثلاً في السيارة كان افعل في هذه الناحية من وعظ الواعظين وارشاد المرشدين . كذلك صانع المستقبل ، فانهُ اذا ادرك عظم القوة التي رهن سيطرته ، امتنع عن كل ما من شأنهِ ان يحول بينهُ وبين هذه السيطرة الكاملة عليها ، لان في ذلك كرامتهُ الثنية

اما من حيث التبغ فيرجح انهُ سوف يُسنّ قانون ينص على انه من المحرم بيع السجاير قبل ان تستخرج منها المواد الضارة التي فيها باشراف علمي يضمن ذلك

هذه خواطر تجمع بين العلم والخيال والفكاهة ، فيها العملي الذي يمكن تحقيقهُ قريباً ، وفيها النظري الذي قد لا يتحقق الا بعد قرون ، وفيها السخيف ، او ما نحسبهُ سخيفاً ولن يتحقق على الاطلاق . ولكنني ارجو ان تكونوا قد استمتم في بعض ما قلته شيئاً من الفكاهة ، وارجو كذلك ان يكون البعض الآخر مما يحملكم على التفكير في نواح من الملبس والمأكل تحتاج الى الاصلاح

وخلعها ، اي انه ينفق ما متوسطهُ نحو ساعتين في اليوم على شؤون اللبس ومقتضياته

ويتخيل الاستاذ لو ثوب المستقبل مؤلفاً من قطعة واحدة ، لا احزمة فيهِ ولا ازرار ولا كشاكش ولا ياقات ، يحكم اقفاله عند المعاصم والكواحل والنحور ، لمنع القذر من التطرق الى داخله . ويكون الثوب فضفاضاً ، لانه ليس من حسن الادب في شيء ان يكشف الانسان لجيرانه عن شكل جسمه ، على نحو ما تفعل بعض بنطونات الرجال الآن وبعض ملابس النساء

وعلاوة على ذلك يكون الناس قد تعلّموا حينئذٍ ان الهواء نفسهُ خير مدفئ للجسم ، وان الملابس تلبس لا لتدفئة الجسم ، بل لتحفظهُ دافئاً

ثم ان ليس البدلة الواحدة في المستقبل ، يومين متواليين ، من دون تعقيمها ، سوف يحسب عملاً افظع من الجلوس الى مائدة الطعام من دون غسل الايدي ، بعد ان يكون صاحبها قد لوّثها بضروب الاقذار في خلال قيامهِ بعملهِ اليومي . وقد لا يبعد ان يعمد والدو المستقبل الى المكرسكوب ، فيرون اولادهم ، جوارب هذا العصر واحذيتهُ وقمصانه ومعاطفه ، او قطعاً من هذه كلها على شريحة المكرسكوب . فعندئذٍ يرى الاولاد هذه الملابس ، وسطوحها تعجُّ بضروب المكروبات فاذا هي اقذر من القاذورات نفسها في نظر العلم او مثلها على الاقل . وعندئذٍ يتعجّب ابناء العصور القادمة ، كيف كنا نحن ، في هذا العصر ، في القرن العشرين ، نلبس ملابس هذا شأنها

ولذلك لا يبعد ان يستنبط في المستقبل ، معقم ، في شكل خزانة كبيرة ، توضع فيها الملابس مساء عند خلعها ، فيطلع عليها الصباح ، فاذا هي نقية من المكروبات ، لان المكروبات تكون قد قتلت في المعقم ، على نحو ما يميت الطبيب المكروبات على ادوات جراحتهِ عند ما يعقمها

***

وقد يكون من الخير ، ان نبين ان المشي باحذية عالية الكعوب ، يضعف عضلات البطن ، ويجعل أصابع القدمين ، قرنية مشوّهة وتبعث على كثير من الالم وعلى الاشمئزاز كذلك عندما تطلُّ من احذية الصيف الخاوية . فاحذية النساء في المستقبل لن تكون عالية الكعوب . ثم ان القراء على اختلاف انواعها سوف تفقد قيمتها متى ادرك العلماء والصناع ، كيف يصنعون الفرو بالتركيب الصناعي على نحو ما يصنعون الحرير الصناعي الآن . فاذا مضى العلماء في مباراتهم للطبيعة في صنع الحجارة الكريمة فقد يكون العاج في المستقبل ، افضل ما يُتزيَّن بهِ ، حتى يكشف عن سر تركيبهِ في المعمل . ولما كان من المرجح ان استعمال النظارات على العيون ، سوف يزداد انتشاراً ، حتى لقد يصبح عامًّا في المستقبل ، فالمرجح ان استعمال المظلات في الصيف او في الشتاء يصبح حينئذٍ امراً ممنوعاً بقانون ، لان استعمالها ينطوي على خطر عظيم في الشوارع والميادين المحتشدة بالناس . ولما كان الصلع كذلك آخذاً في الانتشار — حتى لقد يصبح عامًّا بين الرجال على الاقل — فلا بدَّ من استنباط لباس للرأس يقيهِ من الشمس والمطر . وقد يكون هذا اللباس في البلدان الباردة

مما يدفأ داخله بالكهربائية بإسلاك دقيقة ممتدة من بطرية صغيرة في الجيب . اما عادة رفع القبعات للنساء عند الالتقاء في الشوارع او في المركبات العامة ، فسوف تبطل ، لانهُ علاوة على مطالبة النساء بمساواة الرجال ، يتعرض رفع القبعة للاصابة بزكام حادّ ، عند تعريض مساحةٍ كبيرة من الجلد الحسّاس للهواء

ومما لا ريب فيه ، ان قيمة الانسان في المستقبل ، سواء أكان سيدة او رجلاً ، سوف تعين بما يفكر فيه ، لا بما يرتديه ، ولا يمكن حينئذ ان يخفي الانسان جهله وسخفه طويلا ، تحت مظهر رشيق ، ويبقى فائزاً باحترام معاشريه

٤ — الغذاء

اما عن الطعام ، فيقال ان الممثل البريطاني المشهور ، المعروف باسم كين ، كان يختار طعامه ، وفقاً للدور الذي ينتظر منه تمثيله على المسرح . فكان يأكل لحم الخنزير قبل ان يمثل دور طاغية ، ولحم البقر قبل ان يمثل دور قاتل ، ولحم الضأن الغض قبل ان يمثل دور عاشق ولهان . والعلماء يقولون انهُ في الامكان جعل هندي ، مثلاً ، متصفاً ببعض الصفات المميزة للياباني ، بتغيير طعامه . ويذهب آخرون الى ان الصفات المميزة لقوم ما ، انما منشؤها الطعام الخاص الذي يأكلونهُ . وعلى ذلك ، فقد يكون كبار الطهاة في المستقبل ، اعظم بناة لصرح السلام العام . وقد أثبت علماء العصر الحديث ان لمفرزات الغدد الصم أثراً اي اثر في أطوارنا النفسية على اختلافها . واذن فلا بد لعلماء المستقبل من التعمق في دراسة العلاقة بين الطعام وهذه الغدد حتى يستطيعوا ان يسيطروا بالطعام على أحوال النفس

قلنا ان الاختصار في اللباس ، سوف يكون آية المستقبل ، كذلك الاختصار في الطعام . فالناس لن يكتفوا في المستقبل ، باتفاق ربع ساعات اليقظة حول موائد الطعام والشاي . بل انهم ليدركون حينئذ ان الاهتمام بالبفتيك ، والتمثل بالشمبانيا ، ليسا من ضرورات البحث في الاعمال ، كما يدعون الآن ، بحثاً معقولاً

ومما لا ريب فيه ان ناحية من نواحي الاكل التي ينتظر ان تفوز بقسط كبير من عناية العلماء في المستقبل ، هي ناحية المواد الكيمائية اليسيرة التي لا بد منها للجسم السليم مثل بعض العناصر المعدنية كالكلسيوم والمغنيزيوم والحديد واليود وغيرها . والمرجح ان تحذف من قوائم طعامنا ، المتبلات والمشهيات كالخردل والفلفل ، لانها تهيج الاغشية الحساسة في الجهاز الهضمي . وقد قال احد العلماء : ان تناول قليل من كلوريد المغنيزيوم ، يساعد على منع السرطان . ولكن اذا اراد الناس ان يأكلوا كل ما من شأنهِ ان يمنع السرطان أو ان يكفّوا عن كل ما يسببه ، اضطروا

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

لمدير مصطفى الشهابي

— ٢ —

المفصليات ARTHROPODES

قلت في آخر المقال السابق ان المفصليات من شعب الحيوان الكبيرة وان من ضمنها الحشرات التي لا يحصيها العد . ولاشك ان عدد انواع الحيوانات المفصلية يزيد وحده على انواع الحيوانات السائرة . وهي تعرف بتفاصيل اعضائها وجسمها يكون مغطى بجلدة تقسو أحياناً وتسمى « شيتين » اي الغطاء ومخصائص اخرى لا يفيد تناولها في هذا المقال لانها مفصلة في كتب الحيوان

ومن المفصليات ما لها خياشيم تتنفس بها في الماء وهي المنسوبة الى ردف شعبة « الخيشوميات » Branchiates ومنها ما لها قصبات تصلح للتنفس في الهواء وهي « القصبيات » Trachéates . وفي هذه ثلاثة صفوف : « العنكبوتيات » Arachnides و« كثيرات الأرجل » Myriapodes و« الحشرات » Insectes . اما الاول ففيها صف مهم واحد وهو صف « القشريات » Crustacées

***

« القشريات » هي كما قلت حيوانات مفصلية مائية لها غطاء رقيق شفاف في بعضها وكلسي حجري قاس في بعض كما في السرطان والكركند . ويقسمون القشريات ردفين صف وهما « مشرومة الغشاء » Entomostracés و« رخوة الغشاء » Malacostracés وفي ردف الصف الاخير حيوانات متناسقة في اجزائها اي يكون فيها ١٩ زوجاً من الاجزاء دائماً . واليها تنسب القشريات الكبيرة . اما ردف الصف الاول ففيه حيوانات يتفاوت عدد اجزائها . وهي قشريات دنيا

وفي مشرومة الغشاء اربع رتب وهي « ورقية الاقدام » Phyllopodes و« ذيلية الصدف » Ostracodes و« مجذافية الاقدام » Copépodes و « هدبية الأقدام » Cirripèdes وفي كل من هذه الرتب حيوانات كثيرة لا يمكننا ذكرها في هذا المقال الموجز

اما رخوة الغشاء فيقسمونها بادىء بدء قسمين كبيرين وهما « لاطئة الأعين » Edriophthalmes و« زنبدية الأعين » Podophthalmes وفي القسم الاول رتبتان مهمتان وهما « متساوية الاقدام » Isopodes و« مزدوجة الاقدام » Amphipodes وكذلك في القسم الثاني ثلاث رتب وهي « مشتوقة الاقدام » Schizopodes و« ورقية الاقدام » Stomatopodes و « عشارية الاقدام » Décapodes

وعشارية الاقدام اعلى القشريات منزلة وانها تركيباً وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة وهي اولاً الذيّالة «عن معجم شرف» Marcoures وفيها الأربيان والروبيان (قُرَيْدِس في الشام وجِرْبري في مصر Crevette) والكَرْكَنْد او سرطان البحر Homard والكركند الشائك Langouste. ثانياً «قصيرة الاذناب» Brachyoures وفيها السرطان المعروف ثالثاً «شاذة الاذناب» Anomoures

***

﴿العنكبوتيات﴾ هي مفصليات تتنفس في الهواء لا في الماء. وتتركب من جزئين احدهما يشتمل على الرأس والصدر والثاني هو البطن. وتكون جميع الزوائد والاقدام في الجزء الاول. ويحتوي هذا الصف على الرتب الآتية: «العَقْرَبية» Scorpionides و «اشباه العقربية» Pseudoscorpionides «وقدمية اللوامس» Pédipalpes. «والشبنّات» Solifuges و «الرُتيليّات او الحواصد» Phalangides «والعناكب» Aranéides و «القُمّلية او القُرادية» Acariens و «البطيئات» Tardigrades

﴿كثيرة الاقدام﴾ يحتوي هذا الصف على الحيوانات المعروفة المسماة ام اربع واربعين ويسمونها الحَريش. وثمة رتبتان وهما «شفوية الاقدام» Chilopodes و «شفوية الاحناك» Chilognathes

***

﴿الحشرات﴾ قال احد علماء الحيوان ان الانواع الحيوانية اذا قدرت بنحو ٢٧٢٠٠٠ نوع فان منها ٢٠٩٠٠٠ نوع تنتسب الى شعبة المفصليات. ومن انواع هذه الشعبة ١٨٠٠٠٠ نوع تنتسب الى صف الحشرات وحده. والحشرات اجمالاً متسقة التركيب فلها دائماً ثلاثة اجزاء واضحة: رأس وصدر وبطن. وفي الرأس العيون والفم والزُبانيان «القرنان». وفي الصدر ثلاث حلقات عليها ثلاثة ازواج من الارجل لا تزيد ولا تنقص ولذلك اطلق بعضهم على الحشرات اسم سداسية القوائم Hexapodes. وتكون الاجنحة (وعددها زوجان) قائمة على حلقتي الصدر السفليين. اما البطن فليس فيه زوائد في الاعم. وهو ينتهي بثقب للافراز وآخر للتناسل

ومن المعلوم ان تقسيم الحشرات يقوم على الاجنحة واشكالها. فهنالك اولاً ردف صف «المُجَنَّحات» Ptérygogènes وردف صف «عديمات الاجنحة» Aptérygogènes والى هذه تنتسب رتبة «المُذَنَّبات» Thysanoures اما المجنحات ففيها ثماني رتب معروفة وهي:

(١) أصلية الاجنحة Archiptères	(٥) مُغْمَدة الاجنحة Coléoptères
(٢) مستقيمة الاجنحة Orthoptères	(٦) غِشائية الأجنحة Hyménoptères
(٣) نصفية الأجنحة Hémiptères	(٧) حَرْشَفية الأجنحة Lépidoptères
(٤) عَصَبية الأجنحة Névroptères	(٨) مزدوجة الجناح او ذوات الجناحين Diptères

﴿ المُذَنَّبات ﴾ — هي اقدم الحشرات وابسطها . سميت كذلك لأن لمعظمها خيوطاً كالاذناب في مؤخرها . واليها تنسب فصيلة « اللاحسات » Lépismides ومنها حشرة كالفضة مبذولة في البيوت تلحس المواد الكربية والصوف والكتب أحياناً ولها حراشف لامعة ولذا يسمونها بالعامية « السمكة الفضية » Poisson d'argent واسمها العلمي Lepisma saccharina اي لاحسة السكر او عثة السكر

***

﴿ اصلية الاجنحة ﴾ — هي اقدم المجنحات من الحشرات . وأهم فصائلها : « الأرَضِيّات » Termitides و « اليَعْسوبيات » Libellulides و « بنات اليوم » Ephémérides (عن لغة العرب)

***

﴿ مستقيمة الاجنحة ﴾ — تتصدر من الرتبة السابقة . ولها مثلها استحالات غير كاملة وأفراد صالحة للسحق لكن جناحيها الاماميين يقسوان . وكثيراً ما يصيران غير صالحين للطيران . وأهم فصائل هذه الرتبة « ثاقبات الاذن » Forficulides و « بنات وَرْدان » Blattides و « الجَرادِيات » Acrididés و « الجُنْدُبِيات » Grylliides و « اشباه الجراد » Locustides وهي الجراد الطويلة القرون و « السُرْعُوفيات او فصيلة السراعيف » Mantides (لغة العرب) و « العَصَويات » Phasmides

***

﴿ نصفية الاجنحة ﴾ — اهم خواصها كون افواهها معدة لمص السوائل وكون استحالاتها غير تامة . وفيها ردف رتبة « مختلفة الاجنحة » Hétéroptères وردف رتبة « متشابهة الاجنحة » Homoptères . والى الردف الاول تنسب الفصائل الآتية « فصيلة بَقّ البساتين » Pentatomides و « فصيلة بَبّر الكثرى » Tyngides و « فصيلة البقّ » Acanthides وهو بق الفراش ، و « فصيلة ذارعات الماء » Hydrométrides و « فصيلة عقارب الماء » Népides

اما الردف الثاني فاليه تنسب « فصيلة الزيزان » Cicadides و « فصيلة براغيث النبات » Psyllides و « فصيلة الارَق او حشرات المنّ » Aphides و « فصيلة قمل النبات او حشرات المَغافير » Coccides (الارق والمغافير عن معجم الحيوان)

***

﴿ عصبية الاجنحة ﴾ — استحالاتها تامة وبهذا تفترق عن اصلية الاجنحة مع انها متحدرة منها . واهم فصائلها « فصيلة ليث عِفرّين او ام عُوَيف » Myrmeléonides (معجم الحيوان) و « فصيلة حشرة المؤلؤ » Hémérobides

﴿ مغمدة الاجنحة ﴾ — يمكن عدها متحدرة من مستقيمات الاجنحة . ولها استحالات

تامة وهي اعظم رتب الحشرات واكثرها عدداً . وأفواهها جعلت للمحق . وجناحاها الاماميان استحالا غمدين قاسيين يختبىء تحتهما الجناحان الخلفيان . ويعتمدون في تفريق مختلفة الاجنحة بعضها عن بعض الى ارساغ اقدامها . فالتي يكون رسغها خمسة اجزاء تسمى « خماسية الاجزاء » Pentamères وهكذا تتفرق « رباعية الاجزاء » Tétramères و « ثلاثية الاجزاء » Trimères و « مختلفة الاجزاء » Hétéromères وكل من هذه الاقسام الاربعة ردف رتبة

وفي خماسية الاجزاء الفصائل الآتية : «فصيلة الخنافس البشرية» Cicindélides و« فصيلة حشرة السرطان » Carabides و « فصيلة الدرقة » Silphides و « فصيلة العث » Dermestides و « فصيلة أبليمة التأشير » Lucanide و « فصيلة الدودة البيضاء » Mélolonthides و«فصيلة الجعلان » Scarabéides و« فصيلة الزقانب » Buprestides و« فصيلة الدودة الصفراء » Elatérides و « فصيلة اليراعة او الحباحب » Lampyrides

وفي رباعية الاجزاء ما يأتي : « فصيلة القتع » Scolytides و « طويلات القرون » Cérambycides ou longicornes وسميت « القرنبيات » في معجم الحيوان والارجح استعمال هذه اللفظة لفصيلة Coprides لان صفات القرنبي في الكتب العربية اقرب الى صفات انواع هذه الفصيلة وهي في الحقيقة تحت فصيلة الجعلان . ومن رباعيات الاجزاء ايضاً « فصيلة السوس » Curculionides و« فصيلة ذوات السبيبة » Bostrichides (الاب السناس) .

وفي ثلاثية الاجزاء « فصيلة الخناسيق او بنات العيد » Coccinellides (معجم الحيوان) . وفي مختلفة الاجزاء « فصيلة خنافس الدقيق » Ténébrionides

***

﴿ غشائية الاجنحة ﴾ — أعلى الحشرات قدراً واكثرها فطنة وذكاء . كثير منها تعيش مجتمعة ويكون افرادها على طبقات ولكل طبقة عمل خاص في سبيل المجموع . ويتجلى ذلك في حياة النحل والنمل وغيرها . وتقسم هذه الرتبة ردفي رتبة وهما : «ذوات المبشقب او لاصقات البطون Porte-aiguillon ou pétioliventres و « ذوات الحسة او معلقات البطون » Térébrants ou cessiliventres

وفي الردف الاول « فصيلة زنبور الحنطة » Céphides و«فصيلة الذباب المنشاري» Tenthrédinides

وفي الردف الثاني العفصيات Gallicoles ou cynipides . وورد في معجم الحيوان عن مجلة لغة العرب انها الاوابر مفردها آبرة وقنفش واحدتها قنفشة . قلت أما انا فأرجح اطلاق الاوابر على فصيلة Chalcidides لان اليها ينسب الذباب الذي يأبر التين البستاني وهو مشهور

ومن هذا الردف ايضاً «فصيلة الذباب المهتز» Ichneumonides و «فصيلة النحل» Apides و « فصيلة الزنابير » Vespides و« فصيلة النمل » Formicides وقريب منها فصيلة «جبارة النمل» Camponotides و « فصيلة نمل البساتين » Myrmicides

﴿ حرشفية الاجنحة ﴾ — هي رتبة الفراش . سميت حرشفية الاجنحة لوجود حراشف دقاق ملونة على اجنحتها الغشائية . وأفواهها تصلح للمص واستحالاتها كاملة . وهي تقسم رتبة ذاردف الاول « دبوسية القرون » Rhopalocères والثاني « مختلفة القرون » Hétérocères وفي الاول فصائل منها «الفراشية» Papilionide و «فصيلة فراشة الملفوف» Piérides و «فصيلة الفراشة النطاووسية » Nymphalides

ومن فصائل الردف الثاني «الدودية» Bombycides ومنها دود الحرير وغيرها . و « فصيلة ثاقب الخراج» Cossides و «فصيلة دودة الراهية» Liparides و «فصيلة فراشة الجُنْجُل» Hépialides و «فصيلة طاووس الليل او الفصيلة الوَحْلية» Saturnides و «فصيلة الدارعات» Géométrides ou phalénides و «فصيلة أبو الهول او فصيلة فراش الشَفَق » Sphyngides و « فصيلة فراش الليل أو الليليات Noctuellides و « فصيلة فراشة الحصاد » Agrotides و «فصيلة فراشة غمّا او الدودة المُقَوِّسة Plusides

وهنالك مجموعة من الفراش يسمونها « دقاق حرشفيات الاجنحة» Microlépidoptères تنسب اليها « فصيلة سوس الثياب » Tinéides و « فصيلة دودة التفاح » Pyralides و « فصيلة الفاتلات » Tortricides

ooo

﴿ ذوات الجناحين ﴾ ليس لها سوى جناحين كما هو ظاهر في اسمها . والجناحان الخلفيان هما اللذان فقدا . وفيها خرطوم للمص . واستحالاتها تامة . وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة . فاردف الاول « قصيرة القرون » Brachycères والثاني « خيطية القرون » Némocères والثالث « عديمة الاجنحة Aphaniptères ومن قصيرات القرون « فصيلة النَمر» Tabanides و« فصيلة النِسار او ذباب النَغَف » Oestrides (معجم الحيوان) و«فصيلة الذباب » Muscides و«فصيلة العَنتر » Anélides (معجم الحيوان)

اما خيطية القرون ففيها « فصيلة البَعُوض » Culicides و« فصيلة القِرْش » Simulides و « فصيلة السُوَيْكنَة » Psychodides (تعشير ساكتة . هكذا تسمى في لبنان ووادي التيم. وتسمى السِكّيت في بيروت . وهي مبذولة في انحاء الشام تلسع على صغرها لسعاً مؤلماً دونما صوت) و« فصيلة طوال البعوض » Tipulides و « فصيلة ذباب الحنطة » Cécidomides

واما عديمة الاجنحة فهي البراغيث Puliciens ومنهم من يجعلها رتبة برأسها

هذه هي القاط التصنيف في الحيوانات الدنيا . اما الحيوانات العليا فالقاط تقسيمها معروفة الا قليلاً . ولا اظن ان العلامة صاحب معجم الحيوان او البحاثة صاحب معجم الالفاظ الطبية والطبيعية قد اغفلا كثيراً منها

البعث الاول

[انشأ الشاعر على نحو هذه ملحمة كبيرة عنوانها «البعث الاول» تقع في نحو ثلثمائة بيت من الشعر وموضوعها الفن بين الرجل والمرأة تنشر منها هذه القصيدة التي سماها الشاعر على لسان ملك يتحدث الى حواء عن الفتاة الاولى]

هنالكَ حيث تَشبُّ الحياة وحيثُ الوجودُ جنينَ العَدَمْ
وحيث الطبيعةُ جبّارةً تشقُّ الوهادَ وتبني القممْ
وحيث السعادةُ بنتُ الخيالِ ولذّتُها من معاني الألمْ
وحيث الطريدانِ شجّا الكؤوس وعبّا صُبابتها من قِدَمْ

***

رنا والطبيعةُ في حَلْبِها وحواءُ عاريةٌ كالصنمْ
فمن أين سار وأنّى سرى تصدّتهُ مقبلةً من أممْ
هنالك أولُ قلبٍ هفا وأولُ صوتٍ شدا بالنغمْ
وأولُ أغنيةٍ صوّرتْ وخطّتْ على اللوح بعد القلمْ !

***

فما لكِ حواءُ أنكرتهِ وأعقبتهِ حسراتِ الندمْ
لقد كان راعيَكِ المجتبى فأصبح رأيكِ المتهمْ
ولولاكِ ما ذرفتْ عينُهُ ولا شامَ بارقةً فابتسمْ
وعاش كما كان آباؤه يُغنّي النجومَ ويرعى الغنمْ !!

مصر قبل ٤٥ قرناً تحمل :

لواء الأدب القديم

حكم الفيلسوف « پتاح حتب » ونصائحه

[لاحمد يوسف : بالمتحف المصري]

قد يجد الدارس لتاريخ مصر القديم سجلاً حافلاً بالعظمة ، طوت صفحاته السنون ، وكاد الاهمال والنسيان يضربان عنه صفحاً ، والواقع أن جميع اسباب الثقافة والعلم كان قد ضرب فيها أجدادنا بسهم وافر ، وان المصريين الاقدمين لم يخلفوا لنا أحجاراً نشاهدها . وقبوراً تسرح الطرف في أبنيتها ، معجبين ، أو مستغربين انهم صرفوا همهم وبذلوا كل تلك العناية في اقامتها . فهم ، الى جانب ما تركوا لنا فيها من فن نابض ناطق ، بهر الدنيا بهاؤه ، وأعجزت صنعته ، قدموا الينا وثائق من ثقافتهم وعلمهم تشهد بالفخر لهم ، وتقيم الدليل الناصع على مدنيتهم العالية

وهذا الادب ، الذي هو بضاعة الذهن العالية ، وخير ما تفخر به حياة هذا الجيل ، كان لهم فيه المجال الواسع اذ سبقوا هذا العالم بأسره ، الحديث والقديم ، الى غرس بذوره وقطف ثماره الناضجة

لم يطرقوا سبيل الأدب من ناحية واحدة ، بل مارسوه كتابة وشعراً وقصصاً ، وتياروا في أسلوبه كما تتبارى اليوم ، وكان منهم الفلاسفة ، والكتّاب النوابغ ، وكان منهم الشعراء والناثرون وكان منهم الروائيون أو القصصيون ، وقد تفننوا في أساليب فن الادب وابتكروا ، فجعلونا نقرأ لهم ما يفيض بعواطفهم ، وجعلونا نمتع أعيننا وأذهاننا بالبديع من أفكارهم وآرائهم

والمجال متسع لاثبات كل ذلك . نرى ان نبدأه اليوم بهذه الحكم العالية لأحد فلاسفتهم وكبار كتابهم ، ويدعى «پتاح حتب» . كان وزيراً للملك «إمني» ، من الاسرة الخامسة ، الذي كان حاكماً في نحو سنة ٢٦٧٥ قبل الميلاد . أي ان العبارات التي سنعرضها يرجع تاريخها الى حوالي ٤٦٠٠ عام قبل وقتنا هذا . ولا شك انها أقدم ما عرف من آثار الأدب في الوجود . ولهذا الوزير مقبرة كبيرة بديعة النقوش ولا تزال تشاهد في جملة ما يشاهد من آثار سقارة . وكانت هذه الحكم التي دوّنها ذلك الفيلسوف مما يدرس في المدارس المصرية القديمة ، كأنموذج للأدب الناضج ، يتثقف به النشء ، وظلت الاجيال تتناقلها للانتفاع بمعانيها وأسلوبها حتى عهد الاسرة الثامنة عشرة

وقد عثر على نصائح « پتاح حوتب » هذه في أوراق بردية كثيرة ، أتمها عبارة تلك المعروفة ببردية پريس — نسبة الى صاحبها — وهي محفوظة بباريس

وهاك نمن هذه النصائح ، ننقلها اليك مترجمةً حرفيًّا من دون أي تعديل . ولا ندفعك الى أن تضعها والادب الحديث في كفتي ميزان ، لتقابل بينهما . بل يجب ان لا تنسى ملاحظة قدم عهد ذلك الذهن الذي دوّنها . ومع ذلك فاني على يقين من أنك ، أيها القارىء العزيز ، ستعجب بها كل الاعجاب ، وستقدرها قدرها اذ ترى انها لا تقلّ عما في يديك من الحكم اليوم . بل إنك ستلحظ ان كثيراً من المعاني التي تحويها قد تقلّبها الايام عن ذلك العهد الغابر ، وان المصريين القدماء قد سبقوا الى معناها ، أو وضعوا بأيديهم وافكارهم أساس ثقافة العالم

والآن فاسمع ماذا كتب ذلك الفيلسوف . وسننقل اليك ما نتخيّره من العبارات لكيلا نطيل عليك

يتحدث الفيلسوف «بتاح حتب» بهذا الاسلوب :

يقول «بتاح حتب» لجلالة الملك «إسّي» : إن الشيخوخة أتت ، والهرم قد حلّ . وقد وهنت المفاصل ، وفاجأتنا حالة الكبر بالظهور ؛ وخذلت القوى ، واستبد بنا الضعف . وأصبح الفم صامتاً لا ينطق ، والعينان فاترتين ، والاذنان صمّاوين . وغدا القلب كثير النسيان ، لا يذكر حتى أمسه . والعظم مرهقاً بالشيخوخة . والأنف عاملاً لا يستنشق . (كان الأنف معتبراً عندهم كأساس الحياة البشرية) . حيان في صورة الضعف الوقوف أو الجلوس . انقلب الخير شرًّا . وانعدمت حاسة الذوق . ولم يؤد الكبر للانسان أكثر من أن جعله ضعيفاً في جميع احواله

« إذن فدع الخادم الواقف هناك — يقصد نفسه ، وهو يخاطب الملك ، وهذا تعبير متواضع يدلّ على الادب الجم — يلتمس ان يجعل نفسه شخصية في تلك السن الكبيرة . وان يجعل ولده يجلس في مكانه ، حتى يتهيأ للنصيحة ، وهو في اذن اولئك الذين يسمعون ، وفي ذهن اولئك الذين غبروا قبلنا ، اولئك الذين خدموا السلف في الزمن الماضي — والمعنى الظاهر انهُ يتمنى ان يكون ولده نافعاً للملك منفعة من مضوا لملوكهم . اما المعنى الخفي فهو فكرة حكيمة متأدبة دار حولها بشكل يشهد له بالقدرة والمهارة في اعداد الناس لقبول نصائحه بطريق مؤدب غير مباشر . وهذا هو غاية الحكمة في مخاطبة الملوك ، او ما اصطلح عليه بأدب الملوك — هل يفعل اولئك لك على مثل ما فعلوا لغيرك حتى يزول التنازع بين الناس ، ويصبح شاطئا النهر (النيل) في خدمتك

« قال جلالته : نعم . النصحه (أدّبه) في محاورات . (وهنا جملة مفقودة من الاصل الذي نقل عنهُ) حتى يكون قدوة لاولاد العظماء . وليت الطاعة تلازمه ، ويستوعب كل رأي سديد تطرحه عليه . فليس هناك من ولد يمكنه الفهم من نفسه »

وبدأ الفيلسوف نصائحه فقال : « يمكنك ان تتعلم من كل انسان . لا تعتزّ بعلمك . ولا تعتقد بأنك عالم . بل خذ النصح من الجاهل كما تأخذه من المتعلم . فان حدود العلم بعيدة المنال . وليس من احد حاز غاية العلم . والعلم الصحيح (التام) اعز من الحجر الكريم الاخضر . وهل

انت تجده مع الخادمات فوق احجار الطواحين — اي افقر الفقيرات — ؟ »

﴿ الآداب ازاء الخطيب ﴾ : « ان وجدت خطيباً لبقاً وأحسن منك براعة ، فثنِ ذراعك له واحنِ ظهرك (علامة الاحترام عند المصريين القدماء) . وان كان يتحدث عن جهل فلا تحجم عن ان تردّه الى الصواب ، حتى يقول الرجال له « انت جاهل »

« اما اذا كان يوازيك علماً ، وأخطأ في الحديث ، فاظهر نفسك بالصمت ، حتى تكون افضل منهُ . ولن يحمد هو من السامعين ، بل تعد انت من زمرة العظماء . وان كان وضيعاً ، ولا يوازيك علماً ، فلا تحمق عليه اذ تعلم انه حقير . (وهنا جملة مفقودة) . بل غض عنه الطرف ، فيعاقب نفسه بنفسه . ان من الخطل ان يؤلم المرء حقيراً . (وهنا جملة مفقودة) . قد تقتله بعقاب العظماء » — ربما يقصد من ذلك ان يلزم الصمت ويتجاهله كما يفعل العظماء —

﴿ قد تفوز بالخير في حياتك باعتمادك على الحق والصدق ﴾ اذا كنت قائد قوم ، وكان لك الامر فيهم ، فاسع وراء العمل الطيب حتى لا تبقى هناك خطيئة في اخلاقك . الصدق جميل وجزاؤه دائم . لم تتبدل قيمة الصدق يوماً منذ خلقه خالقه (منذ الخليقة) — وفي عقيدة القدماء ان الاله رع هو الذي جلب الصدق الى الدنيا — على ان من ينكر شريعته — اي الصدق — يحق عليه العقاب . انهُ الطريق المستقيم امام ذلك الذي لا يعرف شيئاً — اي الجاهل — والعمل السيء لم تصل للسيناء بضاعته — يقصد انهُ لم ينجح مطلقاً — حقاً ان السيئات قد تكسب الجاه . ولكن الجاه يبقى بقوة الايمان . وقد يقول الرجل الصادق «هذا ملك والدي» — ومعنى هذه الترجمة الحرفية هو ان تأديب والده له من طريق الصدق هو خير ما ورثه له »

﴿ كن اميناً في توزيع الرسائل ﴾ اذا كنت احد من يعتمد عليهم عظيم من العظماء ليوفده الى آخر ، فأدِّ الوفادة كما يجب . بلغ الرسالة كما يشير عليك . لا تكتم خبر ما يقال لك . وحاذر ان تقع في النسيان . تمسك بالصدق ولا تعدُ حدوده . حتى وان كنت مضطرًّا ألاّ تقص شيئاً مفرحاً . حاذر كذلك من الكلام الثائه الذي يسقط بقدر الرجل العظيم ، من طريق الاسلوب الدارج . وان اسبح العظيم عاملاً فهذا ما تمجه النفس — والمعنى من كل هذا أنك لا يجب أن تصوغ تعبيراً وضيعاً محل اللغة التي تخيرها سيدك . فانهُ يكون مخزياً للرجل العظيم اذا كانت لغته هراء —»

وهنا عبارة لم يفهم لها الناسخ القديم عنواناً . يقول فيها « يتاح حتب » :

« اذا أنت حرثت الارض وغا حقلك وأغدق الله عليك بذلك ، فلا تشبع فلك وحدك دون ذوي قربائك »

﴿ لا تحقر اولئك الذين ارتفعوا ﴾ « اذا كنت شخصاً وضيعاً ، وكنت في رعاية رجل من أهل النعمة ، يؤدي كما يجب فروض الله ، فتناس كل شيء عن سابق شأنه . لا ترفع قلبك دونه — اي لا تتعاظم عليه — على حساب ما تعلم عنهُ في الماضي . بل احترمه من أجل ما صار اليه .

لان الثروة لا تأتي من نفسها — اي جزافاً — (وهنا جملة مفقودة) ولكن الله هو الذي يهب النعمة . (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ امنح نفسك فرصة للنزهة ﴾ « إتبع قلبك — اي سر نفسك — طالما انت تعيش . ولا تعمل اكثر مما يجب . لا تختصر الوقت الذي تمنحهُ لقلبك فان من البغيض للنفس ان يختصر الوقت الذي لها »

﴿ واجبك نحو ولدك ﴾ « ان كنت ذا مكانة ، وكان لك زوجة . وانجبت لك ولداً يرضي إلههُ بعمل الحق — اي ولداً صالحاً — ويشب على خلقك . ويسعى إلى نصائحك . وكانت اعماله تصلح بيتك . وكان يرعى كما يجب مالك . فزوده منك بكل ما هو خير

« انهُ ولدك الذي وهبتهُ روحك . فلا تحجب عنهُ قلبك

« اما ان كان يسيء . ويتطاول على آرائك . ولا يتبع نصائحك . وكانت اعماله في بيتك غير صالحة . ويعارض كل ما تقوله . (وهنا جملة مفقودة) . فاقصه اذن عنك . لانهُ ليس ولدك — يقصد انهُ طاق — انهُ لم يولد لاجلك (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ تحذير من النساء ﴾ « ان كنت افرغت صداقتك في بيت كان لك الحرية في دخوله ، اذ كنت فيهِ سيداً او شقيقاً او صديقاً ، او اي صفة اخرى يسرك ان تكونها ، فاحذر ان تقرب النساء — ويقصد مغازلة من ليس له فيهن حق — فان المكان الذي هنَّ بهِ ليس صالحاً

« قد تضيع بسببهنَّ الالوف . وينجذب الرجال ببريقهنَّ الخلاب ، وقد جهلوا ان ذلك البريق ما يلبث ان يصبح كالحجارة المحروقة — اي انها نشوة قصيرة الامد ، ما تلبث ان تزول — شيء تافه . ضئيل . كالحلم . تأتي بعده الحسرة »

﴿ تحذير من الحقد ﴾ « ان رغبت ان يكون خلقك حميداً ، وان تجرد نفسك من جميع المساوىء ، فاحذر من الحقد . فهو مرض وبيء لا يشفى . ان الاخلاص يستحيل برجوده . انهُ يجعل الصديق المحبوب بغيضاً . ويغير ثقة الرئيس في رجله . ويقبح حقيقة الوالد والوالدة ، واشقاء الوالدة بالمثل — اي الاخوال — ويطلق الرجل من زوجه . انهُ حزمة من جميع انواع المساوىء . وحقيبة محلوة من كل شيء بغيض . قد يطول بقاء من كان خلقه كريماً ، ومن يسير بحسبما يأمره الخلق الكريم . انهُ يربح من ذلك الغنى . اما الحقود فيفقد كل شيء

﴿ ميزة الزواج ﴾ ان كنت رجلاً كاملاً فأسس لك بيتاً ، واحبب زوجتك فيهِ . اشبعها واكسها . واعلم ان العطر شفاء مفاصلها — اي ارضها بالعطر — سرٌّ قلبها طالما تعيش معك . انها الحقل الصالح لصاحبها — وهذا يوافق ما جاء في الآية الشريفة : « نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »

خدمات العرب للكيمياء الحديثة

نشوء الحركة العلمية في البلاد العربية

لحسن الكرامة

قال رودول في كتابه « ظهور الكيمياء»: «عند ما أخذت العلوم القديمة في الانحطاط واوشكت معالم الحضارة اليونانية على الاختفاء ، كانت البلاد العربية مزدهرة بحضارتها الجديدة ، التي بنى اركانها الدين الجديد — الإسلام — فشيدت الجامعات والمراصد والمكتبات العامة والمتاحف ودواوين الاستنساخ وجمع الكثير مما كتبهُ اليونان والفرس ونقل الى العربية. وازداد شأو هذه الحضارة بعد ما اكتسح المسلمون بلاد المغرب والاندلس . اذ لم ينقضِ زمن طويل حتى تمكن اولئك البدو من احياء بلاد الاسبان وجعلها كعبة العلم ، ولم يمضِ على الفتح الاسلامي قرن أو قرنان حتى تأسست بها أعظم الجامعات يوم ذاك »

ويعتقد الاستاذ رودول ان يوستنيانوس لما أمر باغلاق مدارس أثينا والاسكندرية ، وعند ما أخذ يعذب أهل العلم ، فرَّ عدد غير يسير من هؤلاء الى بلاد فارس وشمال ما بين النهرين حيث أسسوا مدارسهم ثانية ، وعادوا لبثّ معارفهم . فلما وقعت فارس وما بين النهرين في أيدي العرب ، واتخذوا بغداد حاضرة لهم شعروا بضرورة ترجمة الكتب الفارسية اليونانية مستقدمين أمهر علماء النساطرة لنقل ارسطو وديوسقوريدس وغيرهما من فلاسفة اليونان وعلمائهم

وكتب عن هذه الحركة العلمية الاستاذ سنتلان ما خلاصته : عند ما بدأت الحركة العلمية في ما بين النهرين وأسس الخلفاء دواوين الترجمة في قصورهم ، ترجم كثير من كتب اليونان الى اللغة العربية اما نقلا عن الفارسية أو مباشرة من اليونانية . ومن اشهر ما ترجم رسائل ديوقريطوس وكتب زوسيموس ، فاتخذت هذه الكتب أساساً للدرس والبحث العلمي في دور العلم ببغداد وفي غيرها من حواضر البلاد الاسلامية ، مما جعل النظريات اليونانية في أصل المادة وما وراء المادة ، واصل العناصر وكيفية تكونها ، وعلاقة بعضها ببعض ، والبحث عن حجر الفلاسفة والاكسير ، ان تنتقل الى دور العلم وتسيطر على اذهان الباحثين والمتعلمين . وكما ان كلياتنا اليوم لا تبحث الا في النظريات الحديثة امثال النظرية الكهربية ونظرية الكوتم والنظرية النسبية ، كذلك كانت جامعات بغداد وكليات قرطبة وغرناطة تبحث في النظريات اليونانية وتعتبرها أساساً لعلومها

وحديث الكليات والمكتبات التي أسست في بغداد وفي بلاد الاندلس طويل اكتفي بان اورد هنا بعضاً مما قاله مؤرخو العلم بهذا الصدد : قال رودول «اسس الخليفة ابو جعفر المنصور مدرسة

بغداد فكانت نواة لجامعة بغداد ، التي اصبحت كعبة العلم بعد ذلك . وفي القرن التاسع اضيف اليها كثير من المؤسسات كالمستشفى والمدرسة الطبية وغيرها . وفي عصر المأمون ادخل عليها من التحسين الشيء الكثير فبنى مرصدها المشهور . وقيل ان عدد طلابها بلغ ستة آلاف طالب . ولكن ما ان نشب الاضمحلال في جسم الخلافة العباسية حتى ضعف شأن جامعة بغداد واسست على اثرها بضع مدارس في حواضر البلاد الاسلامية المتفرقة . وفي هذا العصر ازدهرت دور العلم ببلاد الاندلس ، وصارت محط رحال أهل العلم في الغرب والشرق

وكتب درابر في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ تكون الفكر الاوربي » ما خلاصته : « ما كاد المسلمون يستقرون في اسبانيا حتى شادوا لهم مدنية جديدة . فكان الأمراء انفسهم من رجال العلم ومن قادة الفكر وكان لا يشغل فكرهم غير أمر واحد هو رفع المستوى العلمي في بلادهم . فبلغت قرطبة بفضل اهتمامهم المكانة العليا بين مدن العالم : وعلى منوالها سار كثير من مدن الاندلس ، حتى كان لكل امير من امراء الاندلس مكتبة خاصة يباهي بها اقرانه بما يضمه اليها من كتب نفيسة ومخطوطات غالية . فمثلاً احتوت مكتبة الحكم من الكتب عدداً كبيراً جداً ، قيل ان فهرستها بلغ اربعين مجلداً . وقيل ايضاً ان الحكام شيدوا لكل مسجد مدرسة عامة يؤمها اولاد المسلمين ليتعلموا اللغة والقرآن والفقه

أما العوامل التي ساعدت على نشوء الحركة العلمية في البلاد الاسلامية فهي مساعدة الخلفاء لأهل العلم اولاً ، وتسامحهم الديني ثانياً . فلقد كان كثيرون من الاساتذة بجامعة بغداد وغرناطة وقرطبة من النساطرة واليهود . وكان المسلم يوم ذاك ، يأخذ العلم على أيدي هؤلاء وهو مطمئن واثق ان لا صلة بين العلم والاختلافات الطائفية وان العلم أسمى وأشرف من البحث فيها . ومما يذكر عن الخلفاء ان الواحد منهم كان اذا دخل عليه استاذ من اساتذة العلم قام اليه وأجلسه بجانبه ، ولا يجب ان ننسى حلقات العلم التي كانت تعقد في بلاط المأمون وكيف كان الخليفة نفسه يقضي اكثر وقته يساجل العلماء ويجادلهم ، ويبحث في العلوم الدينية والفلسفية وفي علاقتها بالمادة والطبيعة

الكيمياء العربية

ومن اظهر الحركات الفكرية في عصر ازدهار المدنية العربية نشوء الكيمياء أو ما تدعوها اليوم Alchemy . اما نشوءها فيعزى الى عقيدة سادت في تلك العصور وهي امكان تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . ففي نظر الباحثين الاقدمين ان من يتوصل الى « حجر الفلاسفة » يستطيع ان يعرف سر الحياة . تلك الطراقات والألغاز كانت النواة الأولى للكيمياء الحديثة . واولئك الكيماويون هم أول من قصد البحث عن الحقيقة النسبية من هذا السبيل . والى مثل ذلك اشار الكيماوي الكبير لابيج عند ما قال « ان العلم في نظر رجل ما كالآلهة التي يخصص حياته لها ، وفي نظر الآخر كالبقرة الحلوب التي يعيش مما تدره عليه »

اما متى بدأ تاريخ الكيمياء العربية ، وكيف ظهرت واين ظهرت اولاً فأمور لا نعرف عنها شيئاً وكل ما في وسعنا ان نجزم به انها ظهرت قبل القرن الثاني عشر وربما ظهرت في القرن التاسع او العاشر للميلاد . فالكتب التي كتبها الرازي تحتمل ان تكون مكتوبة في القرن التاسع وكتاب « القنعة » لابن سينا ، وهو من الكتب التي يوثق بتاريخها والتي كان لها شأن كبير في الشرق والغرب، يرجع تاريخه الى القرن العاشر . ولقد اثبت البحث التاريخي ان العرب في القرن العاشر والقرن الحادي عشر لم يكتفوا باجراء التجارب وكتابة الرسائل العلمية فحسب بل بحثوا في النظريات الكيمائية التي لم نبحث في بعضها الا في القرن الماضي ، حتى ان بعض باحثيهم اتبع مبدأ الشك في البحث عن الحقيقة المجردة . ويكفي هذا وحده ان يجعل مستوى فكرهم العلمي اعلى كثيراً من مستوى الفكر العلمي عند الشعوب الاخرى

لم تقتصر صناعة الكيمياء على البحث عن حجر الفلاسفة او صناعة الذهب بل شملت الكثير من المركبات الكيمائية المستعملة في الطب والصيدلة . فقد استحضرت العقاقير المختلفة بتقطير النباتات والاعشاب او بتفاعلها تفاعلاً كيمائياً بمواد اخرى. وكان الكيماوي هو الطبيب وهو الصيدلي فابن سيناء الذي لقب بجالينوس العرب والرازي والزهراوي كانوا من امهر اطباء العرب الا انهم كانوا ايضاً من اعلام الكيمياء ، وابو المنصور الموفق وان عرف بتحضير العقاقير وبيعها الا ان كتبهُ تنطق بسعة علمه بالكيمياء العملية

ويؤمن الاستاذ سارتن مؤلف كتاب « مقدمة في تاريخ العلوم » ان كيماوي القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر لم يزيدوا على ابحاث من تقدمهم شيئاً مهماً وانما اشتغل بعضهم في دحض نظريات من تقدمهم . فالطغرائي مثلاً كتب بضع رسائل بحث في الكيمياء ، سمي احداها وهي اهم رسائله « حقائق الاستشهاد » وكانت غايته من تأليفها الرد على شك ابن سيناء . وهناك طائفة اخرى تسرب اليها الشك فيما جربه وكتبهُ ثقات اهل الكيمياء ويمثل هذه الطبقة عبد اللطيف البغدادي الذي ضمن آراءه في رسالتهِ « اهل الكيمياء الذين عرفوا ثلاث مائة طريقة لغش الناس »

نظريات الكيمياء العربية

يستخرج كثير من المعادن او قل معظمها اما بشكل اكاسيدها او كبريتيداتها او مزيجاً من اكاسيدها وكبريتيداتها. فاذا ما احرقت هذه الكبريتيدات وحدها او مع مادة خازلة كالفحم او الخشب مثلاً تبدلت اولاً الى اكاسيد ومن ثم الى معادن صرفة . على ان هناك من المعادن ما يمكن الحصول عليه نقياً بعمليتي التكلس والتصعيد فقط . فكبريتيد الزئبق مثلاً اذا ما احرق وجمعت غازاته امكن الحصول على الزئبق نقياً

ليست هذه بالتفاعلات الصعبة الحدوث التي تحتاج الى جهود كبيرة بل على العكس فهي من ابسطها واكثرها وقوعاً . وقد اثبتت الكتب القديمة ان هذه التفاعلات الاولى التي عرفها العرب

واستعملوها لتحضير الحديد والرصاص والنحاس والزئبق وغير هذه من المعادن . ولا ندري كيف استنتجوا من تحضيرهم لهذه المعادن ان هناك عنصراً شائعاً بين الاجسام على انواعها . ويعزى اختلافها الى مقدار المواد العرضية — الشوائب — الممتزجة به . وهذا ما جعلهم يسعون الى تنقية المواد مما امتزج بها من شوائب ، معتمدين في ذلك على النار وحدها لانها في عرفهم خير مطهر ومنقٍّ . ففي ظنهم ان بتكرار عمليات التكلس والتصعيد والتقطير تحترق المواد العرضية ويبقى الجسم نقياً . وما ذلك الجسم الا حجر الفلاسفة !!

ولقد شاعت ايضاً نظرية اخرى في كثير من دور العلم وخاصة في مدارس بغداد ، خلاصتها ان عناصر المواد جميعاً ثلاثة ، الزئبق والكبريت والملح . اما الاول فيمثل المعادن القابلة للطرق . واما الثاني فيمثل المواد القابلة للاشتعال . واما الاخير فيمثل المواد الترابية المالحة الطعم غير القابلة للطرق وللاشتعال . جاء في رسائل اخوان الصفا ما يأتي : « ان الاجسام من جنس واحد ، من جوهر واحد وهيولى واحد . وانما اختلافها بحسب اختلاف صورها ومن اجلها صار بعضها اصفى من بعض واشرف منهُ . . . . وكلها اجسام طبيعية يستحيل بعضها الى بعض ، وذلك ان النار اذا اطفئت صارت هواء والهواء اذا غلظ صار ماء والماء اذا غلظ وجمد صار ارضاً . وليس للماء ان تلطف ولا للارض ان تغلظ فتصير شيئاً آخراً ، بل اذا تركبت اجزائها يكون منها المولودات ، اعني المعادن والنبات والحيوان . لكن يكون بعضها اشرف تركيباً من بعض وذلك ان الياقوت اصفى من البلور واشرف منهُ والبلور اصفى من الزجاج واشرف منهُ . . . . وكذلك الذهب اشرف من الفضة واصفى منها والفضة اصفى من النحاس واشرف منهُ . . . . وكلها احجار معدنية اصلها الزئبق والكبريت والزئبق والكبريت اصلهما التراب والماء والهواء والنار . فهيولاها واحد ، وصورها مختلفة ، وصفاؤها وشرفها بحسب تركيبها واختلاف صورها . . . »

وجاء ايضاً في رسالة المعادن « . . . واذا كان الزئبق صافياً والكبريت نقياً واختلطت اجزاؤهما وكانت مقاديرها على النسبة الفضلى واتحدت وامتصت الكبريتية رطوبة الزئبق ونشفت نداوته ، وكانت حرارة المعدن على اعتدال في طبخها ونضجها . ولم يعرض لها عارض من البرد واليبس قبل النضج انعقدت من ذلك على طول الزمن الذهب الابريز . وان عرض لها البرد قبل النضج انعقدت فصارت نحاساً احمر يابساً . وان عرض لها البرد قبل ان تتحد اجزاء الكبريت والزئبق قبل النضج انعقد فيها رصاص قلعي — معدن ينسب اليه الرصاص الجيد — وان عرض لها البرد قبل النضج وكانت الاجزاء الترابية اكثر صار حديداً اسود . وان كان الزئبق اكثر والكبريت اقل والحرارة خفيفة انعقد بها الاسدب وان افرطت الحرارة فاحرقتهُ صار كحلا . . . »

ومن النظريات التي اعتقد بعضهم صحتها ان لأوجه القمر ومواضع السيارات السبعة علاقة بالمعادن وبطرق تنقيتها فمثلاً ان المعادن السبعة تمثل السيارات السبعة . فالذهب يمثل الشمس والفضة تمثل القمر

والقصدير المشتري والرصاص زحل والحديد المريخ والنحاس الزهرة والزئبق عطارد . وقد نشأ كثير من الخرافات من هذا الرأي . فمن خرافاتهم انهُ اذا اريد اجراء عملية على النحاس مثلاً وجب ان تكون الزهرة في الموضع المناسب من السماء والاّ اخفقت العملية

هذه بعض من النظريات التي دان بها العرب . ومن الواضح الجلي ان الفكر اليوناني ظاهر فيها اتم ظهور . وهذه النظرية وان كانت خالية من الحقائق الكيمائية الحديثة كان لها شأن كبير في تاريخ الكيمياء افليست هي حلقات من سلسلة طويلة بدأت في الكيمياء اليونانية وانتهت الى الكيمياء الحديثة ؟ ومهما قيل عنها فلا يمكن نكران تأثيرها في تطور الفكر الكيمائي خاصة وان الكثير من التجارب التي اجريت في سبيل تحقيقها ما زالت مستعملة مع شيء يسير من التبديل والتعديل

كيماويو العرب

والآن من هم الذين اشتغلوا بالكيمياء من العرب ؟ ان عدد كيماويي العرب كبير جداً فقد احصى الاستاذ فون ليبمان Von Lippman ستين كيماويًّا عاشوا بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر ، وكلهم اشتغل بالكيمياء وكتب عنها . لكني لم استطع ان اعرف من ذلك العدد الكبير سوى الآتية اسماءهم :—

(١) الحسن الرماح (٢) عمر بن العظيم (٣) جابر بن حيان (٤) الرازي (٥) الطغرائي (٦) ابن ارفع رأسه (٧) عبد اللطيف الجوباري (٨) خالد بن يزيد (٩) ابو المنصور الموفق (١٠) ابو القاسم العراقي (١١) الكاتي . وفي هذه العجالة المامة باعظمهم اعني بهم ابن حيان والرازي وابن سيناء والعراقي

اشتهر جابر بن حيان كمؤلف كما اشتهر ككيماوي ، فمن الفه عدد كبير من الرسائل الكيمائية التي ما زالت مبعثرة في مكتبات اوربا والهند ومصر . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الرسائل لم يطبع منها ولم يترجم الاّ القليل ففي عام ١٨٩٣ ترجم الاستاذ Houdas تسع رسائل ، طبعها بعد ذلك الكيماوي المشهور برتوليه Berthelot في كتابه La Chimie au Moyen âgé . ولقد وجد الاستاذ المذكور من بين المخطوطات اللاتينية مخطوطاً بالعنوان التالي :

Liber de Septuaguila Translatus a Magistra Renolds Cremonensi

فظنه من المخطوطات المترجمة عن جابر ولكن لم يستطع تقرير شيء ما لان النص العربي كان مفقوداً يوم ذاك . ومن محاسن الاتفاق ان اكتشف الاستاذ Max Meyerhof عام ١٩٢٦ مخطوطين لجابر احدهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى والآخر في مكتبة احمد تيمور باشا وكل منهما اصل لتلك المخطوطة اللاتينية

واشهر ما كتب ابن حيان كتاب الرحمة وكتاب الجوهر الاصلي وكتاب السموم وكتاب الدولة وكتاب الموازين . ومع ان جميع هذه الكتب لا تتضمن ابحاثاً كيمائية صرفة بل خليطاً من الابحاث الطبيعية والكيمائية والفلسفية ومزيجاً من الخرافات والرموز والالغاز الاّ ان قيمتها العلمية لا تقدر . وخليق بابن حيان ان يدرس دراسة علمية حقة لانهُ بنى ما كتبه على ما جرّبه بنفسه

وان كانت استنتاجاته غير علمية ، وعلاوة على ذلك لانهُ الواضع لنظرية تكون المعادن من عنصري الكبريت والزئبق تلك النظرية التي بقيت مسيطرة على كتب الاقدمين حتى فجر النهضة العلمية الحديثة . ففي نظر جابر ان المعادن تختلف باختلاف نقاوتها واذا ما كملت نقاوتها استحالت الى ذهب اريز . وهذا ما جعل هدفه الأعلى تنقية المعادن لتحضير الذهب . على ان هناك أشياء كثيرة اشتغل بها ونجح في تحضيرها اهمها صناعة الحديد الصلب ، واصباغ الملابس، واصباغ الجلود ، وصنوف الدهان المختلفة خاصة منها تلك التي لا ينفذ الماء خلالها . وقد استطاع ان يطلي الحديد بطبقة معدنية اخرى لكي تقيه من التأكسد . والمعروف انهُ أول من استعمل ثاني اكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج وكبريتيد الحديد الخام في صناعة التذهيب ، وتمكن من تحضير الحامض الخليك المركز بتقطيره الخل ، وكاربونات الصودا والبوتاس من رماد بعض النباتات والصودا الكاوية بغليه كاربونات الصودا مع الجير الحي . وهو اول من نقى ملح الطعام من المواد الممزوجة به . وطريقته في ذلك انهُ كان يحمي الملح لدرجات حرارة عالية فتزال جميع المواد العضوية فيه . ومن ثم يذيبه بالماء ويرشح المحلول ويبخره فيبلوره . ومما جاء ذكره في معظم رسائله انهُ اشتغل بنترات البوتاس وكلوريد النشادر والشب والبوركس وكبريتات النحاس وكبريتات الحديد . وله طريقة مبتكرة في تحضير ماء النار — الحامض النتريك — فانهُ كان يحمي كبريتات النحاس مع نترات البوتاس والشب ويجمع الغازات المتصاعدة في الماء . وقد حضّر هذا الحامض لاذابة الفضة والذهب بعد ان يمزج برادتهما مزجاً تامًّا بكلوريد النشادر

أما أبو بكر الرازي فيعد في مقدمة الأطباء الكيماويين . قيل عنهُ انهُ اول من استعمل الكيمياء في الطب ، ولكن ابحاثه في الكيمياء ما هي الاّ تجارب مؤسسة على الخيال ومستمدة من السحر والشعوذة ، ففي عقيدته ان النحاس والفضة شيء واحد وما النحاس الاّ فضة كامنة وبمجرد ازالة اللون الاحمر منهُ يستحيل فضة . وقد جاء في بعض المخطوطات انهُ استعمل الكحول لاذابة بعض المركبات العضوية التي لا تذوب في الماء

وثالث المشتغلين بالكيمياء هو ابن سيناء ولكنه ايضاً كالرازي طبيباً اكثر منهُ كيماويًّا . وآراؤه الكيمائية كثيرة الشبه بآراء ارسطو فهو يعتقد ان الهواء قوتهُ النار . وان المعادن جميعها تتركب من مادتين احداهما زجاجة والاخرى ترابية وبعملية التكلس Calcination يمكن فصل المادة الاولى عن الثانية . ويقسم ابن سيناء المعادن الى اقسام اربعة (١) المعادن غير القابلة للانصهار (٢) المعادن القابلة للانصهار والطرق (٣) المعادن الكبريتية (٤) الاملاح

وآخر من اشتغل بالكيمياء العربية هو ابو القاسم محمد بن احمد العراقي السماوي الذي عاش في القرن الثالث عشر والذي صنف بضع رسائل اشهرها كتاب «العلم المكتسب في صناعة التذهب» و «عيون الحقائق في السحر» و «الكنز الدفين» . والاستاذ سارتن يعتبر ابا القاسم من اعظم

كيماريي العرب شأناً لانهُ سار على مبدأ الشك في جميع ما كتبه اسلافه . فقد كان لا يؤمن بما بين يديه من النظريات والفروض الاّ بعد تجربته . فهو من هذه الناحية يعد من الكيماويين المجددين وقال عنه الجلداقي في كتابه « نهاية الطلب » ان ابا القاسم صرف سبع عشرة سنة في دراسة الكيمياء وجالس الكثير من علماء العراق ومصر والمغرب وسوريا والحجاز واليمن ودرس كتب من تقدمه وبحث في الطرق التي استعملت في تجاربهم . وقد ادى به بحثه الطويل الى الاعتقاد بأن من تقدمه من العلماء اوجد نظريات مضطربة تخالف بعضها بعضاً . فلذا من واجبه ان يكتب رسالة تشرح النتائج التي وصل اليها في ابحاثه . والى فكرته هذه اشار في مقدمة كتابه « العلم المكتسب » . والفكرة السائدة في كتابه هذا ان المعادن من اصل واحد واختلافها ناجم عن صفات عرضية يمكن ازالتها ، وبزوالها يصبح المعدن ذهباً ابريزاً

﴿ خدمات العرب ﴾ يعتقد بعض مؤرخي الكيمياء امثال بَرْتوليه وفون لبمن وكوب ان العرب لم يزيدوا شيئاً على ما اخذوه من علوم اليونان ، ولم يصب الكيمياء اي تقدم في زمنهم وكان مجمل عملهم انهم ادوا الرسالة التي اخذوها من اليونان الوثنيين الى اوربا المسيحية . لكن هناك طائفة اخرى امثال شلمان وجيبون وسارتن وغيرهم ممن تخالفهم . ولم تتردد في تفنيد ما زعمه الأولون واعلان الكثير مما قام به العرب من الخدمات الجلى سواء بابحاثهم او بتجاربهم مما عجل بزوغ النهضة العلمية الحديثة . والحقيقة ان مقام الكيمياء العربية كبير جداً ، فقد كان العرب عاملاً مهماً من عوامل ترقية الصناعة الكيمائية ، وكانوا في مقدمة من استعمل العلم النظري في امور الحياة العامة

ولتلخيص خدمات العرب نقسمها الى قسمين . الخدمات المباشرة والخدمات غير المباشرة . اما الاولى فتتكون من العمليات الكيمائية الأساسية التي استنبطها العرب والمركبات التي استطاعوا تحضيرها والصناعات التي اقتبسوها من شعوب اخرى واذاعوها في الشرق والغرب كتحضير الكحول بتقطير المواد المخمرة ، والبوتاسا الكاوية بغلي كربونات البوتاس مع الجير الحي ، وروح النشادر — غاز الامونيا — والقصفور من البول . والعرب اخذوا البارود من الصينيين لكنهم حسنوا نوعه واستعملوه في الحرب وفي الالغام . واكتشفوا دهاناً يقي الخشب من الاحتراق . وهم اول من كتب عن العمليات الكيمائية ودونوا وصفها في كتبهم ورسائلهم . ولا يجب أن يغفل فضل استعمالهم للاوعية الخزفية والزجاجية في التقطير وفي التجارب الكيمائية الاخرى ، واليهم ينسب اكتشاف طريقة التقطير الجزئي Fractional Distillation اما اشتغالهم في فن الصيدلة ووضعهم للاقرباذين واستخدامهم المركبات الرئبقية كعلاج للامراض الجلدية فما لا نريد ان نتطرق اليهِ في هذه المجالة

واما الخدمات غير المباشرة فهي جمعهم العلوم من مصادر شتى ، وتأليفهم بين اجزائها ، ثم نقلها الى الغرب الذي اتخذها أساساً لتشييد النهضة الحديثة . ولولا هذا العمل لتأخرت النهضة العلمية الحديثة بضعة اجيال . افهل بعد هذه خدمة للعلم اعظم ؟

البصرة

الپاپاز : ثمر عجيب

Papayas or Papaws

[عن السينك اميركان : نقلها عوض جندي]

الپاپاز أو قاوون الاشجار ، ثمر لذيذ لشجرة تشبه النخلة شكلاً ، تنمو في أراضي المنطقة الحارة، فيما شفاء للناس . وشجرة الپاپاز بديعة الشكل، مختلفة الثمار . وتحمل ثمرها على ساقها الباسقة فتبرز الثمار مباشرة من الساق ، على مقربة من أوراقها العليا التي تجلل رأس الشجرة . ويصنع لحاؤها حبالاً . وتستخرج من جذورها عصارة فاخرة مقوية للأعصاب . ويستعذب الوطنيون في البلاد الحارة بزورها فيمضغونها كثيراً إرواء للظمإ . ويحلُّ ثمرها البليح الشهيُّ جدًّا محل القاوون العادي المعلع « وهو المعروف في القاهرة وضواحيها باسم السنطاوي » ويؤكل ثمرها نيئا ، ويطبخ كما تؤكل الخضراوات وتطبخ ، واذا عقِمتْ شجرة الپاپاز في أواخر السنة الثالثة من عمرها . قطعت وجُمِّرت[1] ونُشِر جُمَّارها اللين ، كما ينشر النارجيل للأكل ، وطعم جمارها يختلف قليلاً عن طعم بشارة[2] النارجيل ، ولكن هيئته ومميزاته العامة تجعل ناظره يكاد يظنهُ نارجيلاً منشوراً. ولذلك ترى الأميركيين يشرّحونه ويخلطونه بالقشدة المخفوقة فيصير من ألذ أصناف الحلوى التي تؤكل عقب الطعام . ويصنعون من بشارة الجمار سلطة لذيذة مغذية مؤلفة من الخس والخيار المشقَّق . ويصنع من ثمر الپاپاز مُربى وهلام لذيذان . ويدخل الپاپاز في صنع الشطائر Sandwich والقراقيش والشربات والمخللات ، فيجعلها شهية جدًّا . وتصنع من ثمر الپاپاز كعوب مبلورة ، وهي من أفضل انواع الحلوى الملبسة بالسكر ، التي تحضر من ثمار المنطقة الحارة

وشجرة الپاپاز سوقاء[3] جوفاء دقيقة الرأس . ويبلغ طول ثمرتها عشرة قراريط . وتثمر الثمر صفيق كقشر البطيخ ، ولونه برتقالي . ويسلق الپاپاز الفج ويؤكل كالخضراوات . ويستعمل أهالي المنطقة الحارة عصارة ثمر الپاپاز الفج ، بحالتها الطبيعية ، وهي لبنية الشكل ، علاجاً للأكزيما والثآليل والقرح والديدان المعوية والدفتيريا ولغيرها من الادواء المختلفة . ويتخذ الثمر اليانع من الپاپاز بمثابة مثاث[4] للوجه والشعر ، بأن تؤخذ شريحة منهُ وتدلك بها البشرة فتزيل منها النمش وغيره من العيوب الجلدية . وكذلك يستخرج من الپاپاز ذرور للوجه وغسول لعلاج الجلد ويجعل ثمره البغو[5] وورقه الأخضر كصابون لتنظيف الثياب

---

(١) جمر النخلة — قطع جمارها — (٢) البشارة على وزن فعالة ، بضم الفاء . الجوز المنشور وغيره (٣) السوقاء — طويلة الساق (٤) المثاث — دهان الوجه أو الشعر (٥) البغو — بفتح الباء الثمرة قبل نضاجها. وهذا اللفظ العربي الفصيح مستعمل عند الفلاحين في الوجه البحري ويطلقونه على ثمرة الفول الاخضر الغضة

وتستخرج منهُ مادة الپاپائين[1] وهي عقّار مشهور في الطب وتستعمل عصارة الپاپاز ملیناً للحم البيبس. فاذا دهنت قطعة لحم تارز[2] بشريحة خضراء من ثمر الپاپاز ، غزيرة العصارة ، او اذا غمرت اللحم في تلك العصارة بضع دقائق ، لان وسهل مضغه وتيسر هضمه . واذا وضعت قطعة من ثمر الپاپاز في الماء المزمع سلق اللحوم فيهِ ، عجلت إنضاجها . واذا لفت اللحم البيبس بورق الپاپاز الاخضر لان . وتغذّى الملازير بثمار الپاپاز ، فتلين لحومها اكثر مما هي عليهِ ، فيقبل الناس على شرائها وأكلها . وسبب تلك الميزة الغريبة في الپاپاز ، الملينة للحم الصلب ، أيّاً كان نوعه ، تشبع عصارة الپاپاز بمادة الپاپائين . وهي مادة تهضم الاغذية البروتينية مثل اللحوم وبياض البيض واللبن الجبن وما شاكلها . ومثلها في ذلك مثل خميرتي المعدة البشرية المشهورتين وهما البيسين والتريبسين. ولذلك تستعمل الپاپائين في عالم العقاقير بديلاً من البيسين

وطريقة استخراج مادة الپاپائين النقية هي كما يأتي : — يجفف اللبن الذي يسيل من لحاء ثمر الپاپاز الاخضر . وأفضلهُ ما يستدرُّ من الثمر الاخضر الموشك على النضج، الجيد الحجم، فيخدش لحاؤهُ خدشاً سطحيّاً بسكين عاجيّ او خشبي او عظمي . لان الثمار الصغيرة جداً تدرُّ لبناً ضئيل التأثير في الهضم ، على حين ان الثمر اليانع يدرُّ لبناً قليلاً جداً أو لا يدرُّ البتة . ويجمع العصير الذي يسيل من ذلك الشق الذي يشق في الثمرة ، في اناءٍ زجاجي او خزفي نظيف جداً . ولا تلبث الثمرة المخدوشة ان تكف عن الادرار لان اللبن يتجمد في شقها . فاذا انقضت بضعة أيام ، اندمل شقها . وتكاد خاصية الثمرة لا تتأثر بتلك العملية . ويمكن خدش الثمرة نفسها مرة كل اربعة أيام او خمسة أيام حتى تبدو عليها اعراض النضج . وينبغي ألا تستعمل المدى الفولاذية للخدش في أية حال من الاحوال لئلا تفتتح مادة الپاپائين قاتمة اللون ، طفيفة النفع . وتبدأ عملية الخدش في الغداة على ان تتم قبيل الساعة العاشرة صباحاً لكي يترك وقت كاف للثمرة لتجف في اليوم نفسه

وسرعان ما يتجمد العصير المجموع، فيصير كتلة بيضاء ثقيلة فتجفف عاجلاً لئلا تتعفن فتفسد المادة كلها . ويقوم التجفيف بتعريض ذلك اللبن المتجمد سريعاً لاشعة الشمس على ألواح زجاجية

اما في جزيرة سيلان، حيث تكون الاحوال الجوية شديدة التقلب ، ولا سيما في الجنوب الغربي منها ، فلا يستطاع تجفيف العصير في الهواء الطلق ، فتستعمل أجهزة خاصة للتجفيف في تلك الآفاق وفي غيرها من المزارع الكبرى في انحاء العالم . ومتوسط ما يُستغلُّ من محصول الپاپائين من كل فدان يزرع پاپازاً هو ١٧٥ رطلاً كل سنة . وقال احد مشهوري خبراء الصحة في الپاپائين ما يأتي —

توفرت على البحث فيما يحويه الپاپائين من الفيتامين ، فاستدللت ، مما قمت بهِ من التجارب ، في

---

(١) الپاپائين . خميرة تستخرج من ثمر الپاپاز النيء ، ذات خواص هاضمة مثل البيسين وتؤثر في المحاليل القلوية . وهي مسحوق أبيض يحضر من عصير الپاپاز مقو للقلب، خافض للحرارة ، مذيب لانسجة الدخيلة اذا استعمل معاً مخدراً (٢) التارز — الصلب —

جزائر هونولولو والهند الشرقية الهولندية ان الپاپاز غاصٌّ بڤيتامين C وهو الڤيتامين الذي يحميه البرتقال فيجعله مفيداً للصحة . والپاپاز ايضاً حافل بڤيتامين A الذي يندر وجوده في الثمار . ويكون دائماً مصحوباً بڤيتامين D أنّى وجد . وڤيتامين B1 يمنع كساح الاطفال . وحسب الپاپاز هذه الفائدة الطبية وحدها التي تجعله مفيداً فائدة لا تقدر لشعوب العالم . وكذلك قوته المساعدة على هضم الاطعمة . وهي نعمة عظيمة للذين يشكون سوء الهضم على اختلاف انواعه

وقد شرع العلماء يدرسون الپاپاز من وجهة منافعه الصحية ، وذلك مع معرفة خصائصه الطبية من زمن بعيد عند سكان المنطقة الحارة ، حيث ينمو ذلك الثمر نموًّا قطريًّا . فاستدلوا على ان الپاپاز يمكن ان ينفع سكان الولايات المتحدة الاميركية منافع جليلة »

والپاپاز من فصيلة ذات عشرين نوعاً تنبت في المنطقة الحارة باميركا وفيما يليها من الاقطار وتسمى شجرته غلبًّا باسم كاريكا پاپايا Carica Papaya وتوجد في جنوب فلوريدا . وقد انتشرت زراعة الپاپاز في ارجاء العالم حتى كاد يصبح معروفاً في جميع الاقطار الحارة . واصنافه كلها سريعة النمو ، غير مفرعة . وتبسق الى ثلاثين قدماً ، ذات منظر بارع الجمال ، وورق كبير ، وثمر جزيل ، شبيه بالبطيخ ، مما يجعل تلك الشجرة فريدة الشكل وتحمل الشجرة ثلاث سنين او اربع سنين . ويختلف حجم الثمرة من قدر الكوارت الى حجم كوز الماء الكبير . وتزن من ثلاثة ارطال الى خمسة عشر رطلاً . وكثير من انواعه مستدير الشكل ، وبعضه مستطيلٌ وهذا الاخير هو الاصلح احياناً للتصدير الى البلاد الخارجية . تمّ ما قالتهُ السينتفك اميركان

وجاء في مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي : —

تنمو في مفاوز المنطقة الحارة باميركا الجنوبية شجرة مدهشة ، ذات منافع اقتصادية وطبية . وهي شجرة الپاپاز . وهذه تختلف اختلافاً طفيفاً عن اختها التي تزرع في الاقاليم الوسطى والجنوبية بالولايات المتحدة التي تمتُّ الى فصيلة اخرى . وهي شجرة أنيقة الشكل وقد يبلغ طولها ثلاثين قدماً وتفرز عصارة غريبة اذا دهنت بها لحمًا فصيداً[1] جدًّا كلحم البقر مثلاً ، رَخُص[2] فصار كلحم الغزال . ويستعمل اهالي البلاد ، التي تجزل فيها اشجار الپاپاز ، عصارته لتلك الغاية . ويجعل اهل باراجواي ورق الپاپاز بديلاً من الصابون . ومن غريب امر عصارة شجرة الپاپاز انها تحتوي على ليفين (فيبرين) وهو بروتين كيميائي لا يوجد الاّ في المملكة الحيوانية . وعصارة الپاپاز لبنية ، حريفة الطعم ، ذات منافع طبية . وتستعمل بزور الپاپاز كدواء فعّال طارد للديدان ، قاتل لها . وثمر الپاپاز لذيذ الطعم ، دسمه ، كبير الجرم ، مستطيل الشكل ، وقشره ثقيل ، فعسى وزارة الزراعة ان تعنى بزراعة شجر الپاپاز في مديرية اسوان . كما جُرّبت زراعته في السودان فنجحت . وقد رأينا ثمره في المعرض الزراعي الصناعي السابق

(١) القصيد اياس (٢) رخص — لان وسم

طائفة من اشهر شعراء الانكليز

من اليمين الى اليسار : الصف الاول — بيرون ، بوب ، ملتن — الصف الثاني : كيتس ، كولردج ، بيرز — الصف الثالث : سوينبرن ، شلي ، تنيسون

الشعر الحديث

بين الثورة والتقليد

للدكتور احمد زكي ابو شادي

— ١ —

« أيُّ شيء في الماء الجاري له ذلك السحر الوثيق بالذهن الانساني ؟ » — هذا هو السؤال الذي استهل به المستر بنيون محاضرته الثالثة عن (التقليد والثورة في الشعر الحديث) . وجوابه عن هذا السؤال « ان خرير الماء السلس ليس وحده الذي يلطف المشاعر القريرة ، بل شيء من فوره ينبه التصور ويرضيه ، وينقلنا خارج ذواتنا كأنما نحن على مجرى حركة تتناظر في الخاطر دون جهد منا . ان سر ذلك السحر هو اعترافنا بأن هذا الشعور بالحركة المنبثة الطليقة هو عنصري واصيلٌ في ذواتنا . ان الحياة هي الحركة ، وهي تشمل نموّاً مستمراً ، وسواء شئنا ام لم نشأ فأجسامنا في تحول مستمر من المهد الى اللحد ، متغيرة ومتجددة من لحظة الى اخرى . فهل كذلك حال اذهاننا ؟ لست أدري . ولكنني واثق من اننا في خطر دائم من تركُ المادة الميتة تتجمع في اذهاننا ، ومن قبول الافراد للآراء المتناولة ، ومن صيرورتنا الى عبودية ألفاظ وعادات . ان البركة الآسنة وقد طفحت عليها الجفالة وغصّت بالاعشاب هي صورة ما يمكن ان نحيل اليه اذهاننا بالاستسلام الهين . ولكننا غالباً نشفق في تهمتنا في هذه الناحية ونؤثر ان نعيش مجهولين لانفسنا ، كأن سقطاتنا الخلقية فقط جديرة احياناً باهتمام الضمير المنقّب . ان الفنان الصادق يعرف بالتقاء والتشبث والنجاح في جهده ليبلغ ما هو اعظم من الحدة والدقة والقوة في التعبير عما في نفسه وعن خبرته للحياة . انه يريد ان يعمل طليقاً من كل ما هو ميت او نصف حي طائفاً او موهناً تعبيره عادة رثة او قالب عتيق ليس وفقاً له ، أو سُلّم به دون عقيدة من حُرمة زمن سابق ، أو كان ثمرة تراخيه وعجلته . إنّ القوة الدافعة خلف جميع الحركات في الفنون التي يُستمع عنها كثيراً اليوم واحدة : فهي في أصلها رغبة في الوفاء الأصدق للذات الداخلية والحقيقة العالم الخارجية ، وفي التعبير عن علاقة الروح الانساني بالكون بصدق واستيفاء أبلغ . لا توجد سوى حركة واحدة نحو حياة أحدّ ، ولكن احتمالات الخبرة فسيحة غاية الفسحة حالة ان الطاقة الانسانية محدودة ، بحيث تتجلى هذه الحركة في الواقع كضغط غير مبذول بتثابر الى غاية واحدة بل تارة في هذه الجهة وحيناً في تلك ، فيبدو في الوقت طريق معيّن أحب من غيره .

وكثيراً ما تلوح كمحاولة لاحياء حركة سابقة كأنما النوع الانساني في شيخوخته أو في تشعب اغراضه افتقد شيئاً في الطريق واحتاج الى تعقب خطواته ليلتقط دليله المنسي ! »

— ٢ —

ثم تكلم المحاضر عن « الحركات الفنية » فقال إنّ هذه « الحركات » نشأت عادة بمثابة ردّ فعل للتقليد أو قُدِّمت كذلك عند من بدأوا بها . واذا نجحت « الحركات » سميت « تقاليد » ، ولكنْ من النجاح ما يمكن أن يعني فقدان الحياة !

قال بليون في اسلوبه الدسم المركز : « لنبدأ بتمييز في التعريف : لسنا نستعمل كلمة « تقليد » بمعنى واحد تماماً ، فعندما نتكلم عن التقليد العظيم في الشعر الانجليزي نفكر في سطر مديد من الشعراء الأصيلين ، ولا نفكر في اولئك الادباء الذين عاشوا على تقليد التفوق السابق بل نتقلهم ونتسامح . إنّ « الأصالة » التي تظهر في كل عصر أو جيل هي التي تخلق « التقليد » وهو « تقليد الحياة » . وقد جلب كلٌّ من اولئك الشعراء جدته النيرة معهُ ، ولو انّ كلاً منهم كان مرتبطاً بأسلافه برباط الوراثة أو التفاعل أو غالباً بكليهما معاً . وكلُّ تقليد حيّ في الفنون عرضة دائماً للخطر ، إذ لا بدّ ان يتحرك وإلاّ صار راكداً وتعفّن . إن مجد شعرنا انما هو في كونه يمثل تياراً نشيطاً دائم التغير ولكنهُ مطّردٌ »

وانتقل المحاضر الى بيان المعنى الآخر لكلمة « تقليد » فقال : « ولكن ثمة معنى آخر لكلمة « تقليد » إذ نعني بمجموعة قواعد وعادات مرعية تتناقلها على انها شيء مقدّس راسخ . وثمة أذهانٌ تتعلق بهذه المبلورات لما كانت دوافع سائلة في زمن ما ، كأنما تتعلق بصخور او قلاع في دنيا من التقلب والكفر ! هم ينسون أن الحصن المنيعة تؤخذ دائماً في النهاية ، فليس الظفر سوى للجيش المتحرك . وهناك أذهان ذاتُ مزاج آخر يدعوها التفكير في كل ما صنعتهُ تلك الطرافة الذهنية ، تلك المادة الليّنة في العقل ، لعرقلة الرُّوح الانساني وتشويهه ، وفي الحماقات والقساوات التي أنتجتها ، يدعوها ذلك التفكير الى فصم علاقاتها بالماضي فصماً تامّاً والى دخول عالم طليق من الوهم معتمد على نفسه ، وحرّ . ولكننا نعلم جيداً أن النفس الانسانية لا تستطيع ان تفصل نفسها عن ماضيها . ومع ان التغيُّر من لُبّ الحياة ، فلا بدّ ايضاً من دوام حي لا بدّ من استمرار ، إذ بغير الاستمرار لا يوجد نموّ . وهذا « الاستمرار » كامن في « تقليد » الشعر الانجليزي . واما عن التقليد بالمعنى الآخر ، اي مجموعة القواعد والقوالب الجامدة ، فما اقلّ ما اتحدر منها مع التيار ! وحتى قبل الحرب وما صحبها من رجعة مادية للعالم ، كان ملحوظاً في كل مكان روح القلق والحيرة ثائراً في الفنون متجلياً على اتم وضوح في التعبير الجامد (plastic expression) . وفي التعبير التصويري ولكنهُ مشهود كذلك في الأدب ، وهو ضربٌ من الحنين ، وحنين الى البدائي ، الى الهمجي ، الى الهمة وتوكيد الذات باي ثمن . وأصبحت « الرجولة » و« الحيوية » الكلمتين الاصطلاحيتين للاطراء في النقد ،

فاستعملتا في إبهام تام كما هو حظ أمثالها من الكلمات . فهل كان في ذهن اوربا إلهام أو توقع للانفجار المقبل في عالم الحركة ، من القوى البدائية والغرائز التي كمنت زمناً طويلاً ؟ كيف كان ذلك فان علينا ملاحظة هذه الحقيقة . وان سبب هذا الروح المحموم المضطرب في الفنون ليوجد أعمق من اي مذهب جمالي (aesthetic) ، وأرى انه مشتبك مع اكتظاظ الحضارة الذي نحن جميعاً عرضة للشعور به . اننا لا نزال مأخوذين بذلك الخلط القديم من جمال الحياة البدائية ، مع اننا نعلم ان المتوحش الذي نحسده محتبل في شبكة من المخاوف الباطلة والموانع عند كل خطوة يخطوها ، مما يستعبده اكثر من المدنية الكاملة »

وانتقل المستر بليون الى التحدث عن « الوان السخط الغامض والرغبات المضطربة التي ظهرت في الفنون وكان أدعى الى ظهورها ، أنه حول بداية هذا القرن بدىء باكتشاف ما للفنون الابداعية (creative arts) في القارات الاخرى خارج اوربا وبخاصة آسيا ، من الجمال والخطورة وتقدير ذلك . ومن ثم بدىء بتحدي تراث الاغريق والرومان والقواعد المؤسسة على الفن الكلاسيكي . وكانت نتائج هذه المكتشفات اظهر ما تكون — بطبيعة الحال — في الفن التصويري والفن الحابل ، ولكن التفاعلات المؤثرة اليوم في الشعر هي الى درجة ما صدى لتفاعلات في عالم النقش حيث كانت الحاجة اعظم الى التبديل . وذلك لان التصوير الاوربي كان قد انغمس في مسألة التمثيل الشكلي انغماساً تاماً وجعل غايته التحقيق الشامل للحقيقة المنظورة ، بينما الشعر لم يرتبط مطلقاً بمبادىء الطبيعيين . وفي الوقت ذاته يجب ان نلحظ ان الترجمات الوفيرة للشعر الصيني فتحت لشعرائنا عالماً جديداً وتطورات جديدة افهم ، واري ان ترجمات المستر والي (Waley) كان لها اثر بعيد . اذن اجتمعت الظروف لتنشىء في الشعر كما انشأت في جميع الفنون حالة من القلق والاضطراب . ولا مناص في مثل زمننا السريع التحول العديم النظير من ان تصير صيغ الفن غير ثابتة وتجريبية » . وشرح المحاضر الحركات المتوالية بين صعود وهبوط كأنها امواج العباب فتشرشب ثم تنبسط : فمن رمزيين (symbolists) الى رساميين (imagists) الى دوّارين (vorticists) [1] الى تصريحيين (expressionists) وهلم جرًّا

— ٣ —

ثم أخذ المستر بليون يتحدث عن اساليب التعبير فقال « انه لا مناص من ان يؤدي التغير في المزاج أو في الآراء الاساسية الى محاولة ايجاد صيغ جديدة للتعبير . ولاولئك الذين تمردوا التقاليد القديمة للشعر الانجليزي ، وعلى الاخص تقاليد القرن التاسع عشر ، يتجلى الاسلوب الذي

(١) ترمي الحركة الدوارية في الفن الى اظهار الحركة الايقاعية في الاثر الفني ولو جاء بمعزل عن تفاصيل المشابهة بالاصل . ومن أهم اعلامها هنري جوديه برسكا في فرنسا ووندهام لويس في انجلترا ولا يزال الاخير من كبار نقدة الفن في انجلترا

يعبّر به الشعرُ الحديثُ عن نفسه ، مُركّباً . وثمة امران يدعوان الى الحيرة أو الاستياء : وهما الغموضُ والصياغةُ أو العجزُ في الصياغة — هذا الغموضُ الذي يظهر الآن بدعة سارية (fashionable) يرجع غالباً الى استعمال أخيلةٍ مرسومةٍ من مساحات الشاعر الخاصة ، وهي بالضرورة غامضة لآخرين . وقد رَاد ت . س . إليوت (T. S. Eliot) [1] الطريق لاستعمال هذا النوع من الصُّوَر : ويتبعُهُ في ذلك المستر أودن (Auden) وآخرون . وهناك أمثلة كثيرة لقصائد كانت تُظَنُّ غامضةً عند صدورها — مثل ملحمة تنيسون « الذكرى » (In Memoriam) [2] ثم لم يَرَ جيلٌ آخرأيةَ صعوبةٍ في تفهمها . ولستُ أدري هل سيقع هذا في حالة شعراء اليوم المحدثين . وعلى أيّ حال لا يبدو أن هناك شيئاً ضروريّاً في هذا الغموض ، فاننا لا نجده مثلاً عند المستر استيفن اسبندر (Stephen Spender) . اذ موضوع الصياغة يُثير مسائل بعيدة المدى ، فاننا عند ما نتحدث عن الصياغة في الادب نكون عرضة للتفكير فيها بعبارة هندسية فيتمثل في اذهاننا التشييد قبل النموّ ، وتقوم في أذهاننا صورة بناءٍ قبل ان تقوم صورة نباتٍ . ليست صياغة القصيدة عبارةً عن مجموع أجزائها فحسب ، ولنذكر بيت سبنسر :

انَّ الصياغةَ رُوحٌ مُكَوِّنٌ لِلْجسمِ

The form is Soul and doth the body make

ولنا أن نقول إنَّ لكل قصيدة صياغةً داخلية وصياغة خارجيةً . ويُخيَّلُ اليَّ أن الناسَ يميلون الى اطالة النظر كثيراً في الصياغة الخارجية ، وعلى الاخص إذا كانوا قد اضلوا بالمثال الاعلى الكاذب عن الدّقة . وربما لا يزال يوجد أناس يتصورون أن المثلَ العالي لصياغة الشعر أن تكون في تناوب النبرات ، وليس الانحراف عن ذلك إلاّ من الضرائر الشعرية المسموح بها . ومع ذلك فمن البديهي انّ على الاختلافات في الصياغة الداخلية يتيسر وجود الحياة الايقاعية لوزن الشعر . وهذا يمثل عبادة الصياغة الخارجية في منتهى سخافتها »

— ٤ —

أخذ المحاضرُ بعد ذلك يوجه عناية المستمعين الى مكانة ما نعتهُ بالصياغة الداخلية أو الصورة الباطنة لوزن الشعر وتأليفه فقال : « أرى أن شعراء الحركة العصرية يرمون بصدقٍ الى بلوغ الصياغة الداخلية قبل الخارجية . ومن ثمة كانت الحركة قابلة لان تعتبر الوزن والقافية مجرد أغلال أو عوائق وخزعبلات رثّة . ومع أن ذلك التقرير لا يصدق الآن كما كان يصدق منذ سنوات قليلة

---

(١) من شعراء انجلترا المجددين وهو من أصل أميركي وجامع بين ثقافة السوربون واكسفرد ومن مآثر شعره الجيل « أغنية ج ألفرد بروفرك الغرامية » The Love Song of J. Alfred Prufrock (أنظر كتاب Recent Poetry 1922—1933)

(٢) نقلها الى العربية الاديب الشهير انيس الخوري المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية، وبذل فيها جهداً عظيماً استغرق سنوات، وقد نظم تنيسون هذه الملحمة في مبدأ حياته تذكرى صديقه الحميم آرثر هنري هلام Arthur Henry Hallam وجعل موضوعها الموت والخلود مستوحياً حياة صديقه الفقيد

مضت ، فما من شكّ في أن قيمتها صارت متحداةً » . وأخذ المستر بنيون بعد ذلك يشرح أنهُ كيفما كان الرأي الذي نريد أن نتخذهُ فان هناك خيراً حقيقيًّا لا بدَّ من نشوئه عن هذا التحدّي للتقليد ، يجب أن يجعلنا ندرك أن الاختراعات التي من طراز الوزن والقافية هي وسيلةٌ وليست غايةً . ان القافية أداةٌ للتقويم والتوكيد . فلها قيمتها في (المهزلة الإلهية) لدانتي لأنها تشعر بتسلسل النظم ، ولها قوةٌ كذلك المطرقة في البيتين الاخيرين من « السونيتة » الشكسبيرية (١) أو في بعض الاغاني الدارجة (ballads) القديمة » . وعاد المحاضر الى موضوع الوزن فشرح كيف أن نظرية الشعر الحرّ (free verse) قائمةٌ على أن التعبير يكون أدقّ اذا ما أطاع الشعر كل تغير دقيق للفكر والشعور عند ما ينشأ في ذهن الشاعر ، وقال متسائلاً : من فرض الوزن أصلاً ؟ يقيناً هم الشعراء أنفسهم وكما أن القواعد اخترعت للألعاب الرياضية فكذلك المال في الشعر . إن الفنانين يعملون محسنين داخل حدود مقررة ، وهم عرضة لأن يُشَلُّوا بالحرية الكاملة . وليس الالتجاء في ذلك للعلم النظري ولكن للخبرة »

من رأي المستر بنيون أن الوزن يقابل شيئاً في الطبيعة الانسانية هو نسيج الحياة ذاتها . فيمكن أن توجد داخل الوزن مرونة لا حدَّ لها ، كأنما هي التجاوب بين الباعث والمادة أو انما هي الحرية في داخل قيود المجتمع الانساني . وأخذ يستشهد بشعر فيه روح الغناء والخطابة وحتى الحديث:

I sang the dancing stars,
I sang of the daedal earth,
And of Heaven, and the giant man,
And Love, and Death, and Birth.
And then I changed my pipings,
Singing how down the vale of Maenelus
I pursued a maiden and clasped a reed.
Gods and men, we are all deluded thus,
It breaks in our bosom and then we bleed;
All wept, as I think both ye now would,
If envy of age had not frozen your blood
At the sorrow of my sweet pipings.

واليك ترجمتها الحرفية وان ذهبت بمعظم الروح الغنائية التي تصورها التفاعيل النظمية :

« تغنّيتُ بالنجوم الراقصة ، تغنّيتُ بالارض المحيرة ، وبالسماء ، وبالانسان الجبّار ، وبالحبّ والموت والميلاد ، وبعد ذلك بدّلتُ زمري مغنّياً كيف في مهبط وادي مينيلاس تعقبتُ صَبيّة فلم أضمّ إلا قصبة . وهكذا نُضَلُّ جميعاً نحن الآلهة والرجال . إنهُ ينفذ الى صدورنا وحينئذٍ ندمى . أنهم جميعاً بكوا كما أظن أنكما الآن تبكيان اذا لم يكن حسدُ العمر قد أصقع دمكما لدى الأسى في تزميري العذب » . قال بنيون « كذلك يبرون في الفصلين الاخيرين من ملحمة (تشايلد هارولد) يبدو لنا خطيباً مصقعاً . إنهُ يشعر بمستمعيه ، ولكن ليس ذلك كأنهم شيءٌ خارجيٌّ عن

(١) تتألف السونيتة الشكسبيرية من ثلاث رباعيات تتبعها ثنائية ، ونظم قوافيها هو (على سبيل المثال) : أ ب أ ب ، ج د ج د ، ه و ه و ، ز ز . وكانت السونيتات مقصورة أصلاً على الشعر الغنائي ولكن اتسع مجالها فيما بعد

نفسه يريد تنبيهه أو مداجاته لغاية خفية ، وانما يشعر انهُ كليمٌ ، (spokesman) لتفوُّهِهِ صفةً عامةً اكثر منها خاصة . هو رجلٌ طرازي (representative)، وهو يعرف ذلك . وهذا يعطيه سمةً في الخطاب ونوعاً من الفصحة في الاسلوب . وليس هـذا بأفخر الشعر ، ولكن أدبنا يكون أفقر كثيراً من دونه . ان شكسبير ممتلئٌ بالفصاحة البيانية ، ولكنهُ حتى عند ما يستعمل تعابير طرماذية (bombastical) فمن العسير أن نجده قائلاً شيئاً فارغاً . ربما كان معربداً في براعتهِ الذهنية أو في سيطرتهِ على اللغة ، ولكننا نجـد دائماً عقلاً داهيةً نشيطاً خلف كلماتهِ . وفي نماذج الخطاب النبيل نجد بيانهُ مشعوراً بالخيال مما يجعله في أية لحظة متسامياً الى الشعر كما في هذه المقطوعة من خطاب (جون أوف جونت) [1] :

This royal throne of kings, this sceptred isle,
This earth of majesty, this seat of Mars,
This other Eden, demi—Paradise...
This happy breed of men, this little world,
This precious stone set in the silver sea.

هذا العرش الملكيُّ للملوك ، هذه الجزيرة الصولجانية ، هذه الأرض الجلال ، هذا الكرمي المقدَّس ، هذه عدن الاخرى ، نصف الفردوس...هذا النسلُ الغرير من الرجال ، هـذه الدنيا الصغيرة ، هذا الحجر الكريم الثمين منضداً في البحر الفضي »

واستطرد المستر بنيون في حديثه عن الخيال الشعري فقال إنهُ كان يتألقُ متمشياً مع الفطرة السمحة في أحاديث شوسر ، وفي حوار شكسبير الخفيف ، وفي ملحمة (دون جوان) لبيرون ، وفي فرديات (monologues) برونتج ، وفي قصائد معينة لروبرت بردجز وبيتس . ومن رأي بنيون أن صياغة الشعر تكون في أجل صورها الطبيعية حينما يكون كنوع من الخطاب السماوي وهو شيءٌ يُسعَدُ الصوتُ الانساني، الصوتُ المتكلمُ ، أتقنَ أدواته ، فان لهُ حركةً ناشطةً بهجةً ممتلئةً حرةً ، حتى ليبدو كأنهُ نوعٌ من التحرير لشيء في نفوسنا الداخلية » . وتفسيراً لذلك أنشدَ بنيون الوصفَ البديع الذي وصفَ بهِ ثيسياس [2] (Theseus) كلاب الصيد ، ثم قال : « عند ما يهجر الشعر هذه السجية وهذا النطقَ ، عند ما يستعمل ضرباً من النظم لا يمكن تقديره في الصوت المتكلم ولا يعظم بهِ ، إما بسبب حركتهِ أو بسبب عبارتهِ ، فحينئذٍ يفقد شيئاً من صفتهِ الأصيلة . هـذه الصفة يفقدها عند ما تُدفَع الكلمات قهراً في وزن بغير إحساس بقيمتها الطبيعية في الكلام . والنظم الاناپستي (الرجعي) [3] anapaestic verse عُرضةٌ بصفةٍ خاصة لهذا العيب ، وحتى كيتس في صباه كان يقول مثل هذا :

(١) John of Gaun : هو دوق لانكستر (١٣٤٠ — ١٣٩٩) والابن الرابع للملك ادوارد الثالث والملكة فيليبا . وكانت له جهود حربية في اسبانيا وفرنسا ، وفي أواخر حكم الملك أدوارد الثالث (والـد) تعاظمت قوته في انجلترا ، وقد مال فيما بعد لقلب دوق اكويتين وسكسها . وهو من الشخصيات التي لم تنلها عبقرية شكسبير

(٢) ثيسياس أو تيسس بن أغيس ، بطل أثيني ، وقد ذكر في (الالياذة) أنظر ص ٢٢٥ من الترجمة العربية لليادة الاستاني (٣) يرجع الى أحد كتب العروض الانجليزي للوقوف على تفاصيل الوزن

What though while the wonders of nature exploring
I cannot your light, mazy footsteps attend
Nor listen to accents that almost adoring
Bless Cynthia's face the enthusiast's friend.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى أشد عيباً لشعراء آخرين [١] . ويلاحظ أن في هذه الاناشيد الشعرية تكون ضربة النغمة واقعة في البيت الاول وتُترَكُ الكلماتُ لتتمشى معها على قدر طاقتها ولو أن نطقها في الانشاد قد يختلف كثيراً

ولكن الشعر قد يفقد صلته بالحديث فقداناً طبيعيًّا لاسباب عميقة حينما ينظم الشاعر وهو يفكر عن غير وعي في الكلمة المكتوبة قبل الكلمة المنطوقة ، كما تدلّ على ذلك براعة تنيسون في شعره المرسل blank verse الاخير وفي سونيتات روزيتى التي تغلب عليها الصناعة . وهذا مشهود بصفة خاصة في درامات سوينبرن [٢] ذات الشعر المرسل بما لها من الرونق والتأثير الكلاميّ العام ، ولكنها قلما تؤثر تأثيراً عاطفيًّا لانها تهمل الوقفات الطبيعية للتنفس في أثناء الكلام ؛ وبناء على ذلك تكتسب ما يكاد يكون جرساً أجنبيًّا يشقّ اتباعه عند التكلم به . وردُّ الفعل لهذه الكتابة النظمية التي تعلّق بها شعراء العصر الفكتوري كان بذل الجهد لتقريب النظم نحو الحديث الطبيعي ، وهذا يذكّرنا بتوفر وردزورث على تحرير الاسلوب تحريراً طبيعيًّا فعُني بالدعوة الى استعمال اللغة الطبيعية في المواقف العاطفية بدل التعابير التقليدية المحفوظة في لغة الشعر منذ القرن الثامن عشر . ولكنهُ لم يلازم نظريته هذه ملازمة دقيقة بل كان احياناً يمسخ غايته هذه ، ولم يفعل شيئاً ليعيد الى النظم الايقاعات الكلامية speech-rhythms التي كانت للشعر الانجليزي الاول ولكن غطّى عليها النظم الكلاسيكي . بيد أن احد معاصريه — وهو شيلي — توسّع في ألحان الشعر الليريكي وأغناها بما لم يستطع غيره ان يفعله [٣] ويظهر ان قليلين نبّهوا الى ذلك ، لانّ شيلي لم يكن يبتدع عن وعي ، ونادراً ما كان يذكر الامور الصناعية في كتاباته أو في أحاديثه المدوّنة . استمع الى هذا الشعر :

Ah, Sister, desolation is a delicate thing.
It walks not on the earth, it floats not on the air
But treads with killing footstep and fans with silent wing
The tender hopes which in their hearts the best and gentlest bear;
Who soothed to false repose by the fanning plumes above
And the music-stirring motion of its soft and busy feet
Dream visions of aerial joy and call the monster Love
And wake and find the shadow Pain, as he whom now we greet. (٤)

فيا للتموّجات الساحرة ، ويا للتنويع في النغم ومداه ، ويا للتراوح في الحركة المبهجة ! »

---

(١) لم نترجم أبيات كيتس هنا لان الغرض من سردها في الاصل تبين عيب الصياغة اني لا تتمشى مع سلاسة التعبير

(٢) اتب شعراء الانجليز بأحد شوقي بك عند ما في حلاوته الموسيقية . وقد كان له شأن كبير في عهد الملكة فكتوريا وسحر الادباء بحلاوته هذه كما سحرهم تنيسون بشاعريته القوية (٣) لعل من أظهر الامثلة في شعره على هذه المقدرة القائقة قصيدته « السحابة » The cloud فان سلاسة البحتري وبديعيات أبي تمام وأخيلة ابن الرومي مجتمعة تقتب مشدوهة أمام قدرتها للدهشة على شدة انجابنا بشعرائنا

(٤) يرجع الاستشهاد في هذه الابيات الى صياغتها الانجليزية ولذلك لم نترجمها ولا ما يماثلها

— ٥ —

وأخيراً ختم بليون محاضرته بقوله : « إنّ المسائل التي بحثناها كافيةٌ لتشويقنا ولكن يمكننا مطمئنين أن ندع للزمن تمحيصها والحكم في شأنها . اما المسألة الحقيقية فهي بين هذين : ما هو الشعر الجيد ؟ وما هو الشعر الرديء ؟ وليست بين التقليديين والعصريين ، ولا بين حزب اليمين وحزب اليسار . ألا يمكننا أن نُبصر الاشياء في نور أعمّ ؟ ألا يمكننا أن نرى في الشعر روحاً مستمرّاً للنوع الانساني محاولاً بغريزة المقاومة المتحسسة أن يحرر في هذا الاسلوب تارة وفي ذلك الاسلوب تارة اخرى تجاوباً كاملاً بين للعالم الذي نعيش فيه ، والمشهدَ الشامل والمعنى الكامل لهذه الكيان ذات العظائم والاهوال والعجائب والافراح ؟ إن حبور الشاعر وعذابها، إنّ الصيحة من اعماق القلب ، إنّ سياحات العقل ، إنّ تلهفات الرُّوح الحرّة — إن كلاً من اولئك بدورها ربما استوعبت حفاوة الشاعر . ولكن في اعظم الشعر ، وفيه وحده ، يبدو القريض كأنهُ امتصّ — كما تمتص الاسفنجةُ الماء — جميع العناصر المتنوعة والغامضة للطبيعة الانسانية واذاعها في صورة الفن . واني لأذكر الإصرار الحماسيّ الذي كان يبديهِ الشاعر وليم بليك على الوحدة المثالية للذكاء الانساني ، مما كان يُعَدُّ في عهده دليلاً على عدم الاتّزان العقلي بل على جنونه ! كان يعتقد بليك أنهُ اذا اغتصبت احدى المواهب الانسانية — ولتكن العقل او الشاعر أو العواطف — السلطةَ وسيطرت على بقية المواهب ، فان الانسان يصبح في حالة سقوط . وكذلك الشعر ، إذا صار مُفْعَماً بالمنطق او بالعاطفة أو بالحساسية الى درجة المغالاة سقط الى مستوًى دون مستوى ذاتيته الحقيقية . ولكننا نحن الذين وُلدنا في عصر يلوح فيه ان العلم بخطواته الفسيحة قد سبق جميع قوى الذكاء الانساني الاخرى، وحينما يوجد ضرب من العطل الذهني في حياتنا ، وحينما لا نزال نعيش بجزء من انفسنا في آراء الماضي ليس لها الآن من صحة ، بينما نحيي بجزء آخر من أنفسنا كمخلوقات عوالم لم تحقق بعد ، فما أشق علينا ان نبلغ ذلك التناغم المنشود ! ولكن ها هي دنيانا المعاصرة التي استبدلت الى حد كبير نظرةُ الاطمئنان اليها من عصر سابق ، بالشك والحيرة وفقدان الامل الكاذب ، فما علينا إلاّ ان نحسن الحياةَ فيها ما استطعنا . ولا بدّ أن هذا الجوّ الغائم يخصب الشعراء الذين نشأوا فيهِ ، فانا جميعاً أطفالُ عصورنا ، ولا بدّ ان يكون الشاعرُ ابن زمنهِ إذ ليس في وسعهِ الافلاتُ من ذلك مهما حاول أن يموّه الحقيقة ويُخفي نفسَهُ . ولكن المحاولة عن شعور وعمدٍ لتنصيب الانسان نفسه كمرآة تعكس الشكّ والاخفاق هو في نظري تسليمٌ حقيرٌ . فاذا كان هذا هو روحُ العصر ، فإذنْ يكون روح الشعر ضدّ روح العصر ، لان الشعر يتغذى من ينابيع أعمق من هذه المُثَبِّطات ، ويتذكر الاشياء التي هي أجلُّ من أنفسنا »

موسى بن ميمون

ويعرف في اللغات الاعجمية باسم Maimonides

موسى بن ميمون[1]

حكيمٌ في حكمته رسالةٌ لابناء العصر الحديث

في عصر مزقتهُ الحروب ، وساد فيهِ رجال الدم والحديد ، نشأ حكيمٌ من اعظم حكماء التاريخ هو موسى بن ميمون المولود في قرطبة قبل ثمانية قرون

كان يهوديًّا ورعاً ذكر ابناء قومهِ بمشترعهم الاول ، وكان حكيماً طالما خاض في اغوار الفلسفة الارسطوطالية ، وكان انسانيًّا يجد نصيباً من الخير في كل ثقافة ، وكان طبيباً خاصًّا لبلاط صلاح الدين ولكنهُ مع ذلك لم يصرف المرضى المساكين عن بابهِ . فمن الطبيعي ان يقرن قومهُ اسمهُ الى اسم موسى الكليم مشترعهم العظيم وزعيمهم الذي خرج بهم من مصر الى ارض الميعاد

اطلَّ موسى بن ميمون على الحياة ، اذ كانت اليهودية مضطهدة من المسيحيين والمسلمين على السواء ، بل كانت في خطر من ان تفقد ذاتيتها وتنحجر في مذهب جامدٍ ضيق النطاق . فبعث في ابناء قومهِ نشاطاً جديداً ، وكسب لهم في مصر وبلاد العرب ، مكانة عالية ، بفضل خلقه القويم وذهنه الجبَّار ، فبسَّط لهم مبادىء شريعتهم الموروثة وفسَّر لهم ديانتهم القديمة تفسيراً جديداً نبيلاً

ولكن حسَّهُ المنطقي السليم ، وبحثهُ الجريء عن الحقيقة ، حملاهُ على الخروج من نطاق مذهب واحد الى رحاب الانسانية والحكمة . فقد ضاع الريبَ والاسرار التي تساور ذهن الانسان وقلبهُ في جميع العصور . ومع ان ابناء العصر الحديث ، من غير الطائفة الاسرائيلية لا يعرفون عنهُ الا قواعد الاحسان الثمان ، الا ان تفكيره كان ذا اثر عميق في القرون الوسطى التي نشأ منها عصرنا الحديث

فمن الطبيعي ان يحتفل اليهود وغير اليهود بالذكرى المئوية الثامنة لمولدهِ في هذا العام ، ابتداء من ٣٠ مارس ولكن من المصادفات التي يؤسف لها ان نرى العالم اليوم مضطرباً كما كان في عصر بن ميمون وان نشاهد بوادر الحروب والصعوبات الدولية تبدو كما بدت في ايامه . ومما تجدر ملاحظته ان روح ابن ميمون ، بل نظرياته ذاتها ، ما زالت ثابتة قوية كما كانت عليهِ منذ ثمانمائة سنة خلت

***

لقد مرت بابن ميمون في حداثتهِ تجاريب مُرَّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يجتازها الشباب الذي نشأ غداة بداية العصر المضطرب الذي نعيش فيه . رأى نور الحياة عشية عيد الفصح من عام ١١٣٥ ، في مدينة قرطبة القديمة ، التي كان يحكمها ويتنفر الخلفاء وكانت الثقافة الاسلامية قد تمت

(١) نشر اصل هذه المقالة في مجلة الفيوتورك تيمس بقلم كاتب اميركي معروف اسمه دوفوس Duffus وقد تفضل فنقلها لنا الدكتور الفريد يلوز المحرر والمترجم بوزارة المالية وسكرتير جمعية الباحث التاريخية الاسرائيلية المصرية]

وازدهرت ، فبلغت شأوها من العظمة ، حتى بزّ العربُ معاصريهم من علماء المسيحية ، خصوصاً في الطب والعلوم والفنون وتفوقوا عليهم تفوقاً كبيراً . نشأ ابن ميمون في هذا الوسط الخصب في ظل تسامح العرب نحو اليهود ، ذاك التسامح الذي مهد لليهود فرصة الانتفاع من علوم العرب ، فعمت الفائدة كليهما . كان والد موسى من العلماء المشار اليهم بالبنان ، محترماً بين رجال عشيرته ، لما تحمل به من العلوم الدينية وادب الكتابة . وتلقى الولد علومه على يدي ابيهِ فاظهر نبوغاً في الدرس والتحصيل . (لقد ذكر بعض المؤرخين انهُ كان كسولاً في صباه لكن هذا الادعاء يكذبهُ الواقع)

وما كاد موسى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى انقضى الحلم اللذيذ . اذ نشبت في قرطبة اضطهادات قامت بها شيعة الموحدين النازحة من افريقيا الشمالية (المغرب الاقصى) والتي قضت قضاءً مبرماً على عهد قرطبة الزاهر ، وحصدت في طريقها الفنون وروح التسامح والاخاء

لم ير ميمون منذوحة عن الرحيل ، محافظة على حياته وحياة اولادهِ . وها هي الاسرة تحيا مدة اثنتي عشرة سنة تارة في الاندلس ، وطوراً في المغرب الاقصى ، دون ان تستقرَّ في موطن واحد . وقد اضطر موسى خلال تلك المدة ان يهمل دراسته ، لكثرة اسفاره . لكنهُ كان اذا استقر في مدينة ، عمد الى تحصيل العلم آونة بعد اخرى ، وقد تناول مصنفاته خلال تلك المدة المضطربة وهو تقويم عبري ما زال مستعملاً حتى الآن كمرجع من المراجع ثم اعقبه ببحث في علم المنطق

هاجرت الاسرة الى فاس في سنة ١١٦٠ فقضت فيها خمس سنوات . وكانت تلك الأيام اشد ايام ميمون بن يوسف (والد موسى) قسوة وحيرة . اذ ان فاس ظلت ردحاً من الزمن مركزاً للموحدين ولنفوذهم . اعتنق اكثر اليهود الدين الاسلامي خشية على حياتهم . وقد قيل ان ميمون واسرته حذوا حذوهم . لكن كليهما دفعا تلك التهمة في كتاب ارسله موسى الى احد الحاخامين الذين الصقوا بهِ زوراً هذه الوشاية . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة البيان والبلاغة ، فأدى نشرهُ الى احياء روح الشجاعة في يهود المغرب الاقصى

كادت الاضطهادات ان تودي بحياة موسى بن ميمون . فأخذت الاسرة تبحث عن موطن جديد . ذهبت اولاً الى فلسطين . فما كاد يستقر بها المقام حتى شدت رحالها الى الفسطاط ، اذ لم تستطع الحياة في بلاد خربتها الحرب القائمة بين العرب والصليبيين

قضى موسى بن ميمون المدة الباقية من حياته في مصر . وكم لاقى من الصعاب في اوليات سني زوجه اليها . فقد توالى عليهِ مصابان كاد ينوء تحت حملهما . مات اخوه الاكبر داود غريقاً في المحيط الهندي ، اثناء سفره في مهمة خاصة بتجارة الاحجار الكريمة التي كان يزاولها ، ولم يمض زمن طويل حتى لحق الاب بابنهِ . وقد ظل موسى مريضاً سنة كاملة من جراء احزانه

عاد شيئاً فشيئاً الى الاهتمام بشؤون الحياة . فانكب على دراسة الطب . وما كاد يتمها حتى شرع في مزاولة مهنته ، معتمداً على علوم العرب وعلمه ذكائه ومواهبه في تطبيقها وتعديلها . لم ينقطع

موسى عن التطبيب ، بل ظل يقوم به ، اولاً بين اليهود ، ثم احرز شهرة بين غيرهم من ابناء مصر ، حتى ذاع صيته فبلغ السلطان صلاح الدين بن ايوب . وقد دلت الاسانيد التاريخية على أن موسى بن ميمون كان طبيباً يشار اليه بالبنان . لكن هناك باعثاً آخر حمله على مزاولة الطب . وهو انهُ كان زعيماً دينيًّا ثم اصبح رئيساً للطائفة الاسرائيلية بمصر . ولما كان يستهجن اتخاذ الواجبات الدينية وسيلة للكسب ، رأى اتخاذ التطبيب مورداً لرزقه

كان موسى بن ميمون في حياته الخاصة ، متواضعاً ، مجتهداً ، متفانياً في خدمة الانسانية . ويستدل على ذلك من الكتاب الذي ارسلهُ الى احد تلاميذه في سنة ١١٩٩ اي خمس سنين قبل وفاته حيث وصف عمله اليومي كما يلي : « ان واجباتي نحو السلطان ثقيلة جدًّا . ذلك لانني مضطر الى زيارته يوميًّا ، في الصباح المبكر ، فاذا مرض هو ، او احد اولاده ، او احدى سيدات الحرم ، لازمت القاهرة ، وبقيت الشطر الاكبر من النهار في السراي . وكثيراً ما يمرض واحد او اثنان من رجال الديوان ، فاظلُّ بجانبهما حتى يبرآ »

« والقاعدة العامة هي أن اذهب الى القاهرة في ساعة مبكرة من النهار ، وحتى في حالة عدم حدوث شيء غير عادي ، لا اعود الى الفسطاط ، الاّ ساعة العصر ، وانا اكاد اموت جوعاً . هناك اجد في حجرة الانتظار ، فوجاً من الناس ، يهوداً وغيرهم ، اشرافاً وعامة ، قضاة وحجاباً ، اصدقاء واعداء ، كلهم ينتظرون ساعة ايابي

« اقفز من مطيتي ، واغسل يدي ، ثم اذهب الى مرضاي ، وارجوهم ان ينتظروني حتى احتسي شيئاً من المرطبات ، وهو الطعام الوحيد الذي اتناوله خلال الاربع وعشرين ساعة . ثم اعود الى مرضاي واكتب لهم تذاكر الدواء ، والتعليمات الخاصة بالطعام . والمرضى يذهبون ويقدمون الى ساعة الغروب ، بل اؤكد لك انهم يستمرون واقفين الى ما بعد الغروب بساعتين او اكثر . اتحدث معهم واصف لهم الدواء وانا مضطجع من شدة التعب ، واذا ماجاء الليل ، امسيت منهوك القوى ، لا اكاد استطيع الكلام » .

وكان لا يلتقي بافراد الطائفة الاسرائيلية الاّ في يوم السبت ، حيث كان يقضيه في التعليم الديني ، والدرس ، والعبادة ، والصلاة . فكيف استطاع ان يحرر رسائله العديدة ، حتى أخريات ايام حياته ، دون الالتجاء الى كاتب سر ؟ . ثم كيف وجد وقتاً لانجاز مؤلفاته الفلسفية العديدة ؟ حقًّا انها لمعجزة ! قضى حياته عاملاً مجدًّا مجتهداً . وانتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ اي قبيل بلوغه السبعين

ليس من الميسور استعراض جميع نواحي حياة موسى بن ميمون ، فهي عديدة متشعبة . لقد استطاع وحده ، دون مساعدة اي انسان ، ان ينهض بثقافة اليهود وايمانهم . وكانت الخدمات التي اداها الى السلطان صلاح الدين ، بمثابة خدمات لشعبه ، اذ ضمن لليهود السلامة والامن ، في

البلاد الشاسعة التي امتد عليها سلطان صلاح الدين. والواقع ان اليهود تمتعوا بعد فتح صلاح الدين لمدينة القدس في سنة ١١٨٧ ، بحرية أوسع من تلك التي نالوها تحت حكم الصليبيين . اما الخدمات التي قام بها موسى نحو الانسانية فانها أجل شأناً . كان يعتقد ان هناك ثقافة عالمية تستطيع استخراج المبادىء الطيبة من جميع الاديان والحضارات . وقد بذل جهده في محاربة التعصب أيّاً كان مظهره. وفي المجادلات التي جرّ اليها رغم ارادته ، اتخذ موقفاً مملوءاً بالتعقل وانكار الشخصيات ، بل طالما تجنب ذكر خصومه باسمائهم

فلما وقع الشقاق بين يوسف بن عقنين — احد تلاميذ موسى المخلصين — وصموئيل بن علي ، رئيس المدرسة اليهودية ببغداد ، كتب موسى الى تلميذه ، يحذره من الوقوع في الجدل الشديد ، حيث قال له : « علّم ولا تسب ، تذكر انك أسأت الى هذا الرجل، وانك آذيته في اسباب معيشته . فكيف يمكن أن يتحمل المرء هذه الاساءة دون ان يشكو ؟ تذكر انهُ شيخ مسن ، وانهُ يشغل مقاماً محترماً ، وانك لا تزال شابّاً فيجدر بك ان تحترمهُ لمقامهِ وسنه »

ومما قالهُ موسى بن ميمون في « درجات الاحسان الثمان » ما يأتي: « ان ارفع درجات الاحسان ، وأحسنها جزاء هي السبق في الاحسان ، بمنع الفقر قبل وقوعه »

ليس من السهل الايجاز في تحليل فلسفة موسى بن ميمون . فهي لا تقل تشعباً عن فلسفة افلاطون ، وارسطو ، وكانت ، وهيجل . ولا تزال ثلاثة من درر تصانيفه باقية الى يومنا هذا . نذكر منها اولاً تفسيره لكتاب « المشناه » الذي بدأه ولم يتجاوز الثالثة والعشرين وانتهى من وضعه بعد عشر سنوات . و « المشناه » هي مجموعة الشرائع والسنن والتقاليد الدينية الاسرائيلية التي تناقلتها الاجيال ، عن طريق الحديث ، من وقت موسى الكليم ، ثم اضيفت اليها اقوال الحكماء ، المتناقلة عن طريق تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم . وقد استعرض موسى بن ميمون في تفسيره ، جميع انحاء الثقافة اليهودية . ومما قاله الدكتور مونز (Munz) واضع تاريخ حياة موسى ابن ميمون ، ان كتاب تفسير « المشناه » ليس عمل رجل يهودي فحسب بل هو عمل احد العلماء العالميين . لانه استطاع ان يستند في ابحاثه الى نصوص علمية هذا نصوص التوراة . وقد لخص النقط الاولية لمبادئه في ١٣ مادة دعاها « اقوال التوراة » ولا يزال اليهود الى يومنا هذا يكررونها في الصلاة ويترنمون بها ترنماً رائعاً

وبعد اتمام كتاب « مشني توراة » ، شرع موسى بن ميمون في تبويب الشريعة الاسرائيلية وسننها وتقاليدها فانتهى منها في سنة ١١٨٠ بعد جهد دام عشر سنوات . وقد ظهر مؤلفه هذا في ١٤ جزءاً تشمل الف فصل . ويعد هذا الكتاب بمثابة المرآة التي تنعكس على صفحتها الصافية تفسيراته المنطقية وآراؤهُ الجلية

لكن موسى بن ميمون لم يدرك الغرض الذي كان يرمي اليه من هذا المصنف الاخير ، وهو

جعل الشريعة الاسرائيلية واضحة جلية ، في متناول كل انسان . ذلك لان الشروح والتفسيرات التي شملها كتاب « مشني توراة » لم يستطع فهمها الا المتبحرون في العلوم الدينية . ومع ذلك فقد اصبح بحثه ، في ما تلا من الايام ، اساساً للتطور الديني

واخيراً كتب موسى بن ميمون « دلالة الحائرين » وهو بحث لم يقتصر فيه المؤلف جهده على الفلسفة الاسرائيلية فحسب ، بل تجاوزها الى دراسة اسس الفلسفة العالمية . وقد بذل موسى قصارى جهده في سبيل التوفيق بين العلم والدين ، بين العقل والنقل . ونستطيع القول بأن موسى ابن ميمون قد نجح في تصوير الخالق عز وجل ، في صورة روحية ، ليس فيها شيء من المادة او الشكل ، في صورة القوة الكاملة التي لا يحدها حد ، والقادرة على كل شيء

ان تصوير الخالق عز وجل بهذه الصورة ، يوافق كل الموافقة العقيدة اليهودية من دون ان يتعارض مع التفكير العلمي . فقد قال موسى بن ميمون في وصف الله : اذا حاولنا مشاهدة عظمته اصيب نظرنا بنور ساطع يفقدنا قوة البصر ، واذا عمدنا الى تقدير قوته ، اصبح علمنا جهلاً ، واذا اجتهدنا في وصف حبه للانسانية ، تلعثم لساننا كلسان الاطفال »

اذا كانت تلك هي صفات الله ، فكيف يظل الشر موجوداً على وجه الارض ؟ وقد اجاب ابن ميمون على هذا السؤال قائلاً ان الشر ليس بالشيء القائم بذاته ، بل هو حالة عدم وجود الخير . وقد ذهب موسى الى مدى ابعد ، اذ اعتبر ان امراض النوع الانساني واحزانه ، ناتجة من الطبيعة ذاتها ، وان حالة النزع والموت هما الثمن الذي يدفعه المرء نظير تمتعه بالحياة ولولاهما لاصبحت الحياة امراً مستحيلاً

عمد موسى بن ميمون الى طرق التدليل اليونانية تارة ، والى المنطق الشائع في العصور الوسطى تارة ، حتى وصل الى اليقين والاستقرار . وقد بدا له الانسان مخلوقاً واهياً وعنصراً هامشياً في آن واحد . اذ مع صغر شأن المرء في الكون ، تراه هو وحده ، دون سواه ، فاهماً لاسرار الكون ملماً بوحدته . وهي النظرية الفلسفية القائمة حتى الآن

ان أثر موسى بن ميمون في الفلاسفة المسيحيين ثابت لا ينكر . فقد اخذ عنه كثيرون منهم امثال اسكندر اوف هيلس ، والبرت ماجنوس ، ودون سكوتوس ، وآكويناس . بل لقد كان أثر موسى بن ميمون عظيماً جداً في الفلسفة الحديثة ، بواسطة المفكر اليهودي سبينوزا . وهكذا اشترك في تكوين اجيال فلسفية جديدة ، لا تمت الى دينه بأية صلة

فلا غرو اذا احتفلت جميع الشعوب والاجناس بالذكرى المئوية الثامنة لمولده . ومن دواعي السرور حقاً ان تشترك الحكومة الاسبانية رسمياً في المهرجان الوطني الذي سيقام لاحياء ذكراه بمدينة قرطبة ، مسقط رأسه . ففي الوقت الذي طوى النسيان اعمال عمالقة التفتيش ما زال اسم موسى بن ميمون حياً في الاذهان

عيد بنك مصر

وخدماته الاقتصادية والاجتماعية

[احتفل بنك مصر في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي بانقضاء خمسة عشر عاماً على تأسيسه ، فكان الاحتفال عيداً قومياً عاماً اشتركت فيه جميع طبقات الامة ، حكاماً ومحكومين ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، وطنيين واجانب على السواء . وفي الجانب الاول من هذا المقال وصف للرسالة الروحية التي تمثلها حياة قطب من اقطاب العمل مثل طلعت باشا وصحبه الكرام . وفي فلك متفرقات من خطبة طلعت بك التفيسة الشهية تبين تدرج ارتقاء البنك من الناحية المالية ، وتصف الخدمات الاجتماعية الجليلة التي اداها للامة المصرية الكريمة في عمار نهضتها الحديثة]

— ١ —

أتخلق الظروف الرجال او تخلق الرجال الظروف او ينتهز الذين يؤتون مقام الزعامة والقيادة والسير في طلائع الجماعات ما يسنح لهم من فرص وما تهيئه الحوادث من شعور فيقدمون على اعمالهم ومشروعاتهم ويحققون ما يجول في خواطرهم وهم يرنون الى المستقبل بعين الرجاء المبني على صحة القصد وصدق العزيمة

وقد تتعذر الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة بالضبط الذي يتوق اليه المعجبون بالمفلحين والابطال وقد لا يكون الجواب — اذا تيسر — واحداً في جميع الحالات

غير ان المحقق هو ان من آيات عناية الله بخلقه ان ينفحهم في ثنايا الزمان برجال — ونساء — يجدون لذة الدنيا وهناءة العمر في ارتياد مجاهل الحياة لخدمة المجموع — هؤلاء هم بناة الحضارة ومرشدو الشعوب وارباب الزعامة في ما ينفع الانسان من مدنية وثقافة وهناءة ويسر مادي

وما كان الله ليحرم كنانته في ارضه مما حبا به سواها فقد تجملت نهضة مصر الحديثة بظهور رجال ابوا القعود في غير مرفق واحد من مرافقها وتمردوا على المذاهب التي علقت بالاذهان ورسخت في النفوس فتوسلوا بما يتوسل به كل بصير صبور وتم لهم الفوز وقيض لبلادهم الربح والظفر

ولقد كان شهر مايو من الشهور المذكورة في اعوام هذه النهضة لما بدا من شعور امة بأمرها وقد اتيح لها اظهاره فكان اغتباطها هذا واشتراك جميع طبقات الامة اصطع دليل على ان الذين اسسوا بنك مصر والذين اعدوا مشروعه وبنوا الامل بل اليقين بنجاحه وحققوا الامل وأيدوا اليقين اصابوا من هذه الامة الكريمة اقصى ما تصبو اليه نفس المواطن ونالوا عطفها وقدرها وشكرها وهو اعظم جزاء يحفل به عظيم النفس وكبير الفؤاد

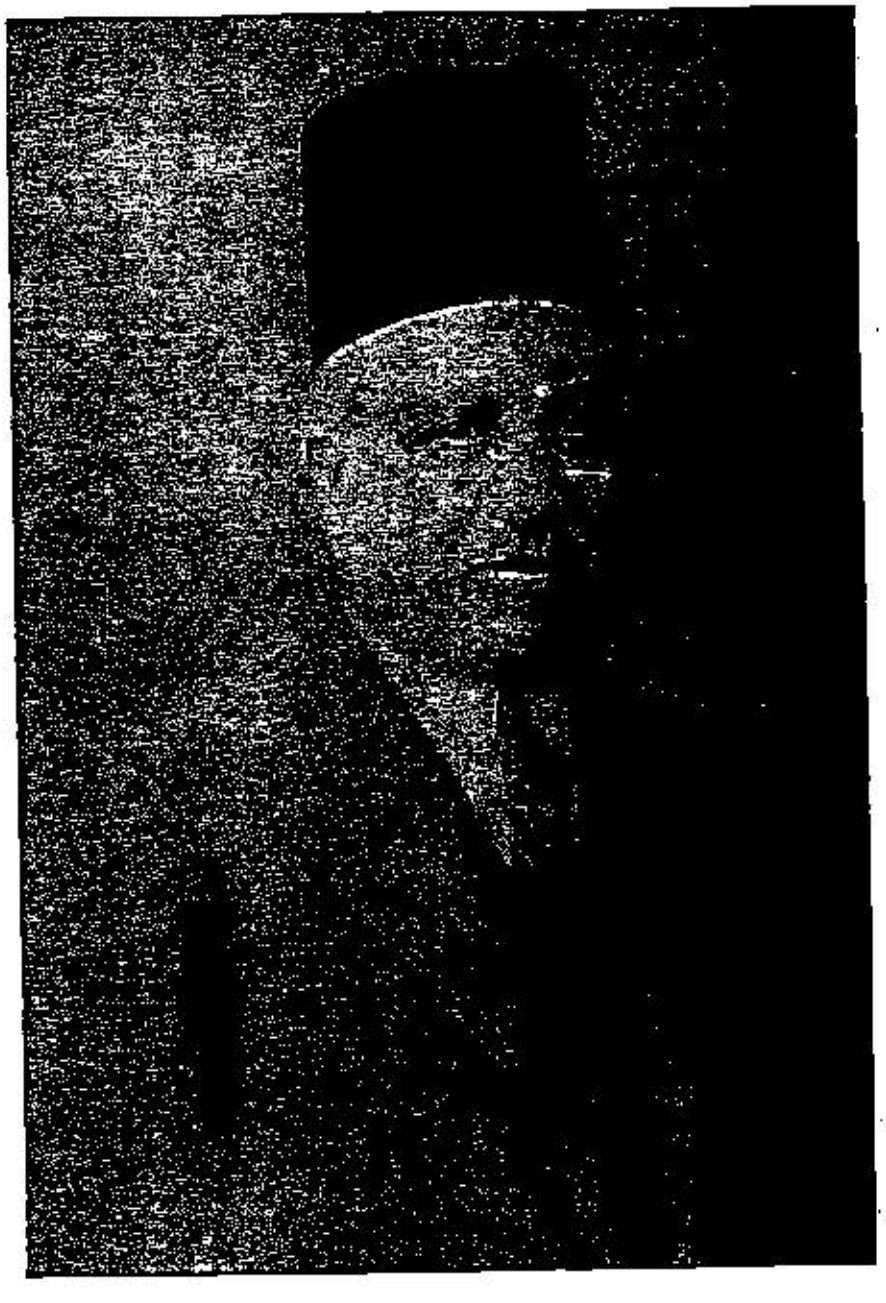

صاحب السعادة طلعت باشا حرب

مستعارة من مطبعة بنك مصر

ان طلعت حرب وبنك مصر ليسا شخصاً ومؤسسة بل هما عنوان ورمز — الاول على الرجولية الكاملة ووقف الحياة والقوى على الخدمة العامة. والثاني الى ما تنتمي هذه الامة وما هي بالفتهُ باذن الله وبصدق خدمة ابنائها الممتازين وافطابها المختارين وتعاونهم على ما فيه خيرها وصلاحها

ولطالما وددنا لو ان طلعت حرب باشا يكتب مذكراته ولاسيما ما يختص منها بمشروع البنك وكيف خطر له وكيف كيفهُ واعده وما لقي من تشجيع وتنشيط وما قابل من معارضة وتثبيط همة وان يذيع ما يستطاع اذاعته من ذلك الآن ليكون منهُ بيان للناس وقدوة ومثال للشبيبة المتعلمة ولاسيما التي لا تعرف كيف تهتدي الى طريق العمل لنفع الشبان وخدمة وطنهم

فان في هذا السفر المكتوم حتى اليوم عبراً ودروساً قد تذاع وقد تظل مكتومة الا عن الذين عاصروها واطلعوا عليها لاسباب شتى

***

ولكن الآية الكبرى ستظل ماثلة للعيون والاذهان في استمرار هذا العامل العظيم واخوانه الذين يضارعونهُ في شوقهم للخدمة العامة واجتهادهم ونشاطهم واخلاصهم ونزاهتهم — واستمراره واستمرارهم في العمل المنتج وابتكار المشروعات التي تغتبط بها الأمة والبلاد وتعزز ما أسس وتحسينه

ان عمر بنك مصر الآن ستة عشر عاماً من عمره الطويل المبارك ولكن متانة مقامه في النفوس وعمره الادبي اذا صحَّ هذا التعبير لا يقلان عن اهرام الجيزة العظيمة مع مراعاة الفرق في ما يجنى من النفع من مؤسسة المدافن الملكية ومؤسسة الحياة الشعبية

ولم يترك الشعراء والخطباء والصحافيون والكتاب لكاتب ما يقال سوى مشاركتهم في ترديد الحمد على هذه النعمة التي اسبغتها العناية على مصر والدعاء باستمرار نجاح هذه الجماعة الكريمة المختارة

***

ولكن للقتطف اقتراحاً يعرضه على المفكرين والمعجبين — فقد اقترحوا نصب تماثيل وتسمية شوارع وكلا الاقتراحين جميل وجدير بأن يوضع موضع التنفيذ

فلماذا لا يعزَّزان بعمل ثالث قد يكون اهم في دلالته على المعنى المنشود والقصد المقصود

وذلك بأن يصاغ كتاب تهنئة وشكر ودعاء لطلعت حرب باشا واخوانه ويكتب بأجمل خط على رق غزال ثم يطبع منهُ الوف من النسخ على ورق متين وفي كل ورقة مكان لمائة امضاء وتعرض هذه الاوراق بصيغة كتاب التهنئة ليمضيها الذين يقدرون بنك مصر ورجاله واعماله قدرها وقدرهم ثم تجمع هذه الاوراق في مجلدات وتهدى الى بنك مصر ويوضع الكتاب الاصلي في اطار شرقي نفيس ويقدم الكل هدية وتذكاراً الى طلعت حرب باشا واخوانه تنويهاً بفضلهم ودليلاً على اعتراف أمة بأسرها بجليل خدمتهم

— ٢ —

انشاء البنك وبرنامجه

في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٢٠ — بشّر الناس بميلاد بنك مصر واضيف الى تاريخ النهضة المصرية صفحة جديدة لتسجيل هذا الحادث التاريخي السعيد. وان خمسة عشر عاماً، تمر تباعاً على بنك صميم في مصريته، لم يألف المصريون مثله من قبل، ليس بالقليل. بل ان مرور هذا الزمن على عمل ما دليل حي على قوة هذا العمل ومتانته، وبرهان ساطع على ثباته وحيويته بل وضرورته

وبنك مصر الذي انشيء للمصريين جميعاً ولخدمة المصريين جميعاً قد برهن طوال حياته على انهُ عمل نافع ثابت الدعائم متين الاساس وبرهن ايضاً على انهُ قوة مصرية كانت كامنة في القلوب والخواطر فاظهرتها الامة بالعزيمة والثبات وانكار الذات

وبرهن كذلك على انهُ ضرورة لم يكن من وجودها بد لاشباع حاجة كانت تحس بها الامة ولم يكن عنها محيد لتصوير الناحية الاقتصادية، بعد ان ظلت صدراً من الزمان عاطلة عن التصوير والبيان

كان تأسيس بنك مصر سنة ١٩٢٠ مفاجأة ادهشت الجميع. واقبل بعضهم على بعض — من فرط ما دهشوا — يتساءلون عن مستقبل هذا المشروع، وعن كفاية الذين يتولون اموره، ويهيمنون على شؤونه، وهل من المستطاع استعمال لغة البلاد في اعماله، او هل يجد حاجته من ابناء الامة الذين يستطيعون ان يحملوا اعباءه بسهولة، وما مدى تأثيره في الناحية الاقتصادية المصرية، وما مبلغ حظه من التوفيق في انشاء فروعه في الداخل والخارج واتصاله بامثاله هنا وهناك

وتلهف الناس في كثير من الاهتمام على ما عسى ان يكون الرد على امثال هذه الاسئلة فما كان جواب البنك الاّ ان قال: — « هاؤم اقرأوا كتابيه. ثم احكموا بالعدل والقسطاس المستقيم...»

ونحن اذ نتحدث بنعمة الله علينا، لا نرى ابلغ في التدليل على توفيق الله الاّ ان نعرض ما كان المؤسسون قد ارتضوه واقروه برنامجاً للبنك منذ سنة ١٩٢٠

جاء في برنامج البنك « انهُ يعمل كل ما يعمله بنك تجاري مثله لا فرق فيمن يعامله بين ان يكون مصرياً او غير مصري فالمصرية لم تشترط الا في رأس المال، اما فيما عدا ذلك فابوابه مفتوحة لكل عميل »

« وان في البلاد اموالاً كثيرة مخزونة ومعطلة وظيفتها في الاصل التداول بين الناس ولها في كل حركة بركة، وفي كل دورة ربح رابح. ففي حبسها ووقوف هذه الحركة وضياع لهذا الربح والفائدة التي تعود على البلاد من زيادة ارباح بنيها فضلاً عن تعرض هذا المال للضياع بالسرقة او الحريق او ما اشبه. وفي البلاد ودائع وامانات كثيرة متشرة معظمها في بلاد غير البلاد. ولو ثمرت هذه وتلك في الشؤون المصرية وصوعفت بها التجارة والصناعة والزراعة المصرية لزادت الثروة المصرية

اضعافاً مضاعفة ولكان ذلك عاملاً قوياً على اصلاح حالنا الاقتصادية وايجاد الكفاءة المالية التي هي الاساس المتين للرقي المطلوب »

وان البنك « سيشجع المشروعات الاقتصادية المختلفة التي تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم ويساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية وشركات النقل بالبر والبحر وشركات التأمين بانواعها ويتعهدها حتى تنمو وتقوى ويشتد ساعدها . وبالجملة يعمل على ان يكون لمصر صوت مسموع في شؤونها المالية ويدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها »

« وسيؤدي بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية . وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح اعضائها ودرس انجع الطرق لترقية شؤونهم »

« وسيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام في الشبيبة وانماء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم والحث على وضع اساس التربية الاقتصادية العملية في البلاد وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابي اساساً في مناهج التعليم فيها »

هذه خلاصة برنامج البنك : فهل قام بنك مصر بجميع ما وعد به في مدى الخمسة عشر عاماً الماضية ؟ اننا نترك لعملاء البنك الجواب عن ذلك . ونظن انهُ لا يخرج عن ان بنك مصر قد ابلغ الرسالة وقام بواجبه خير قيام بقدر ما استطاع . وهذه تقارير البنك السنوية التي احاطت بكل الارقام والاحصاءات الدالة على مدى تقدم البنك ومبلغ ما قام بهِ من خدمات للزراعة والصناعة والتجارة والتعاون . ومن هذه التقارير يتضح لكم ان بنك مصر أصبح يحتل المكان الاول بين البنوك التي ترد باسمها الاقطان في الاسكندرية . كما أصبح الاول — بعد البنك الاهلي المصري — بالنسبة لمقدار الودائع والامانات

رأس المال والودائع

بدأ بنك مصر صغيراً ، كما يبدأ كل شيء . فقام في عام ١٩٢٠ برأس مال متواضع قدره ثمانون الف جنيه . ثم سجلنا مغتبطين ، في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ وصول رأس المال الى نصف مليون جنيه . كما سجلنا مغتبطين ايضاً ، في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بلوغه المليون الكامل

وقد بلغ عدد المساهمين في البنك ٩٣٥٦ مساهماً في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ بعد ان كان ١٢٦ مساهماً في السنة الاولى . وبلغت قيمة الارباح التي وزعت على المساهمين مدى الخمسة عشر عاماً ٨١٤٩١٦ جنيهاً خص السهم الواحد منها منذ سنة ١٩٢٠ مبلغ ٤ جنيهات و٤٣٠ مليماً اي بنسبة ١١٠ ٪ من قيمة السهم الاسمية وهي اربعة جنيهات

هذا عدا احتياطات البنك المقتطعة من ارباحه وقد بلغت في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ كما يأتي : —

جنيه مصري	
٣٧٥ ٧٣٢	احتياطي قانوني
١٨٠ ٠٠٠	احتياطي فوق العادة
٢٣٥ ٠٠٠	المال المخصص لتأسيس وانماء الشركات الصناعية والتجارية
٧٩٠ ٧٣٢	خلاف مبلغ ٥٠٦٣٢ قيمة المجموع المرحل من الارباح للسنوات المقبلة

واذا اردنا تقدير رأس مال البنك على حقيقته ، وجب ألاّ نغفل شهرة البنك في مصر وغيرها . ومقدار تأثيره في المحيط المصري المالي . وقيمة كلمته المسموعة في كل مكان . وعظم الثقة التي منحتها له الامة بحكومة وشعباً . وكذلك رضا الجميع عن اعماله وجهوده المختلفة — فان كل هذا له قيمته . وله تأثيره ، وله وزنه ، عند ضبط رأس مال البنك على وجهه الصحيح

واذاً فلا يصح ان نعتبر رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات وهو في الحقيقة اضعاف مضاعفة انه يربي في غير مبالغة على عشرات الملايين ... !

أما الودائع فقد كان امرها ملحوظاً بعناية عند انشاء البنك ، وكان الاكثار منها هو اعتمادنا في تحقيق ما نصبو اليه من اصلاح اقتصادي شامل . ونحن نحمد الله على ان الودائع قد اقبلت على البنك من جانب الافراد ، ثم من جانب الحكومة لحسابها ولحساب مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية والحسبية ولحساب السلف الصناعية والجمعيات التعاونية والزراعية

وبعد ان كانت هذه الودائع في نهاية سنة ١٩٢٠ مبلغ ٩٦٠ر٢٠٠ جنيهاً اطردت الزيادة سنة بعد اخرى حتى بلغت عام ١٩٢٧ اكثر من خمسة ملايين ونصف مليون من الجنيهات في نفس الوقت الذي بلغ فيه رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات . واستمرت الودائع تزداد وتزداد وهي تحمل معها ثقة اصحابها من الافراد والهيئات ، بادارة البنك وانظمته وانتاجه ، حتى لقد بلغت في نهاية عام ١٩٣٤ اكثر من ١٠ ملايين جنيه عدا ودائع صندوق التوفير التي بلغت في نهاية السنة المذكورة مبلغ ٠٠٠ر٨١٠ جنيه . وهذه الارقام مظهر لهذه الثقة الغالية

قلنا ان بنك مصر بدأ صغيراً كما يبدأ كل شيء ، ولكنه ما زال يتدرج في النمو والاتساع رويداً رويداً وانتشرت فروعه في الاقاليم حتى زاد عددها على العشرين فرعاً ومكتباً وحتى امتلك داره الحالية ودوراً وشوناً اخرى في الاسكندرية والاقاليم

كان البنك ، اول نشأته ، قد استأجر داره الاولى بشارع الشيخ ابي السباع ، وما زلنا نوسعها تبعاً لزحام الاعمال وازدياد الموظفين باستئجار بعض المحال المجاورة حتى رأينا ألاّ بد من تهيئة مكان آخر يكون اوسع وأرحب ، فاشترينا قطعة ارض بشارع عماد الدين مساحتها ١٥٣٧ متراً مربعاً وبنينا فوقها داراً لاعمال البنك وبعض الشركات ، مؤلفة من ست طبقات انتقلنا اليها في ٥ يونيه سنة ١٩٢٧ بعد ان احتوت الدار الاولى طفولة البنك سبعة اعوام سويًّا

ثم لاحظنا ان اتساع الاعمال يسبق بل يفوق ما يتوقعه الظن ويطوف بالخيال فرأينا ان نأخذ عدتنا ونحتاط لحاجة الحاضر القريب والمستقبل البعيد فتعاقدنا مع وزارة الاوقاف على استبدال الارض الواقعة خلف عمارة البنك والبالغة مساحتها ٢٦٤٨ متراً مربعاً ، وشرعنا فعلاً ، ولم نزل ماضين ، في تنفيذ الضروري من التصميم الموضوع لتوسيع الدار توسيعاً ، يجعل مساحة الدار كلها حول فدان تقريباً ويدل على بركة العمل الصالح بلا جدال

مهمة بنك مصر

تختلف اعمال المصارف باختلاف وجهات النظر عند مؤسسيها والقائمين بها

فهناك بنوك اصدار البنكنوت . وبنوك الخصم والايداع . وبنوك الاعمال . والبنوك الزراعية . والبنوك الصناعية . والبنوك العقارية . فلكل عمل من الاعمال المالية الكبرى بنك خاص يقوم به او بتشجيعه او بالاشراف عليه

والتخصص في الاعمال لدى البنوك يأتي عادةً بعد ان تفارق الامة حالة البداءة الاولى . لانه في البداءة ، لا توجد اعمال ، من كل وجهة ، تكفي للتخصص . فكان بنك واحد يقوم بجميع الاعمال . حتى اذا ارتقت نواحي الحياة في الامة ونضج شعورها بكل ما يهمها ، وتحقق لها فعلاً كل مشروعاتها المالية والزراعية والصناعية والتجارية ، واتسعت دوائرها ، وتشعبت اطرافها — جاء دور تقسيم الاعمال على البنوك — التي تكون حينئذ قد كثرت وانتشرت — كلٌّ والعمل الذي يتفق مع الغرض الذي أسس له

وهناك بعض دول في اوربا تفكر الآن فقط ، بنوكها الوطنية في تقسيم الاعمال عليها

وانتم تعرفون ما هي دول اوربا من حيث رسوخ القدم في الصناعة والتجارة

ومصر كانت ولا تزال في حاله بدائية ، غشاها ما غشى من ليل الظروف والمحن ، وظلمات الجمود والركود ، فظلت واقفة في اول الشوط ، معصوبة العين ، لا تدري اي طريق تسلك مع السالكين ، حتى سبقها السابقون ، وتركوها وحيدة في ذيل المتأخرين

ولقد هال « بنك مصر » بلا شك يوم بدأ حملته ، ألا يجد — في الارض أو في السماء ، وفي البر أو البحر — اثراً لعمل مصري صميم ، الا النادر ، يدرأ عن الامة سخرية الساخرين . .

وكيف كان ميسوراً أن يجد ذلك وبلاغ كل عمل رجال ورؤوس أموال ... ؟

أما الرجال — رجال الاعمال — فان التعليم العام ظلّ بعيداً للأسف عن تخريج أمثالهم الا من وهبهم الله الاستعداد الفطري لذلك . واولئك قليل !

وأما المال ، فان أغنياءنا ايضاً ظلوا ممسكين عن المجازفة بأموالهم فيما يهم البلاد

كذلك ظلّ أبناؤنا محرومين من المرانة على أعمال البيوت المالية والشركات المختلفة الاجنبية ، بالرغم من كرم الضيافة التي عاملت عليها بلادنا بكل سذاجة منذ عهد طويل

فكان لزاماً على بنك مصر أن يظهر في الميدان . وأن يبدد هذا الظلام الذي أكتنف الأمة وأحاط بمرافقها من كل ناحية ، وأن يعمل اولاً على أن يستحوذ على « الثقة » وهي ملاك كل أمر نجح ولا تغتصب وأن يجذب اليه فريقاً من شباب البلد يربي فيهم الكفاية الشخصية وملكة القدرة على القيام بأعماله الجديدة باللغة العربية التي كانوا يحسبونها عقبة في سبيل البنك — حتى إذا تم أن يقف وحده على قدميه أخذ في تحقيق مهمته الكبرى أو بالاحرى في تنفيذ برنامجه القومي — وقد سبق تلخيصه — وهو يتكىء اولاً وأخيراً على أن يقوم بكل شيء وان يفعل للامة كل شيء وأن يسد ما استطاع النقص الظاهر في مرافق البلاد الاقتصادية المختلفة وأن ينير الطريق ويفسح السبيل لاخوانه في الوطنية وان يحمل الأمة على جناح السرعة لكي ينهض بها وان يخطو وإياها خطوات واسعة ليعوض عليها ما فاتها من الزمن سلفي .. وهو اليوم يفخر بأنهُ انتهى من عامه الخامس عشر وبه من الشبان المصريين المتدربين ٦١٦ شابًّا بعد أن بدأ في مستهل أعماله بعشرين فقط

نعم لم يرض أن يكون بنك مصر مجرد بنك كالبنوك الاجنبية الكثيرة في البلد وهي بنوك تستوحي في الغالب سياستها من أمهاتها في الخارج . وقد رأى بنك مصر العبء الذي تركته هذه البنوك فادحاً وثقيلاً ولكنهُ لم يتردد في أن يحمله فحمله وحده بشجاعة وأمانة معتمداً على الله

وسرعان ما لاحت للبنك تباشير النجاح وصادفه التوفيق وطالعه الحظ الحسن فثبت الله اقدامه وعبد الطريق امامه والتفت لحاجات الامة يصورها في صور شركات مساهمة مصرية واحدة أثر اخرى مستقلة عنه في رأس المال وفي الادارة تحمل جميعاً اسم « مصر » برًّا بوعده ووفاء بعهده

شركات البنك

ولم يكن للبنك مفرٌّ من « الاسراع » في تأسيس المشروعات الهامة الضرورية لا سيما وعصرنا الحاضر عصر « سرعة » بكل ما يحتمل معنى هذه الكلمة

وقد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه « السرعة » التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته ولكن امثال هؤلاء لا يلبثون ان يقتنعوا بأن استمرار تطفل الامة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح الاليم

لقد كان من الخير فيما نعتقد ان نسارع الى عمل شيء من صنع ايدينا وقد وفقنا الله في ذلك فكان لنا في هذه الفترة القصيرة — فترة الخمسة عشر عاماً — ان ركز البنك — في السهل والجبل وفي الشرق والغرب وعلى الماء ومتن الهواء — علم البلاد . . . يخفق تحت الشمس بإسم بنك مصر وشركات مصر بل باسم « مصر » كلها بعد ان طال احتجابه بين الظلام عهداً طويلا

ومهما يكن من شيء فان (السرعة) التي قد يأخذها على البنك بعض الناس قد آتت أكلها باذن ربها والفتح من نتائجها الكبرى ان البنك قد نجح نجاحاً لا شك فيه حتى ليمكننا ان نقرر

البهو الكبير في بناية بنك مصر

باطمئنان انه لم يعش فقط هذه الخمسة عشر عاماً التي نحتفل اليوم بمرورها، بل انهُ قد عاش في الحقيقة وعلى اقل تقدير خمسين سنة اذا قدرنا ما قام به من الاعمال

وهذه شركات مصر ماثلة امامكم فستمبحكم ان نسرد اسماءها عليكم ، وان كانت هذه الاسماء قد أصبحت من الشهرة والذيوع بحيث تجري على كل لسان [1] وهي :

عدد	الشركة	عدد	الشركة
١	مطبعة مصر	٨	شركة مصر لمصايد الاسماك
٢	الشركة المصرية لصناعة الورق	٩	شركة مصر للسكتان
٣	شركة مصر لحلج الاقطان	١٠	شركة مصر لاصدار الاقطان
٤	شركة مصر للنقل والملاحة	١١	شركة مصر للطيران
٥	شركة مصر للتمثيل والسينما	١٢	شركة مصر لعموم التأمينات
٦	شركة مصر لنسج الحرير	١٣	شركة مصر للملاحة البحرية
٧	شركة مصر للغزل والنسج	١٤	شركة مصر للسياحة

لم يكن بعيداً ، ايها السادة ، لولا بنك مصر ، ان تتخذ رؤوس اموال هذه الشركات سبيلها خارج بلادنا سرباً ، فيستفيد بها من لا يعطف على مصر ، ومن لا يتصل بها بنسب أو سبب ... ولكان هؤلاء الالوف من العمال والصناع المتعطلين عاطلين يزيدون الخطر الاجتماعي الذي يهدد البلاد

بل إننا لنزعم ان تأسيس هذه الشركات كان حقيقة — كما يقول الناس — عملاً صالحاً ، فقد كان لها جميعاً ابلغ الاثر في بث روح الادخار والتوفير في نفوس الشعب من حيث لا يشعرون

ودليل ذلك انهُ حيثما توجد منتجات شركة من شركات مصر بجانب منتجات مماثلة اخرى — تهبط الاسعار ويحل الرخاء ، ولسنا نزكي منتجات شركاتنا بشيء من الدعاية والترويج ، اذ يغنينا عن ذلك كله ما حازته معروضات شركات مصر من الميداليات الرفيعة الشأن في المعارض العامة ، سواء داخل القطر او في البلاد الاوربية ، اعجاباً واستحساناً وتقديراً

***

وبعد ، فبنك مصر وشركات مصر ليست الاّ معاهد للتربية الاستقلالية يكمل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل ، والادارة عليه ، حتى لقد تكونت منهم طائفة صالحة يمكن ان تعد ذخيرة للوطن

ومن نافلة القول ان نذكر مقدار ما ساهمت به هذه المعاهد في قص اجنحة العطلة ، على قدر المستطاع ، وافتداء البلاد من شرورها الوبيلة

---

[1] المقتطف : تحية مع تقدم البلاد الاقتصادي سوف يعني المقتطف بوصف هذه الشركات من الناحيتين الصناعية والاقتصادية في اعداد متوالية ، وقد اجتزأنا من خطبة طلعت باشا ما تقدم عن شركات بنك مصر مع انه وقف نحو ثلث خطبته النفيسة عليها

ويسرنا كثيراً أن ننوه في هذا الصدد بما قام به بعض المصريين الذين اقتحموا الميدان، وثبتوا فيه، وزعموا لحملي البنك وشركاته، فأسسوا مصانع وبيوتات تجارية وشركات تغتبط بها كما لو كنا نحن انفسنا الذين اسسناها، ونرجو لها دوام المزيد والثبات والتقدم والنجاح...

وكل يوم نرى جديداً في نهضتنا الصناعية والتجارية التي دب دبيبها في نواحي البلاد واصبح الكل مهتمًّا بالمساهمة فيها. ومما يدعو للفخار ان في البلد الآن روحاً قوميًا لتشجيع كل ما هو مصري حتى انقلب الحال واصبح بعض من لاخلاق لهم يحتمي بالمصرية لبيع سلعه الاجنبية باعتبار انها مصرية. وقد اهتمت مصلحة التجارة والصناعة بصالح التجار فاعادت تنظيم الغرف التجارية وانشأت « السجل التجاري » لفائدة التجار وتمييز انواع تجاراتهم وليكون مرجعاً محترماً يمكن الرجوع اليه بين البيوتات التجارية. ونحن نرجو من ورائه ان يكثر في مصر « التاجر » الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الاعتبار والشرف. بل هناك اهتمام آخر بالحياة الاقتصادية فان مصلحة التجارة والصناعة التي كانت في اوائل الحرب لجنة صغيرة اوشكت ان ترتقي الى وزارة وتنتظم في عقد الوزارات المصرية

تأثيره في الحياة الاجتماعية

نعيد هنا ما سبق ان قلناه وهو ان البنك لا يريد ان يحتكر القيام بالمشروعات الصناعية او غيرها ويود دائماً ان يظهر بجانبه مصريون يخففون عنه الحمل. ويضطلعون مثله بالمسؤولية وهو على استعداد لان يمد لهم يد المساعدة بكل ما يستطيع ويكفي البنك فخراً انهُ فتح الطريق لكل من يريد ان يسير فيه من المصريين

كما يكفي البنك فخراً ان وجوده بين منعم المصريين وبصرهم: ساعد على تغيير بعض الافكار السائدة فمثلاً بعد ان كانت الجمهرة من ابناء البلاد يستغلون اموالهم في ناحية واحدة من نواحي الاستغلال وهي شراء الاطيان أو يودعون عفواً اموالهم في بنوك اجنبية تذهب ارباحها في جيوب الاجانب التفت الكثيرون الى ناحية اخرى فاستغلوا بعض اموالهم في مرافق بلادهم وساهموا في السندات التي رفعت من رؤوسهم واصبحوا يتيهون بها ويفخرون. بل ومنهم الكثيرون ألفوا اقتناء سندات الدين المصري العام واوراق الشركات الاجنبية. ووجدوا في ذلك مصدراً جديداً للايراد والثروة. وزادت هذه الحركة نشاطاً بدخول المجالس الحسبية في هذا المضمار تثمر اموال عديمي الاهلية بشراء القراطيس المالية المختلفة وخاصة سندات الدين المصري العام

ولا يفوتنا في هذا المقام ان ننوه هنا بملاحظة جديرة بالذكر: وهي انهُ لو كان المصريون افراداً وجماعات تنبهوا فيما مضى الى حصر سندات الدين المصري كلها او معظمها بين أيديهم لكنا الآن محكومة وشعباً في غنى عن مشاكل كثيرة ...!

ونعود فنذكر لكم أن خزائن حفظ الأوراق المالية بالبنك ، تضم في جدرانها من قراطيس الدين العام وأوراق الشركات والبنوك الاخرى سواء لحسابه أو لحساب عملائه من الافراد والهيئات ما يقدر بعشرات الملايين من الجنيهات . وفي هذا دليل على التقدم والتطور وليس ذلك فحسب ولكن هناك أثراً لا يخفى لبنك مصر وشركات مصر فان كثيراً من الناس قبل انشاء بنك مصر لم يكونوا ليعرفوا طريق البنوك ولا التعامل معها بل كانت حدود التعامل بعضهم مع بعض حدوداً ضيقة لا تسمح للثقة ان تقوم بدورها المهم فكان وجود بنك مصر وشركات مصر كافياً لاجتذاب كثير من عملاء البنوك الاخرى اليه وكافياً ايضاً لتشجيع غيرهم على الخروج إلى معاملة البنوك

وفي يقيننا أنهُ كلما كثر عدد الطبقة التي تعامل البنوك وانتشرت هذه العادة عادة التعامل مع البنوك بين العامة والخاصة انتشرت الثقة بين الافراد وقام على الثقة ما يقوم عليها من تنظيم سبل الانتاج في كل نواحي الحياة . بل ان لبنك مصر وشركات مصر أثراً آخر . فقد دعا الناس مجرد وجود هذه المؤسسات وانتشارها في انحاء القطر الى ان ينظروا الى العمل الشريف غير النظرة التي كانوا قد تعودوا ان ينظروا بها اليه من قبل . وهي نظرة الترفع والاشمئزاز ولا سيما اذا كان العمل يدوياً او آلياً غير انيق كل الاناقة او جذاب كل الجاذبية . ولكن هذا الاعتبار العتيق وذاك المقياس المريض بدأ استبدالها والحمد لله بنظر صحيح هو نظر الرجولة الى كل عمل شريف منتج نافع

وليس بعيداً ان تعم هذه العقلية الجديدة وان تغمر كل شيء . كما انه ليس بعيداً ان يتأثر بها جانب حيوي كبير من الخلق المصري فنرى كثيراً من شبابنا المتعلم تعليماً فنياً او عالياً يتقدم الى العمل الآلي في المصانع المصرية التي ستنتشر وفقاً لحاجات البلاد فينزع عن نفسه راضياً لباسه الانيق وزينته من الحلى ويستبدلها عن طيب خاطر برداء العمل والعمال

***

ان التطور الذي ستقبل عليه البلاد لا شك فيه وسيكون لنا من ورائه ان شاء الله رصيد من الاخلاق القويمة والخير الكثير والانتاج الكبير

ونريد ان نشير هنا بوجه خاص الى ما كان من الاثر الفعلي في تعويد عامة المصريين خصلة الاقتصاد في الانفاق تلك الخصلة التي يعتبر تقصها ثغرة فسيحة من ثغرات التربية المصرية عامة

ومهما يكن من شيء فان كل قرش يدخل في ارباح بنك مصر او شركات مصر انما يبقى في البلد لا يتزحزح الى الخارج فاذا تحرك ثانية فحركته بركة للمصريين وفائدة للمصريين

فضلا عن ان هذه المؤسسات تعتقد فوق خصائصها المادية والكسبية انها مؤسسات وطنية لا يغرب عن بالها لحظة ان عليها نصيباً في الاصلاح القومي المنشود

بنك مصر والاجانب

كان هم بنك مصر اولاً واخيراً ان يكون رأس ماله خالصاً للمصريين وحدهم لكي تكون ادارته مصرية دائماً توجه سياسته لما فيه مصلحة مصر اولاً وقبل كل شيء

وفيما عدا ذلك فان بابه ظل مفتوحاً للجميع فهو يخدم المصري والاجنبي سواء بسواء

والبنك كما جاء في خطبة افتتاحه سنة ١٩٢٠ انهُ لا يضمر عداءً لاحد فهو بعيد كل البعد عن فكرة الانانية والتعصب . بل هو استعان في الواقع بخبرة الاجنبي . واشرك معه بعض الاجانب الذين يتفقون مبدأً وغاية مع مصلحة مصر ، في بعض شركاته كشركة مصر للطيران . وشركة مصر لعموم التأمينات . وشركة مصر للسياحة . وشركة مصر لاصدار الاقطان . وليس هناك عيب ، فيما نعتقد ، في الاستعانة بالاختصاصيين من الاجانب ما دام في الامكان ، دائماً وفي كل وقت ، جعل هذه الاستعانة عند حدودها من الخبرة والارشاد والخدمة الصادقة لمصر اولاً واخيراً

ونحن نذكر بالفخر ان علاقاتنا مع البنوك الاخرى ومع الاجانب كانت في الداخل والخارج على ما يرام . كما كانت كذلك علاقاتنا مع مراسلينا في جميع انحاء المعمورة وكان ذلك سبباً في تشجيعنا على انشاء ما يعزز هذه العلاقات ويزيدها وثوقاً ومتانة فاشتركنا في تأسيس بنك مصر — فرنسا في باريس وبنك مصر — سوريا — لبنان في بيروت ودمشق وطرابلس وحمص

ولا يخفى ان فروعنا سواء كانت في مصر او فيما وراء البحار ، انما هي كالسفير بين المصري واخيه المصري وبين المصري وغيره . وما السفير الا رسالة طيبة ودعاية حسنة لو عرف كيف يؤدي عمل السفير . وبنك مصر نفسه اصبح والحمد لله رسالة يقرأ فيها الناس معنى الصدق والحق والثقة . حتى انه لا تؤلف لجنة ، او هيئة ، او مجلس في الحكومة وغيرها الا دعي اليها احد رجال مجلس ادارة البنك . وحتى انه لا يفكر اجنبي أو مصري في مشروع مالي أو اقتصادي بمصر الا خطر له ضرورة الاحاطة برأي بنك مصر فيه ، ثم لا يلبث ان يبادر توًّا الى عرضه عليه

البنك واللغة العربية

هذا اول بنك قومي مصري تأسس بأموال مصرية بحتة . وبادارة مصرية محضة . وقد قررنا ان تكون المراسلات فيه ، بينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته باللغة العربية فهزأ بنا الهازئون وقالوا «ان المحاسبة من واردات الغرب . وانها فنٌّ من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب» . ولكننا اهملنا استهزاءهم وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا تقاريرنا باللغة العربية . وانا اؤكد انا ما وجدنا صعوبة في ترجمة معنى من معاني هذا الفن او في تقريب اصطلاح من اصطلاحاته . وكان مما ساعدنا على سهولة التطبيق في العمل ان كانت قد انشئت قبيل الحرب مدرستان للتجارة تكونت فيهما طائفة من الشبان تلقوا العلم فيها باللغة العربية فسهل قيادهم في حياة البنك العملية»[١]

(١) هذه الفقرة الاخيرة مقتطفة من خطبة سابقة لطالما نشرت في مجموعة خطبه التي صدرت سنة ١٩٢٨

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمد مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وسردت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية ترتيبيا في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه ومرطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر السَّنْط

معروف باسم (السَّنْط) في مصر والسودان أو (السَّنْط) قال الصاغاني هو معرّب (چند) بالهندية وقد يطلق عليه اسم (الشَّوْكة المصرية) و(امّ غيلان) و(القَرَظ) وعابته (القَرَض) والقرظ برمة[1] السنط أي ثمرته فاطلاق القرظ على الشجر تسمية الشيء ببعضه

وشجرته كبيرة اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ١٢ زوجاً من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ٣٠ زوجاً من وريقات أصغر غير ريشية وشوكها مستقيم قد يبلغ طول الواحدة منهُ ٥ سنتيمترات . أما أزهارها فمكتظة في رؤس كرية صفراء . وثمارها قرون ضاربة الى البياض عليها شعيرات قصيرة ملساء وكل قرن محزأ بأشباه فواصل تفصل الحبة من الحبة

اسمه العلمي (Acacia Arabica, Willd) (آقاسيا عرابيقا) وفصيلته السَّنْطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Gum Arabic Tree) وبالفرنسية (Acacia d'Arabie) ينبت في بلاد السنغال والسودان والديار المصرية والجنوب الغربي من آسيا ولاسيما في بلاد العرب والهند

يؤخذ منهُ الصمغ العربي فيتجر بهِ في السودان وغيره ويستعمل قرظه في الصباغة والدباغة وخشبه مرغوب فيه لصناعة الزوارق وادوات الزراعة ويصنع منهُ فحم جيد . وأهل السودان

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب الفلاحة لابن العوام ان الوصف انوارد من الثمرة والزهرة يذكران بما نقل عن ديسقوريدس فيما يختص بزهر السنط وثمره . والآقاسيا ويرا (acacia vera) وهي الاقانيا (akakia) في اليونانية كما جاء في كتاب ليتيوس وفي رأي شيرنجل وابن البيطار هي النبرم وهو زهر شجرة من نوع السنط

يستعملون الخشب في البناء ايضاً ويستخرجون اليافاً من قلف الشجرة الحديث ويستعملون القلف في الدباغة كما يستعملون مغليه في علاج مرض الديسنطاريا

ويقال إن حشرة اللك (lac-insect) تعيش على أغصان الشجر في السند وتفرز من جلدها صبغاً احمر يصبغ به يسمى (اللك) ويحمل من القرظ قبل نضجه على عصير يسمى (أقاقيا) [1] يستعمل في الصباغة والدباغة

***

شجر الصَّمْغ

نوع من السنط معروف في السودان مشهور بصمغه ويقال له (الصباحي) ايضاً وشجرته صغيرة او متوسطة الحجم . اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ٥ ازواج من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ١٥ زوجاً من وريقات اصغر من السابقة وشوكها قصير غليظ حاد السن احمر قاتم كل ثلاث منهُ مجتمعة معاً ثنتان مستقيمتان وواحدة منقوسة . أما أزهارها فبيضاء مجتمعة في سنابل اسطوانية متدلية . وثمارها قرون مستقيمة رقيقة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Verek, Guill. & Perr.) (آقاسيا ورك) ونصيلته السنطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Verek gum-arabic Tree) وبالفرنسية (Gommier blanc ou acacia à gomme arabique)

وهو ذائع في بلاد سنفسيا الى السودان وخشبه ابيض يحتمل المؤثرات ويحصل منهُ على اجود انواع الصمغ العربي الابيض فيتجر به ويدخل في المركبات الطبية والصناعية

***

شجرة البا أُوبَاب [2]

من اشجار الحبشة والجانب الغربي من افريقية ولاسيما بلاد السنغال والسودان ويسمونها فيه (التبلدي) او (الحُمَيرا) او (الحَمَر) [3] وهي شجرة يمكن للانسان معرفتها من ضخامتها لا ترتفع اكثر من ٢٠ متراً ولكن جذعها يبلغ من الغلظ اكبر ما عرف بين الاشجار الى الآن فقد يكون قطره من ٨ — ١٢ متراً ويتفرع من ثلثها السفلي فروع عديدة اغلبها افقيًّا لا رأسيًّا فتبدو الشجرة باغصانها كأنها قبة تشغل فضاء قد يكون عظيماً . وقلفها (قشرها) أبيض برَّاق . واوراقها من نوع الاوراق المتساقطة مسننة الحافات ووضعها على الاغصان متخالف

(١) جاء في بعض المراجع ان العرب اطلقوا كلمة (أقاقيا) على العصير المذكور وعلى الشجر نفسه

(٢) ادخلت الى مصر من السودان في القرن الماضي ثم اندثرت

(٣) الحمر بوزن قمر كما سمع وفي القاموس الحمر كصرد الخمر الهندي

والواحدة منها من ٥—٧ فصوص كالاصابع وأزهارها بيضاء كبيرة إبطية متدلية عرض الواحدة منها من ٥ — ٧ سنتيمترات . وثمرتها بيضية الشكل مستطيلة طولها من ٢٠ — ٢٥ سنتيمتراً تشبه كوز اللوف الجاف وبها تجاويف ممتلئة الياناً ولُبّاً كالدقيق المعجون مُرّ الطعم في داخله بزور كبزور التمر الهندي المعروف قيل إن النّسانس تحب اكل الثمرة فسماها البعض (خبز النّسانس) ويسميها عرب السودان (القُنْقلوس)

اسمها العلمي (Adansonia digitata, L.) (ادانسونيا ديجيتاتا) نسبة الى مكتشفها (ادانسون)[1] وفصيلتها ألبا أوبابية (Bombaceae) (بومباسية) وبالانجليزية (The Baobab Tree) وبالفرنسية (Baobab)

واهل السودان يستعملون جذعها كصهريج فيدخرون فيهِ الماء ويزودون منهُ قاصدي دارفور في اسفارهم وقد يستعملونهُ قبوراً لموتاهم ويصنعون من الياف القلف حبالاً وسلات ويتخذون من لب الثمر المُرّ شراباً مرطباً باضافة الماء اليهِ او غذاء

وفي بعض الكتب الطبية ان الاوراق والقلف يستعملان للتداوي من امراض متنوعة

وفي رأي (ادانسون) ان هذه الشجرة قد تعمر الى ستة آلاف سنة وهي مقدسة عند الزنوج

***

الخُرْشُوف [2]

معروف وفي الشام يسمى (أرْضي شوكي) ولعل هذه التسمية من الافرنجية (Artichaut) والعرب يسمونه (خَرْشف) وفارسيته (كنكر)

نبات عشبي معمر ولكنهُ يزرع سنوياً يرتفع متراً الى متر وربع وساقه شحمية مخططة طولاً تتفرع من اعلاها على هيئة حزمة واوراقه عريضة جداً طولها اكثر من متر ريشية خشنة بيضاء من وجهها السفلي . وفوراته كبيرة قد يزيد عرضها عن ٦ سنتيمترات تشتمل على أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية كثيرة ، وبزوره صنجابية عليها خطوط سوداء وتحتفظ بقوة النبت فيها من ٥—٦ سنين

اسمه العلمي (Cynara Scolymus, L.) (سينارا اسقوليموس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The Artichoke) وبالفرنسية (Artichaut) يزرع في جنوب اوربا وشمال افريقية وقد دخل الى مصر من بلاد اليونان في القرن الماضي

---

(١) هو (ميشيل ادانسون) (Michel Adanson) النباتي الفرنسي ولد في مدينة ايكس وعاش من (١٧٢٧—١٨٠٦) ميلادية وهو اول من حاول تقسيم النباتات تقسيماً طبيعياً

(٢) وجاء في كتاب الفلاحة لابن العوام ان من اسمائه (القنارية) و(الطرية) و(الكبر) وبالفارسية (كنكر) وان منه نوعين بستاني وهو المعروف في مصر بالخرشوف وبري يسمى (الخرشف) (Carduus silvestris alter) ومن رأيه تصرامس (كنكر) على النوع البستاني (قردون) (Cynara Cardonculus)

وجاء في عمدة الحتاج للرشيدي ان أصناف الخرشف كلها تسمى بالعربية (عبثر) وقيل هو اسم للبري فقط

والذي يؤكل منهُ رءوسه قبل ان تشيخ ولا سيما النخت والقلب وقواعد الحراشف وهو من الخضر الغذائية المحبوبة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثّرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن

***

القردون[1]

نوع من الخرشوف معتبر من النباتات المعمرة ولكنهُ يزرع سنويًّا ترتفع ساقه متراً ونصفاً الى مترين وهي ضاربة الى البياض مخططة طولاً واوراقه ريشية كبيرة ذات ذنيبات شحمية طرية خضراء ضاربة الى السنجابية من وجهها العلوي والى البياض من وجهها السفلي . ونورانه كبيرة طرفية مكونة من أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية . وبذوره طويلة متوسطة الحجم سنجابية اللون

اسمه العلمي (Cynara cardunculus, L.) (سينارا قاردونكولوس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قرمبوزيتية) وبالانجليزية (The cardoon) وبالفرنسية (Cardon)

يزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط الى جزائر كنارية او الخالدات في المحيط الاطلنطي ودخل مصر من جزيرة كريد في القرن الماضي . وتؤكل منه الذنيبات من الاوراق وجذوره الغضة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن كما في الخرشوف

***

الكرفس

معروف في مصر وفي بلاد العرب و (بالكرفج) في لغة اهل غزنة من بلاد التركستان ولقد قيل إنه دخيل معرّب

والكرفس نبات عشبي متفرع يعمر عامين ويرتفع الى ٦٠ سنتيمتراً املس وجذره لبني او درني مغزلي الشكل وساقه مجوفة عليها اخاديد في طول الساق . وأوراقه شحمية على نوع ما عريضة ريشية الشكل خضراء ضاربة الى السمرة ذات ذنيبات . ونورته صيوانية تشتمل على زهرات صغيرة صفراء مخضرة . وثماره (البذور) صغيرة ذات رائحة تحتفظ بقوة النبت فيها سنين

اسمه العلمي (Apium graveolens, L.) (آبيوم جرافيولنز) وفصيلته الصيوانية (Umbelliferae) (امبليفرية) وبالانجليزية (The celery) وبالفرنسية (Celeri) يزرع باوربا وشمال افريقية وشمال آسيا ووسطها وادخلت زراعته من اوربا الى مصر في القرن الماضي . والذي يؤكل منه اعناق (ذنيبات) الاوراق والقلوب . وقد تستعمل بزوره من قبيل التوابل وهي معروفة في العطارة

(١) وهذا يطابق ما جاء في بعض المراجع التركية من انه (الخرشوف الياباني) والقردون يسمى عند العرب (الكوب) كما جاء في عمدة المختار الرشيدي

تاريخ العالم

الثورة

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني

تأليف جورج الخامس

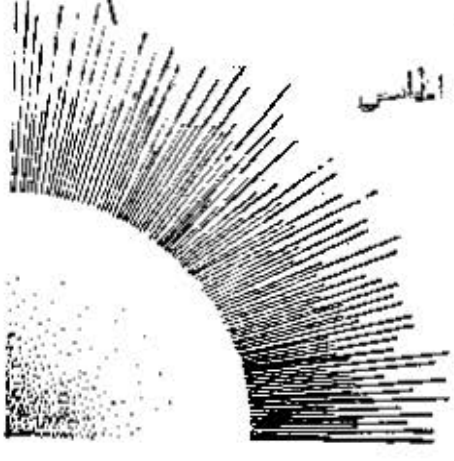

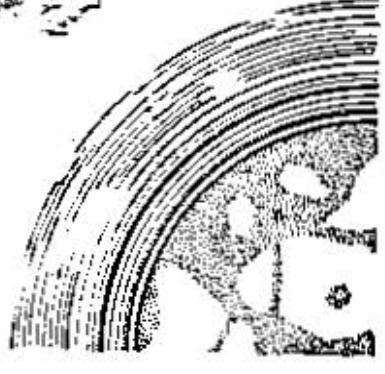

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ٣ —

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التتبع التاريخي ان الثائر نوعان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنهُ من العمل النافذ فيها ، وثائر تلطخ بالمعايب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمع ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبهُ حقاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثر وب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمى النوع الاول من الثوار «الرجل الاعلى» وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى بهِ من الخصائص ولكنهُ ويا للاسف مضلَّل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى» وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعته الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتهُ في الصدر منها الاَّ انهُ انضمَّ الى اعدائها ، ويلوح القارىء ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليها لانها ارفع منهُ كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منها ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمها البطيء وغشيته الرعشة من اخطائها المتكررة ، ومتى ما رعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تجيش في صدره فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتنضمُّ الى القوى الاجتماعية الثائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهرياً وان ها اتفقتا في النتائج بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في ملق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتباره زعيماً لا يلبث أن يصل بهِ فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عند ما يتولاه الذعر من رؤية التوحش طارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنهُ عبثاً يحاول ، فيصول عليه الرجل الادنى مزمجراً من بعد ما اتخذه درعاً يحتمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى

ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي يا ترى ؟ فقد يكون هذا الجديد أحط من القديم . ولا شك انها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدامة نفسها تنطوي على بعض الترياق المساوي، القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوّم بالدم الغالي الذي يُسفك في الثورة وبالتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرهبة مثل الثورة ، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها

وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الادنى نجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدنين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يلقيه على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائماً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصيبت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتكون المدنية قد اصيبت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أحط مما كانت عليه بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات مما ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصة ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي وانقاذ البلاد من ربقة الاستعمار نوع آخر . واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايثار عقيدته يجرؤ على الحط من قدر تلك الجهود الجبارة التي يقوم بها المظلومون للخلاص من ظالميهم ، واذا صح قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا يا ترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان اعجابنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لا يمنعاننا أن نعترف هنا ببعض عيوب الثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بأم العين وهي تحتاج الى الايضاح .. فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبذل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيء من ميزات « الرجل الاعلى » الا الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيع العامي في تصوراته المتبذل في حركاته وسكناته ، الذي لا يكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جمجمته مرض الخُنَّزُوانية أو (المجالومانيا) ويُقرح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم أن يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين وعلماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه

خشية سفهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبل على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يدنس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقري الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل »(١)

اننا نعترف ان هذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الدخلاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعاً اذا كانت هذه السفع لا تحول دون بثها حرارتها الحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفتريا مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستهترين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مبالين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتحفظون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن سماداً لاراضيهم ومن دمائهم ريّا لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الا قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واخماد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرام نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتشددين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادى الى ظهور حزب « الجيروندين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولاً ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كافٍ وحده لتخويل اشرس الزعماء

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson)

الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمت مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضف الى شراسة هؤلاء الزعماء الحافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ابّان الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الآفاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الأثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاء الدهماء ينقلبون على تانئي بوق الاضطراب ومسبي الاهوال فتثبت الرجعى وينشط رد الفعل من عقاله ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتهب ريحهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت البابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و(دي ڤاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبهُ مذهبهم ويؤدي اليهِ انقلابهم امثال (لنين) و (تروتسكي) فدساس الظالمين المستكبرين وخزعبلات القياصرة والسلاطين وشعوذات الدجالين لا تغني فتيلاً

الثورة والتطور العضوي

متى حاول الكتّاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (دارون) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة التغير البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج اقليمي بتغيير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتم هذا التغيير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعية البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغيير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال . ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً

بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دلّ على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً بيّناً ، ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيه فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجيء بالعبارة الاجتماعية السياسية الآتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلته فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانيًّا تنطبق عليه قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيه ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتدّون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتدّون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحتفظ بالتغير الطارىء وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكمال اتاتورك وعصمت ان يزوّدوا علم السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها اعداء الثورة والقائلون بعدمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء الكثير مما سفك الثوار دماءهم للخلاص منه والقضاء عليه ، ولكن فاتهم ان المبادىء التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المنصرف في اموالهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ كاهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعر من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات العظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وآجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجماعات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد

ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن الحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغنى الناس عنها .

ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجاهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خبير يبدو على ألسنة نوابها المنتخبين انتخاباً حرًّا وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بجرة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكتزف الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استعانوا بالتقاليد العتيقة المحرمة والعقائد التي من شأنها اماتة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فربما كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه بحراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تفنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان قصور كسرى وقيصر لم تدكّ فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض العثمانات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطرأ نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوبية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحقد على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الآن انها تجربة في مختبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحمق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها

وقد قيل لنا ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استتباب السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من الوراء وان التتبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقى من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولائقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها ، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثر بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبط بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصيّر الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشناء من اهل التهذيب ولا من تحر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغيير الذي

يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق

اننا لا ننكر ابداً ان في هذا الاعتراض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على الاعصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بأنواعها اصبحت الآن من السهولة والتمكن والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا الكمائم في الافواه ليحولوا دون الصياح بالحق ، ولا شك ابداً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلا هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية الحال مدة وجيزة من الزمن اخرى فسيتعود الجيل القديم بهذه السرعة الخاطفة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً ، وأما الجيل الجديد فيعد هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود ، وهكذا ينتقل النزك في سنوات معدودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالاً اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

***

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توماس جفرسون) يجب ان تلتعش من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي ؛ ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد وأضر بمصالح المجتمع وأشد خطراً على الحضارة للتقلقل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المخوفة بالممالك

وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لا تستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكمم فمه عن الافصاح عما يجول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تغله وتغل قومه وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدى الحفلات فيقول : « ارتفعي يا بنادق ، وفعقعي يا حراب ، وفرقعي يا قنابل ، واخرجي يا سباب البحر ايتها الاساطيل العاتية واملأي كبد السماء ايتها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعاف النفوس من ابنائك ، اما نحن فكما قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية[1] سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونتربع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتعش الحرية وليحيى الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

(١) German Ecstasy of Song

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني[1]

[على ذكرى الاحتفال بعيده الفضي]

في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي احتفلت الامبراطورية البريطانية بانقضاء ربع قرن على اعتلاء الملك جورج الخامس اريكة الملك. وقد خلف الملك جورج والده الملك ادوارد السابع عند وفاته في ٦ مايو سنة ١٩١٠ وكانت جدته الملكة فكتوريا من قبلهما قد ارتقت العرش سنة ١٨٣٧ فبين ارتقائها العرش والاحتفال بانقضاء ربع قرن على ملك حفيدها قرن من الزمان تقريباً.

***

في خلال هذا القرن انثالت طائفة من اعظم عروش العالم واقدمها ، وحلت الحكومات الجمهورية محل الحكومات الملكية في فرنسا واسبانيا والبرتغال، والحكومات الدكتاتورية في امبراطوريتين عظيمتين هما المانيا وروسيا ، وتفرقت البلدان التي كان يجمعها صولجان آل هبسبرج بعضها عن بعض . ولكن العرش البريطاني اصبح في هذا القرن نفسه اشد رسوخاً مما كان . فالمؤرخ يرى التاج البريطاني ، في سنة ١٩٣٠ ارسى منه في سنة ١٨٣٠ او سنة ١٨٧٥ عندما كان بعض الانكليز وفي مقدمتهم جوزف تشمبرلين — والد السر اوستن تشمبرلين والمستر نفيل تشمبرلين وزير مالية بريطانيا الآن — يُسمّرون جهاراً باسم الجمهوريين . بل ان المرء كان له ان يتساءل في القرن التاسع عشر ، هل يتاح لابن الملكة فكتوريا ان يرتقي العرش ، ولكن فلما نجد الآن احداً من الانكليز يرتاب في ان ابناء الملك جورج الخامس صوف يتمتعون بتراثهم الملكي

فالولاء الملكية في انكلترا ليس مسألة حزبية . والعمال هناك يشاطرون المحافظين هذا الولاء . ويروى ان المستر مكدونلد دعي في سنة ١٩٢٨ الى باريس ليخطب في جماعة من النواب الفرنسيين اكثرهم من الاشتراكيين ، في سياسة حزب العمال ، وكانت وطأة المرض مشتدة على الملك جورج حينئذ ، فلما نهض المستر مكدونلد للمحاضرة قال : « ايها السادة قبل ان ابدأ في معالجة موضوعي ارى من الخير ان نتريث قليلاً ضارعين الى الله لحين بالشفاء على ملكنا ، الذي يصارع الموت الآن »

---

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اندريه موروى صاحب المؤلفات النفيسة في شلي وديزرائيلي وبيرون وذكرى

فدهش كثير من الحاضرين ولو انهم كانوا يتهمون الامة الانكليزية لما دهشوا . فالحب للاسرة المالكة هناك اقوى واعم بين جمهور الامة منهُ بين الاهلين [1]

وقد تخيَّل برنارد شو في احدى رواياته التمثيلية ، بريطانيا وقد انقلبت شيوعية ولكنها مع ذلك ظلت محتفظة بملكها وكان ملكها من احب الناس الى الامة . وهو تخيُّل قد لا يكون مستحيلاً

فيجدر بنا ان نبحث عن الصفات الخاصة التي اتصفت بها الملكية البريطانية والحوادث المؤاتية التي مكَّنت العرش ووطدت مقامهُ في بريطانيا . ما مقام الملك في نظام الحكم البريطاني ؟ واية خدمات يؤديها ؟ وعلينا ان نجيب عن هذين السؤالين قبل ان نجمل حكم الملك جورج الخامس

ان الحكم الملكي الدستوري ، كمعظم المنشآت البشرية ، لم يجيء نتيجة لتفكير الناس الواعي. فالملك جورج الاول الذي دعي الى العرش من هانوفر كان لا يتكلم الانكليزية فتخلى عن رآسة مجلس الوزراء في القرن الثامن عشر . وكذلك انفصلت السلطة التنفيذية في البلاد الى جانبين ، من دون اي نضال او نزاع . ولما كانت الملكة فكتوريا امرأة ، اصبح الولاء للعرش نوعاً من الشعور الرومانطيقي . ولما كان زوجها البرنس البرت متصفاً بجميع الفضائل العائلية ، اصبحت الاسرة المالكة في نظر شعب متدين ، موضوعَ حبٍ مقرون بالحنان . وقد توالى على العرش البريطاني ثلاثة ملوك — فكتوريا وادورد السابع وجورج الخامس — اشتهروا بالحكمة والاعتدال والقدرة على التجرُّد عن النزعات الحزبية ، فأصبح للملك عمل مفيد لا يستغنى عنهُ . ولو كان في انكلترا في القرن التاسع عشر ملك حاول ان يحكم حكماً مطلقاً لتحوَّلت انكلترا الى جمهورية . ولكن أسرة كوبرج المالكة ، ادركت في بريطانيا والبلجيك ، ادراكاً تاماً سرَّ النظام الملكي الدستوري

فما هو هذا النظام ؟ وما القواعد التي يقوم عليها ؟ القاعدة الاساسية هي ان يكون الملك دائماً حكماً محايداً . والقاعدة الثانية ، ان يستلم الملك بالمقترحات التي يعرضها وزراؤه . وفي ذلك يقول بايجهوت : عليهِ أن يوقع الامر باعدامهِ اذا قدَّم اليهِ بعد موافقة المجلسين عليهِ » . وقد كتب المستر اسكويث في مذكرة مشهورة .. « على التاج ان يعمل وفقاً لمشورة وزرائهِ الذين يعملون في وقت تقديم المشورة ثقة مجلس النواب وسواء كانت هذه المشورة تتفق مع رأي الملك أو لا تتفق . ان الوزراء يعترفون باحترام عميق الى نقد الملك واعتراضه ويخضعونهما بعناية عظيمة ، ولكن القرار الاخير يجب ان يبقى لمجلس الوزراء . لان مجلس الوزراء لا التاج ، مسؤول امام البرلمان . وبتطبيق هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يستطاع ان يحفظ التاج فوق شدائد المعارك السياسية »

---

(١) المنتخب : تراءى من ايام ان انكلترا من زمان الاهمال كان يستأجر كل صباح سيارة توصله الى مقر عمله في ذات يوم اذ كانت وطأة المرض شديدة على الملك قال الرجل لسائق السيارة عرج بنا على قصر بكنغهام لاني اريد ان اقرأ النشرة الطبية الاخيرة ففعل ولما وصل الرجل الى مقر عمله كانت قيمة اجرة السيارة قد بلغت اربعة شلنات وهي عادة ثلاثة فقال السائق « ثلاثة شلنات يا سيدي فقط » فقال الرجل « لقد كنا عرجنا عن طريقنا العادي ويجب ان اوفي الفرق » فقال السائق بلهجة التزجية « أليس هو ملكي كما هو ملكك »

يقابل ذلك انهُ لا يغتفر لوزير ما ان يزجَّ اسم الملك في احدى هذه المعارك . وليس عليهِ فقط أن يمتنع عن التصريح بما قاله الملك حرفيًّا ، وعدم اقحام اسم الملك في الشؤون الحزبية ، بل الواجب على رئيس الوزراء ان يتحمل كل المسؤولية الخاصة بأعمال وزارته ، وان لا يحاول الاحتماء بالعرش

فما هي أعمال الملك؟ يقول بايجهو انهُ يحتفظ بثلاثة حقوق: أن يشاوَر. وان يشجِّع وان يحذِّر. فلا يمكن أن يعمَل شيء في المملكة من دون اطلاع الملك عليهِ ، وملوك انجلترا قد طلبوا — وكانوا على حق في ذلك — بأن يحتفظوا بهذا الحق كاملاً غير منقوص . وبفضل الحقائق التي يطلعهُ عليها وزراؤه، مضافاً اليها الآراء التي يكوِّنها بالاصغاء الى زعماء المعارضة من دون أن يطلب مشورتهم ، يستطيع الملك في الازمات الخطيرة ان يحكم حكماً متزِّهاً بصفتهِ مشاهداً محايداً. ولكنهُ لا يستطيع ان يحول دون شيء تقترحهُ الوزارة ويقرّه البرلمان . فقد يقول الملك لرئيس وزرائهِ ، انك مقبل على خطة خطيرة. واني لاذكر سابقة من هذا القبيل تعيث على الامم . لاريب في انك أنت المسؤول، واذا اصررت على هذه الخطة كان عليَّ ان اوقع . ولكنني احذّرك . فانك ترتكب هفوة

هذه الآراء يتقبلها رئيس الوزراء باحترام عظيم من مليكٍ لما لهُ من المكانة والهيبة ولانهُ يكسب بفضل استمراره في منصبهِ ، خبرة أوسع نطاقاً من خبرة أي وزير من وزرائهِ . وقد ضرب السر موريس المورس مثلاً لتفسير عمل الملك هذا بشركة مساهمة فقال : لنفرض ان الامة شركة مساهمة وان مجلس الادارة المهيمن على شؤونها هو البرلمان . فالملك كان أصلاً صاحب الشركة فتنازل عن ملكهِ واصبح لاحقَّ لهُ في الاقتراع ولكنهُ مع ذلك لا يزال أعلى المستشارين مقاماً . فكل شيء يعمل باسمه

وهنا يبادر الى الذهن السؤال التالي : ما الفائدة من الاحتفاظ بصاحب الشركة الاصلي في مقامهِ الجديد. الفائدة منوّعة لا ريب فيها. فنجاح النظام الملكي الدستوري في بريطانيا والبلجيك قائم على اربع حقائق :

اولاً — أن الجماهير تفضل ان تمنح ولاءها لشخص معين دون نظام عام — فالبرلمان يتناول في الغالب الآراء المجرّدة التي لا يدركها الجمهور . ان النزعة الاميركية الجديدة في الحكم المعروفة باسم « النوزيمة الجديدة » تتمثل للاميركيّ في شخص الرئيس روزفلت ، والفاشستية في شخص موسوليني . وهذا الميل لا يختلف في الشعوب البدائية عنهُ في جماهير الامم المتحضرة . فقد كنت في خلال الحرب ضابط اتصال بين الجيش الانكليزي والفرنسي وكان الزعماء الافريقيون في بعض فرق الجيش البريطاني يرفضون أن يجددوا عقودهم الاّ في حضرة الملك . فكان قواد الجيش البريطاني ينتهزون فرصة زيارة الملك جورج للميدان الغربي ويأتون بهؤلاء الزعماء اليهِ

ثانياً — ان الشعب يتتبع بعناية عظيمة اعمال الاسرة المالكة . ومن شأن هذه العناية في بعض الاحيان تقريب حياة الاسرة المالكة الى حياة الشعب الخاصة . فاذا تزوج أحد الامراء ، كانت الخطة عيداً قوميًّا ، واذا كان الزواج قائماً على الحبّ ، كزواج دوق يورك وزواج دوق كنت ، وكانت العروس جميلة ، استولى على الجماهير نوع من الخبل النفسي

ثالثاً — ان التقاليد التي ترعاها الاسرة المالكة ، وقيود وراثة العرش التي تتقيد بها ، من شأنها ان تسمو بنفوس اعضائها فوق الشهوات الدنيئة كالغيرة والحسد وحب الاذى

رابعاً — اذا عرف اعضاء الاسرة المالكة ان ينهضوا بواجبهم نحو الأمة اصبحت الاسرة مرجعاً لحياة الامة الاجتماعية والادبية . فهي تحافظ على التقاليد المحترمة وتعد أي انقلاب مفاجيء في آداب السلوك . وقد أدّت الاسرة البريطانية المالكة هذه الناحية من عملها على أتم وجه وأوفاه

***

هذا هو عمل الملك الدستوري بوجه عام . ولكن الملك في انكلترا مضطر أحياناً وفي احوال معينة ، ان يشترك اشتراكاً فعالاً في شؤون الدولة

فالقاعدة ان الملك يختار رئيس وزرائه . ولكن اذا كانت اكثرية مجلس النواب تابعة لحزب واحد فزعيم ذلك الحزب يصبح بطبيعة الحال رئيساً لمجلس الوزراء . وليس للملك ان يتجاهله . وقد حاولت الملكة فكتوريا — وكانت لا تميل كثيراً للغلادستون — ان تفضل بعض اتباعه عليه ، فذهبت محاولتها ادراج الرياح ، لان مفاتحها لهم في هذا الموضوع كانت تفضي الى التماس العذر . وكان غلادستون في كل محاولة من هذا القبيل يطلب في النهاية لتأليف الوزارة . فاذا انقسم حزب كبير الى فريقين واصبح زعيم الحزب لا يملك ولاء جميع أعضائه ، فيستطيع الملك ان يرشد زعماء الفريقين الى الطريق الصواب من دون ان يفرض مشيئته عليهم . وهذا ما وقع في سنة ١٩٢٣ لما اضطر المستر بونارلو ان يستقيل من رآسة الوزارة لمرضه . فقد كان اللورد كرزون مقتنعاً أن رئيس الوزارة لا يمكن أن يكون احداً غيره . ولكن المستر بلفور وغيره من زعماء المحافظين بينوا للملك أن طبع اللورد كرزون لا يتلاءم ومقتضيات المنصب وكانت النتيجة ان استدعي المستر بولدوين الى قصر بكنهام فقطع الملك العقدة بسيفه

والقاعدة كذلك ان الملك له حق حلّ مجلس النواب . ولكنه في الواقع لا يستطيع ان يحلّ مجلس النواب من دون ان يشير بذلك رئيس وزرائه . الاّ إنهُ قد تجيء احوال تسمح فيها مسألة حل المجلس مشكلة معقدة . فاذا كان في المجلس ثلاثة احزاب بدلاً من حزبين ، فقد يتفق ان يكون حزب رئيس الوزراء — كحزب مكدونالد الآن — اقلية في المجلس . وقد يشير رئيس الوزراء بحل المجلس في وقت يكون فيه السبيل قد تمهد لائتلاف الحزبين الباقيين والنهوض بشؤون الحكم من دون انتخاب جديد . في هذه الحال تكون كلمة الملك المرجع الاخير

والملك وحده الحق في اصباغ القاب الشرف على العوام . وهذا الحق على ضيق نطاقه ، يمكنه من ان يقترح اسماء او ان يرفض اسماء اخرى مقترحة لهذه الالقاب . ولكن الفائدة الكبرى من هذا الحق هي ان الحكومة تستطيع ان ترجع الى الملك في ممارسته عند ما يرفض مجلس اللوردات الموافقة على مشروعات اقرها مجلس النواب . فقد حدث مرة ان مجلس اللوردات رفض

ان يقر الميزانية فاضطرت الحكومة القائمة ان تهدد مجلس اللوردات بتعيين لوردات جدد يكفي عددهم لمنح الحكومة أكثرية في ذلك المجلس . ولكن رئيس الوزراء لا يستطيع ان ينفذ تهديداً من هذا القبيل الا اذا وافق الملك عليه . وهذه المشكلة توقف الملك احياناً موقفاً حرجاً ، لانه من ناحية ، رئيس احيان قومه بطبيعة مقامه ، ومن ناحية اخرى يرغب في ان يتصرف تصرفاً دستورياً لا غبار عليه . وسوف نرى في صفحة تالية كيف تصرف الملك جورج الخامس عندما واجهته حالة من هذا القبيل

ثم ان للملك ، اذا اقتضت الحال ، حقاً مبهماً الآن لقلة الاستناد اليه ، ولكنه فعّال في الملمات وهو ان يكون وسيطاً بين الاحزاب السياسية ، اذا بلغ النزاع بينهما مبلغاً من الحدة والعنف يهدد سلامة الدولة . فالملك ادورد السابع ، لم يحجم عن دعوة المستر اسكوث رئيس وزرائه ، والمستر بلفور ولورد لنسدون زعيمي المعارضة ، الى قصر بلمورال لتخفيف صورة النزاع عند ما اشتد بين مجلسي النواب واللوردات

وكذلك نرى ان عمل الملك معقد وذو شأن خطير في آن واحد . فهو رئيس للدولة لا سلطة واسعة له كسلطة رئيس الجمهورية الاميركية الذي يجمع بين رآسة الدولة ورآسة السلطة التنفيذية — اي بين عمل الملك وبين عمل رئيس الوزراء — ولكن سلطة ملك انكلترا اوسع نطاقاً من سلطة رئيس الجمهورية الفرنسية . فهذا لا يستطيع ان يحل البرلمان الا بعد موافقة مجلس الشيوخ . ومجلس الشيوخ اذا عارض في امر افرد النواب فليس لرئيس فرنسا ان يعين شيوخاً تتغلب بهم الحكومة القائمة على معارضة المجلس لها

فاذا اضفت الى سلطة الملك الدستورية هيبته التي تأذن له في التوسط في بعض شؤون السياسة الخارجية وأمور الجيش ، ادركت ان للملك الدستوري في بريطانيا شأناً كبيراً في تسيير دفة الحكم

فلننظر الآن في حكم الملك جورج الخامس ، محاولين ان نبين كيف مارس الملك هذه الحقوق وكيف نهض بهذه الاعمال في خلال ربع القرن المنصرم

***

كان جورج الخامس الابن الثاني للملك ادورد السابع . فلما توفي شقيقه الاكبر ، دوق اوف كلارنس اصبح ولياً للعهد . وكان قد تلقى العلوم التي تعدّه للانتظام في السلك البحري ، وقضى معظم حياته قبل وفاة شقيقه بعيداً عن البلاط وقد قلد في فترة ما قيادة سفينة طوربيد ثم قيادة طراد . فلما توفي والده وذهب المستر اسكوث (وكان رئيس الوزراء حينئذٍ) لمقابلته تركت هذه المقابلة اثراً عظيماً في نفسه لما شاهده في الملك الجديد من الحنكة والرأي السليم . ولكن جورج الخامس ورث من عهد والده مشكلة معقدة . ففي ميدان السياسة الخارجية ، كانت المنافسة بين انكلترا والمانيا قائمة على قدم وساق . الآن الملك جورج الخامس لم ينظر الى القيصر على انه عدوٌ شخصي

كما كان يفعل والده ، وتملك كبر الامل بعد اعتلاء الملك جورج العرش ، بان يسوّى هذا النزاع العائلي على احسن وجهٍ . ولكن هذا الامل لم يلبث قليلا حتى تبدد . وأما في سياسة البلاد الداخلية ، فكان النزاع بين مجلسي اللوردات والنواب ، قد بلغ اشده . فحزب الاحرار القابض على زمام الاحكام من سنة ١٩٠٦ كان قد تبع خطة ترمي الى غرضين هما ، فرض قبول الميزانية التي اعدها لويد جورج وتعديل الدستور حتى يجرد مجلس اللوردات من قوة النقض لقرارات مجلس النواب . فبعد نزاع وانتخاب عام وافق مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج . ولم تكن ثمة وسيلة للتغلب عليه فيما يختص بالغرض الثاني ، الا بتهديده بتعيين ٣٠٠ لورد جديد . وكان الملك ادورد السابع قد وعد المستر اسكوث ، انه يوافق على ذلك ، اذا اقتضى الامر ، بعد انتخاب عام آخر لتبين اتجاه الرأي العام

***

فوفاة الملك ادورد ، والمسألة لا تزال معلّقة ، وضعت المستر اسكوث في مأزقٍ ، لا سبيل الى الخروج منهُ الا بلباقة والكياسة . فرأى اولاً انهُ لا يليق ان يطلب الى الملك ان يتخذ قراراً حاسماً في موضوع خطير كهذا في مطلع حكمهِ وخاصة في فترة الحداد . وفي هذا مثل بليغ على ان وجود التاج يفعل بحكم الطبع ، فعل مسكن في حلبة النزاع السياسي ، وينفخ في السياسة شعوراً انسانيًّا قريباً من القلب . ولما كانت المعارضة تشاطر الحكومة هذا الرأي اجتمع مؤتمر خاص من زعماء الفريقين قصد الوصول الى اتفاق ، فكان سبيله الى الاخفاق بعد جدال طويل

فتحتم عند ذلك على رئيس الوزارة ان يعلم هل يعيد الملك جورج وعد أبيهِ ، ويتعهد بتعيين لوردات جدد اذ اسفر الانتخاب العام عن عودة الاحرار الى الحكم . والواقع انهُ لم يكن ثمة سبيل الى حلٍّ آخر . فاذا رفض الملك استقالت الوزارة ، وعندئذٍ يستدعي المستر بلفور زعيم المعارضة ويُطلب اليهِ ان يؤلف وزارة فيؤلفها وعند تقدمها للمجلس يحذلها فتضطرّ الى الاستقالة . وعندئذٍ يحق للملك من الناحية النظرية ، ان يحلّ المجلس لاجراء انتخابٍ آخر ، ولكن ذلك يزجُّ بالتاج في معارك الانتخابات ويقضي على القاعدة الاساسية التي شيّد عليها النظام الملكي الدستوري . وهذا نحوٌ كان المستر اسكوث ملزماً كلّ العزم على اجتنابهِ ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فاذا وعده الملك بتعيين اللوردات عند ما تقتضي الحال ذلك ، وخاض هو وحزبهُ الانتخاب مسلّحاً بهذا الوعد السري يبقى مقام الملك محفوظاً من الاذى . قال المستر اسكوث : « فاذا خذلنا في الانتخاب لم تكن ثمة حاجة لتنفيذ وعد الملك فيبقى في طيّ الكتمان . واذا نلنا اكثرية ، اضطرّ اللوردات الى الاذعان ، وكذلك نجتنب ذكر اسم الملك على كل حالٍ »

ومع أن الملك جورج كان قليل الرغبة في اتباع هذه الطريقة ، رأى بعين حكمتهِ ان لا سبيل

آخر للخروج من المأزق . فاتفق على ان يحفظ وعد الملك على الكتمان وان يسعى الوزراء جهد الطاقة الى الحيلولة دون ذكر الملك في معارك الانتخاب . فلما أسفر الانتخاب عن اكثرية للاحرار اصرّ الملك على أن يعلن الوعد الذي قطعه خشية ان لا تفهم المعارضة موقفهُ اذا ظلّ هذا الوعد مكتوماً ثم تسرّب نبأه الى الصحف . وقد اذيع ذلك في كتاب ارسل الى المستر بلفور ولورد لانسدون . فغضبت المعارضة ولكنها لم تجسر عملاً . فتعيين ثلاثمائة لورد جديد يضعف من مقام الارستقراطية البريطانية ، ويقضي على كلّ حال الى اقرار ما رفض مجلس اللوردات اقراره . فرأى المجلس عندئذٍ ان يذعن لمشيئة مجلس النواب واقرّ القانون المطلوب

وخرج الملك من هذا النزال وقد زادت هيبتهُ ومكانته ، لانهُ لم يحد في خلاله قيد شعرة عن عمله وهو ان يكون حكَماً منزهاً عن الغرض الخاص . فقد كان في ناحية الحكومة مستشاراً حكيماً ولكنهُ لم يقف عثرة في سبيلها ، وكان في ناحية المعارضة ، صديقاً ولكنهُ لم يكن حليفاً

***

كان حكم الملك جورج حافلاً بالمشكلات . فما كادت تحل المشكلة الدستورية على الوجه المتقدم ، حتى استفحلت المشكلة الارلندية . ذلك ان المستر اسكوث كان قد اضطر الى التحالف مع النواب الارلنديين الوطنيين في مجلس النواب بغية الفوز بأكثرية كافية ووعدهم بتحقيق آمانيهم فيما يختص «الهوم رول» اي الاستقلال الذاتي ، وهو يكاد يكون استقلالاً تامًّا لارلندا . فاقسم البروتستانت في ارلندا الشمالية انهم لن يخضعوا بحال من الاحوال لحكم دبلن وطلبوا ان يفصلوا عن سائر ارلندا ويتركوا وشأنهم . ولكن الوطنيين الارلنديين هالهم ان يفقدوا اغنى شطر من ارلندا . فاقترح المستر بلفور على الملك ان يتوسط ويعلن ان تجزيء الامبراطورية على هذا الوجه موضوع يجب ان يتاح للبلاد ان تعرب عن رأيها الصريح فيهِ . وهذا يعني ان بلفور اقترح على الملك ان يحتم على اسكوث فضّ البرلمان وخوض معترك انتخابات جديدة . اما لورد روزبري فكان رأيهُ ان رفض الملك توقيع قانون اقرّهُ البرلمان مخالف للتقاليد واستعمال لسلطة الملك في غير محله . وظلّ الجدال محتدماً خلال شتاء سنة ١٩١٣ و١٩١٤ والآراء متناقضة

الاّ ان الملك كان حكيماً ، فلم يصغ الى اصحاب الآراء المختلفة ، المخالفة للتقاليد الدستورية . وظلّ محتفظاً برباطة جأشهِ ، ولكنهُ لم يَنِ عن تذكير وزرائهِ بان الحالة في نظرهِ كانت اشدّ خطراً منها في نظرهم لانهُ باقٍ رئيساً للدولة حالة انهم خالعون جلباب الحكم عند ما يتحوّل الرأي العام عن تأييدهم ، فيحلّ غيرهم محلّهم . ومضى شهراً بعد شهر محاولاً اقناع المتطرفين من الفريقين بالتريث والتأني ، طالباً من كل فريق تخفيف الحدة في الخطب والتصريحات التي يفوهون بها ، وان ينظروا بعين الاهتمام للمصاعب التي تعترض موقف الفريق الذي يخالفهم . ودعا الى قصره في بلمورال الى زعماء الاحزاب المختلفة فلعب اللورد كرو احد زعماء الاحرار الجولف مع المستر بونارلو زعيم المحافظين

الجديد . فبدا في موقف بونارلو شيء من اللين في حلبة القمب لم يؤثر عنهُ . وامر الملك على اجتماع اسكوث رئيس الوزراء ببونارلو زعيم المعارضة وكان الاجتماع سريًّا خشية لوم المؤيدين لكل منهما فوجد كلٌّ منهما ساحبهُ اقرب الى التعقل مما كان يتصوَّر

وفي مارس سنة ١٩١٤ كادت المشكلة ان تتخذ شكلاً عسكريًّا ، وبدرت بوادر الحرب الاهلية في ارلندا ، فدعا الملك مؤتمراً من زعماء الاحزاب المتعارضة الى الاجتماع في قصر بكنهام وافتتح هو المؤتمر بخطبة مؤثرة ، ولكن النفوس كانت ثائرة فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة ما ، ولم تنج ارلندا من نشوب الحرب الاهلية فيها سنة ١٩١٤ الاَّ بنشوب الحرب العامة على أثر حادثة سراييفو

***

في اول اغسطس سنة ١٩١٤ بعث ملك انكلترا بنداء الى قيصر روسيا يطلب اليهِ فيهِ ان يوقف تعبئة الجيش الروسي . وكان اسكوث قد كتب هذا النداء مستعيناً برجال وزارة الخارجية . قال اسكوث : فلما انتهينا من كتابتهِ ذهبت في سيارة اجرة مع تَرل الى قصر بكنهام وكانت الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل . فدعي الملك من سريره وصورة الملك في ثيابهِ في تلك الليلة التاريخية من أعجب الصور التي اذكرها

وقد اصرَّ الملك في خلال الحرب ، على ان غذاء الاسرة المالكة يجب الاَّ يختلف بوجهٍ من الوجوه عن غذاء الجمهور . فلما قضت حالة الحرب بان توزَّع بعض اصناف الغذاء ارزاقاً بمقتضى بطاقات اقلتها كان قصر بكنهام ينال من هذه الارزاق ما يناله بقية الناس . وامر الملك بان لا يقدَّم على مائدتهِ خمر ولا جبنة . وقد ذهب في خلال الحرب غير مرَّة الى فرنسا ، لزيارة ابنهِ وولي عهده ، وليكون وجوده هناك من بواعث النشاط والحماسة في نفوس الجنود . فلما انقضت الحرب ، اعرب المستر اسكوث عن اجلالهِ للملك بهذه الكلمات :

« اما والعروش تهوي حولنا ، وقد كان بعضها قائماً على الظلم ، وبعضها مؤيداً بهيكل ضعيف من التقاليد ، فاننا نرى عرش هذه البلاد راسخاً لا يتزعزع قائماً على مشيئة الشعب البريطاني »

وقد كانت الصعاب التي واجهتها بريطانيا بعد الحرب لا تقل عن الصعاب التي واجهتها قبيل الحرب وفي خلالها . فالاضراب العام ، وفوز حزب العمال ، اقتضيا من الملك ان يبرهن مرة اخرى على مقدرته وحكمته ، لحكم منزه عن النزعة الخاصة او الحزبية . وقد اصاب في ذلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى انه لما مرض سنة ١٩٢٨ كانت الجماهير تقف امام قصره وهي متلهفة لاخباره ، ضارعة الى الله ان يمن عليهِ بالشفاء ، ففاقت بولائها له ما عرف عن اولاء الملوك انكلترا الذين تقدموه

وهذا كلهُ يفسر لك قول السر ستافورد كريس احد زعماء العمال المتطرفين اذ قال من عهدٍ قريب : « ان الملكية الدستورية سوف تبقى زمناً طويلاً في هذه البلاد لفضل وسيلة لاختيار رأس الدولة »

تتويج جورج الخامس

سبق الانكليز غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم ولكنهم مع ذلك لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم ورقا ليدهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضاتهم الشعور المستعارة وحراسهم الثياب المقصبة . وفيما يلي وصف جانب من حفلة تتويج الملك جورج الخامس في ٢٢ يونيه سنة ١٩١١ في دير وستمنستر .

... ووقف رئيس اساقفة كنتربري ونادى قائلاً ايها السادة قدمت اليكم الملك جورج ملك هذه المملكة الذي لا شبهة فيه والذي جئتم جميعكم اليوم لكي تقدموا له الطاعة فهل انتم راغبون في ذلك . فهتف الجمع هتافاً متكرراً قائلين احفظ اللهم الملك جورج . ثم ابتدأت الخدمة الدينية وتلي قانون الايمان ووعظت وعظة مختصرة وفي ختامها تقدم رئيس اساقفة كنتربري الى الملك وقال له هل انت مستعد يا مولاي ان تقسم اليمين فقال الملك نعم وأقسم انه يحافظ على الديانة البروتستانتية ويحكم شعبه بالعدل . وسار الى المذبح وركع امامه ووضع يمينه على التوراة وقال ان كل ما وعدت به هذا افعله وأحفظه فليعني الله . وقبل التوراة ووقع صورة القسم ورجع الى كرسيه بجانب كرسي الملكة وسجدا كلاهما ثم عاد الى المذبح وخلع حلة الملك وتقدم الى عرش الملك ادورد المعترف وجلس على حجر تاريخي مشهور فسحه دين وستمنستر بالزيت المقدس والبسه مهمازه ووضع سيفه على المذبح . وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يتقلد الملك سيفه عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار ثم ناوله اياه قائلاً اجر بهذا السيف العدل وأوقف نمو الشر واحم كنيسة الله واعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد وأصلح الاثيم وأيد الصالح حتى تنمو كل فضيلة . وناوله بعد ذلك رداء الملك والكرة والصليب قائلاً فليلبسك الله رداء البر وثوب الخلاص واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب تتذكر ان العالم كله خاضع لقوة المسيح فادينا ولسلطته . ثم البسه خاتم الملك في اصبعه وناوله الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليمنك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولكن لا تثنه في الحلم وعادلاً ولكن لا تنس الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقد شعبك في السبيل الذي يجب ان يسير فيه . ثم رفع التاج عن المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوجه بكل فضيلة ووضع التاج على رأسه قائلا ليتوجك الله بتاج المجد والبر . والحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك . وجلس الملك على عرشه وجعل رجال المملكة يمرون امامه ويسجدون له واحداً بعد الآخر وأولهم رئيس اساقفة كنتربري والاساقفة ثم ولي العهد وامراء بيت الملك وكان كل منهم يرفع تاجه عن رأسه ويركع امام الملك ويقول اني اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم يلمس تاج الملك بيده ويقبله في وجهه . وفعل مثلهم كل رؤساء فرق الاعيان اما اعضاء تلك الفرق فبقوا راكعين في مجالسهم حاسري الرؤوس

كل امرأة

ازواج وليت واولاد

من نافذة القطار

لكامل كيلاني

الكتاب الجديد في تربية الاطفال

ثورة البول عند الاطفال

للدكتور عبده درق

الزواج والبيت والولادة

يجب أن تكون هدف

المرأة في المانيا النازية

قلما ادركت نساء المانيا في بدء الانقلاب النازي ما يكون اثره في حياتهن ، ولكنهن يعلمن الآن انه كان فاتحة عهد جديد يختلف في قواعده واتجاهاته عن العهد السابق كل الاختلاف

ففي خلال الحرب الكبرى ، وفي السنوات التي تلتها ، ارتفع مقام المرأة ارتفاعاً سريعاً في ميادين الاعمال والحرف المستقلة والحياة السياسية . ولكن الريخ الثالث يرمي الآن الى اعادتهن الى البيت على قدر المستطاع

في ميدان الحياة الاقتصادية قضت كثرة العمال المتعطلين عن العمل ان تستبدل النساء العاملات بعمال ، وكذلك صدر قرار في يونيو سنة ١٩٣٣ يحول دون اشتغال النساء بالاعمال المدنية اذا كان لهن ازواج او آباء عاملون . وليس يقصد بالاعمال المدنية هنا مناصب الحكومة فقط بل جميع ضروب العمل في المنشآت التابعة للحكومة مثل المدارس والبنوك وسكك الحديد والجمعيات والمؤسسات الدينية . وقد عمدت الحكومة الى تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً واسع النطاق . ففي مدينة همبرغ اقيلت مائة معلمة دفعة واحدة وعين محلهن مائة معلم . بل ان الحكومة عمدت الى التفريق بين الرجال والنساء في مؤسساتها . بجعل راتب النساء اقل من راتب الرجال ، ورفض النساء اللواتي لم يبلغن الخامسة والثلاثين حالة ان الذكور يقبلن في الاعمال نفسها ابتداء من السنة الحادية والعشرين . ولكن هذه القواعد لا تطبق تطبيقاً عاماً مطلقاً . فالنساء اللواتي يعلمن اسرهن لا يستبدلن في اعمالهن برجال . وقد احتفظ بالنساء الكواتب على المكتاب (التيب ريتر) والعاملات في مصانع النسيج ، لبراعتهن وتفوقهن على الرجال . ثم ان القابلات المتزوجات تشجعن على العمل لانهن يخدمن هدفاً من اهداف الحركة النازية وهو زيادة النسل

فالزواج في ظل النظام الجديد ، هو الهدف الذي يجب ان تسعى اليه المرأة . ولكن من الواضح ان كثيرات من الفتيات الالمانيات لا يستطعن بلوغه . لان في المانيا ١٩٠٠٠٠٠ امرأة زيادة على الرجال . ولا يزال امام هؤلاء ميدان للعمل ، مع ان نطاقه قد ضاق كثيراً . فالطبيبة يجب ، بحسب الرأي النازي ، ان تحصر عملها في امراض النساء ، والمحامية يجب ان تقف نفسها على الناحية القانونية من شؤون المنزل ومحاكم الاحداث . فلا الجراحة في الاول ولا العمل كقاضية في الثانية ، من الاعمال التي يجب ان تزاولها المرأة في المانيا النازية . اما الصحافية فيجب ان توجه عنايتها الى الموضوعات الخاصة بالبيت والطفل واذاعة فلسفة النازي السياسية بين النساء . ولا ريب ان ميدان الحرف الحرة سوف يتأثر في المستقبل ، تأثراً عظيماً ، بتحديد عدد الفتيات اللواتي يسمح لهن بالانتظام في معاهد التعليم العالي أي الجامعات

والحيلولة بين المرأة الالمانية والجامعات، بجعل عدد الفتيات اللواتي ينتظمن في الجامعات بعشرة في المائة من مجموع الطلاب ، يصحبها توجيه عناية المرأة توجيهاً خاصاً الى مسائل البيت والعناية بالاطفال والوالدات من نواحيها المختلفة ولذلك يشاهد عدد كبير منهن مقبلاً على اعمال الخدمة الاجتماعية ، ولكن المناصب الادارية في جميع هذه المنشآت الاجتماعية ، هي في الغالب في ايدي الرجال . والحكومة تسهّل بواسطة مكاتب خاصة للتخديم ، سبيل الخدمة في البيت للفتيات اللواتي لا يستطمن الزواج ويرغبن في هذا النوع من العمل

وقد كان من شأن هذه الخطة التي اختطها الريخ الثالث نحو النساء ، ان فرض لعمل النساء السياسي ، حدوداً ضيقة. فقد نقص عدد الموظفات منهن في الوزارات المختلفة ، وحيل بينهن وبين عضوية الريخستاج ، مع انهُ في سنة ١٩٣٣ كان في الريخستاج ثلاث وثلاثون امرأة بين اعضائه . ولكن تجريد المرأة من حق العمل في منصب سياسي، لا يعني حرمانها حق الانتخاب . بل ان الانتخاب في الفلسفة النازية ، ليس حقاً للمرأة فقط ، وانما هو واجب مقدس عليها . فقد ذكرت احدى الصحف في السنه الماضية ان سيدة لها مقعد في السوق العامة ، اشير اليها بالاشتراك في الانتخاب مرتين فلم تفعل، فحرمت من مقعدها هذا وحتم عليها ان تلبس بطاقة كتب عليها : « لم اشترك في الانتخاب لان سلامة المانيا واستتباب السلام فيها لا يهمانني » . وقد تكون هذه الحادثة فريدة في بابها ولكن الواقع ان النساء الالمانيات لا ينظرن نظرة استخفاف الى حق الانتخاب

ثم ان الحكومة لا تكتفي بالقوانين تحدُّ بها من نشاط المرأة في ميادين العمل والسياسة ، بل تعمد كذلك الى وسائل الترغيب والدعاية لتغري المرأة بالعودة الى البيت . ومن اشهر هذه الوسائل نظام الزواج الذي وضع في يونيو سنة ١٩٣٣ وبمقتضاه تمنح الفتاة العاملة الف مارك ديناً طويل الاجل ، اذا تركت عملها وتزوجت وعادت بعد الزواج لا تبحث عن عمل . وهذا المبلغ لا يدفع لها نقداً ، بل تعطاهُ اذونات ، تستعملها في تأثيث بيتها . ثم هي تستطيع ان توفي هذا الدين بأسلوب غريب ، فعند ولادة ولدها الاول يحذف من الدين ربعهُ ، وعند ولادة الولد الثاني يحذف الربع الثاني . فاذا ولدلها اربعة اولاد ، سُوِّي الدين كلهُ . فكان هذا النظام باعثاً على اقبال مئات من الفتيات والشبان على الزواج ، فتزوجت أجراس الافراح في طول المانيا وعرضها ، وتزوج في مدينة همبرج وحدها ، ٥٠٠ فتاة و٥٠٠ شاب دفعة واحدة . وكان من آثاره ، ان الاقبال على تأثيث البيوت زاد عدد العمال في الصناعات المختلفة الخاصة بالاثاث وأدوات المنزل ١٥٠ الف عامل . ولكن غرضهُ ليس زيادة العمال العاملين فقط بل رفع متوسط المواليد في المانيا ، بعد ان نقص نقصاً تدريجياً من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٢ حتى أصبح متوسط المواليد في المانيا اقل منه في اي بلاد اوربية اخرى عدا بلاداً واحدة [يراجع الفصل الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤ صفحة ٢٢٩–٢٣١ بعنوان « مقام المرأة واتجاهها في المانيا النازية »]

من نافذة القطار

لكامل كيلاني

هيهات ، هيهات ، لا جنٌّ ولا سحره ... بقادرين على أن يلحقوا أثره !
هذي المنازل قد مرّت على عجل ، ... كأنها ومضةٌ كالبرق مختصره
هذي القناطر — والاشجار تتبعها — ... هذي الحقول تبدت وهي مزدهره
هذا قطيعٌ — من الاغنام — ألمحهُ ، ... وهذه دوحةٌ ، في ظلها بقره
وهذه رَعةٌ — بي إثرها ظهرت ، ... وتلك تاعورةٌ ، في جنبها شجره
هذا سوادٌ علا فوق القطار ، وقد ... عمّ الفضاء دخانٌ قاذفٌ شرره
هذا القطار بطيئاً — بعد سرعته — ... وذا صفيرٌ يدوّي منذراً خطره
هذي المحطة قد لاحت لاعيننا ... اعلامها ، ووفود الناس منتظره
يَحُلُّ فيها قليلاً ، ثم يتركها ... لغيرها ماضياً ، مستأنفاً سفره
كالسهم منفلتاً والسيل مندفعاً ، ... يثير — في عدوه — الحصباء والغبره

***

هيهات، هيهات ، لا جنٌّ ولاسحره، ... بقادرين على ان يلحقوا اثره
هنا غلامٌ أراهُ صاعداً حذراً ... على النخيل يرجّي — فوقه — ثمره
وزارعٌ دائبٌ في حرث دسكرة ، ... وهضبةٌ ، ومروجٌ — بعدها — نضره
وهذه ثلةٌ — من قريةٍ — خرجت ، ... وكلهم — رائعٌ — من دهشةٍ بصره
وهذه مركبات حملت نفراً ، ... وفوق أخرى حشيش يابس ، وذُرة
ثمّ طاحونةٌ ، لاحت — لاعيننا — ... ثوانياً ، واختفت في الحقل مستتره
هذا غديرٌ ، وهذي روضةٌ أنفٌ ، ... تهبُّ منها — علينا — نسمةٌ عطره
ثمّ مئذنةٌ في الجو ذاهبةٌ ، ... وتلك سوقٌ ، بها التجار منتشره
شتى مناظر مرت — خطفَ بارقةٍ — ... كما تمرُّ بك الاحلام منتشره
مرت، وليس لها من عودةٍ — ابداً — ... كالطيف ولّى ، فمذا يقتفي أثره

« مقتبسة من الانكليزية »

الاتجاه الجديد

في تربية الاطفال[1]

كان أبناء السادة في بلاد الفرس في العصور القديمة يدرَّبون على ثلاثة أمور : الرمي بالنشاب ، وركوب الخيل ، وقول الصدق . ومتى جهزوا بهذه العدة اعتبروا أشخاصاً كملت تربيتهم مستعدين لما يتطلبه منهم المجتمع الفارسي من المطالب البسيطة ، ولم يكن هـذا المجتمع ليتطلب من أعضائه غير قليل عدا الشجاعة الحربية ، والقوة البدنية ، والاستقامة الخلقية . ولا جدال في أنهُ — حتى في تلك العصور — كان المربون والحكماء فارقين في المذاهب النظرية والجدل حول تربية النشء وتقرير مستقبلهم . ولكن غايات التربية كانت على كل حال محـددة بجلاء ، وكانت الوسائل لادراك تلك الغايات في متناول اليد ، وليس الحال كذلك الآن وياللاسف ! قلب النظر في مجموعة حديثة من كتب التربية تجد آراء كثيرة مختلفة في إدراك حقيقة وظيفتها، بقدر عدد من كتبوها فهل الهدف الذي ترمي اليهِ هو منزلة رفيعة من القوة الذهنية او اعداد ضيق للاحتراف ؟ وهل تؤكد الاهتمام بالفرد وحده أو بمنزلته للمستقبلة في المجتمع ؟ وهل تكون الوسيلة نظاماً آليًّا صارماً، أو حرية تمتد الى حدود لا تكاد تصدق ؟ وهل نعنى كثيراً بالادب القديم وتعاليم الماضي أو نستهدي العلوم ومخترعات العصر الحاضر ؟

من يدري ؟ وأي الناس لديه من الحكمة ما يخوله أن يجيب عن ذلك ؟ أليست كل فئة من هؤلاء المربين سواء في قيمتها ؟ يلوح أن هذا هو الواقع فانهم على الرغم من نظرياتهم وتوكيداتهم الجريئة ليس منهم من يبدو على ثقة مما يقرره الآخرين يهاجم اخوانه

على أمر واحد اجتمعت كلمتهم ، وذلك هو سحق الطفل — منشأ كل منافراتهم — أو على الاقل اخضاعه وتحويله من مخلوق أبي مستقل وهو ما فطر عليهِ الى شخص سهل القياد اكثر متابعة لاغراضهم . أن نظرية تأثيم[2] الطفولة لا تزال تسيّر جانباً كبيراً من سياستنا التعليمية فيجب وفقاً لها ان يبرأ الاطفال من الشر الاصيل الذي بلابسهم ويجتث منهم ما فيهم من هراء ، ثم يصبون في القالب المطلوب حتى يصيروا ملائمين للمجتمع ! ولولا أن اولئك الاطفال يرغمون على التعلم بجيش من المعلمين والضباط ويد القانون لفروا منهُ ومن كل ما يتصل بهِ من الاعمال

على انهُ قد بدأ حديثاً انتقاض وثورة على تلك التقاليد المرعية

---

(١) هذا الفصل التقديمي هو جانب من مقدمة كتاب « ضحايانا الاطفال » الذي وضعته المربية آنفس دي ليان وقلة الدكتورة الاستاذة محمد عبد الواحد خلاف وعشرة لجنة اتأليف والترجمة والنشر في سلسلة مكتبة المعلم

(٢) اشارة الى المذهب المسيحي القائل بان الانسان ولد في الخطيئة

فقد جرأت بعض المدارس بالفعل على ان تضع موضع التجربة والاختبار نظرية تخالف النظريات القديمة كل المخالفة وتقرر ان النزعات الفطرية للطفل ابتكارية وانهُ لو اعطي المواد الملائمة واتيحت له الفرص لاستعمالها ، واطلقت له الحرية فلا تملى عليهِ ارادة ، لظهرت منهُ قوى وكفايات لا يحلم بها الى اليوم . وليس معنى هذا ان ندع الاطفال يهيمون في كل واد ، بل ان نعطيهم قدراً من الطمأنينة ومن الفرصة للتعبير عن انفسهم يلائم ما بلغوه من اطوار النمو . ان التربية القديمة — او على الاصح اسلوب التعليم السائد المسمى تربية — قد جمعت اعتباطاً علم الماضي وثقافته ، ثم قسمته الى اقسام تامة الانفصال تسمى مواد ، ورتبت هذه المواد الى اجزاء متسلسلة تتدرج من البسيط الى المركب وترتبط كل منها منطقيًّا بالجزء الذي سبقهُ . والواقع اننا وان كنا لا نعلم كثيراً عن عملية التعلم على الرغم من كثرة رسائل الدكتوراه في الموضوع فاننا قد اهتدينا على الاقل الى انها ليست عملية منطقية اصلا ، وعلى الرغم من مجهوداتنا المنطقية فان الاطفال لا يتعلمون على هذا النحو . ففي الفصول التجريبية التي تشرف عليها المس اروين والتي جئنا على وصفها في الفصل الرابع وجد ان عدداً من تلاميذ الفرقة الثانية الذين لم يعطوا شيئاً في الحساب في سنتهم الاولى قد طلبوا فجأة ان يتعلموه وفي شهر واحد قطع بعض تحبائهم فيهِ شوطاً بعيداً حتى لقد وصلوا سريعاً الى عمليات معقدة في الكسور من غير ما حاجة الى حفظ جدول الضرب والتشكيلات التي تسبق عادة مثل هذا العمل

وكذلك شأن الجغرافية فهي في هذه المدارس الحديثة ليست قاصرة على دروس مأخوذة عن كتاب كبير واحد مملوء بالخرائط وكشوف الانهار والعواصم والمحصولات . ان الصغار الذين هم دون دوضة الاطفال يبدأون تحديد موضعهم في الفراغ فيحددون وضع حجرتهم بالنسبة للحجر الاخرى في البناء ويحددون وضع المدرسة بالنسبة لمباني الاخرى في الشارع . وبعد زمن يسايرون الطريق الى النهر ويرون المراسي والاحواض والمعادي والسفن . وهل من دافع اقوى من هذا يحملهم على ان يحصلوا لا الحقائق الجغرافية وحدها بل معلومات اقتصادية وصناعية كذلك ؟ ويدلك على صواب هذه النظرية ان الاطفال في هذه المدارس الحديثة لديهم قدر مدهش من المعلومات . لقد لوحظ على فريق من الاطفال في الثانية عشر من عمرهم بمدرسة « والدن » وكانوا قد طلبوا الى الدكتور اسكندر جولدنويزر أن يدرس لهم علم نشأة الانسان[1] انهم كانوا يعالجون مسائل المدنية ، ووراثة الخصائص المكتسبة ، وحرية الارادة والتقديس والتقاليد الدينية للشعوب الفطرية ، والاباحة والتحريم ، والعرف الاجتماعي ، وقيمة العادة ، وغير ذلك من المسائل التي تؤجل عادة لفرق اكثر رشداً

ومع هذا فليس اولئك الاطفال بمعجزات او خوارق من الناحية العقلية ، ولكنهم مجرد صبية وبنات لم تقمع فيهم النزعة الفطرية للاستطلاع ، ولم يجمد فيهم الميل للتفكير . فلكي يفكر

(1) Anthropology

الانسان لا يكفي ان يجلس ساكناً ويمتص العلم من فم مدرس . ان الطفل لا يتعلم المشي بأن يأتي شخص تام النمو فيخبره كيف يمشي ، ولا باعطائه وصفاً فنيًّا للتوفيق الحركي الذي تنطوي عليه هذه العملية ، بل انهُ حين يؤون الاوان يعلم نفسه بالمحاولة والخطأ والتخبط والوقوع كيف يتزن ، وكيف يدفع قدماً قبل اخرى

وكذلك الحال في تلك المدارس الحديثة تعطي للاطفال كل فرصة ليكشفوا الاشياء بانفسهم . ومن الوسائل الوثيقة الاكيدة لتحقيق ذلك امدادهم بكثير من الادوات التي يستطيعون بوساطتها ان يعبدوا ويجيوا تجارب سابقة، وبذلك يصنعون اساساً لمواصلة بحث جديد . وحقًّا لاشيء أوضح تمييزاً لهذه المدارس الحديثة عن القديمة من استعمال الادوات . ففي المدارس التقليدية تجد غرف الدراسة فضاء خرباً من الادراج وألواح الكتابة والمواد المستعملة قاصرة على الورق والاقلام والكتب وحتى في رياض الاطفال تجد المواد محدودة واستعمالها مقيداً بقيود . اما في المدارس الحديثة فان الاطفال الى أعلى الفرق يحاطون بعدد كثير من الاشياء المتنوعة ليشتغلوا بها ككتل خشبية، وأصباغ، وأقلام تلوين ، ومناسج ، وطين ، ورمل ، وخشب ، وقوارب ، ومكابس طبع ، وآلات كاتبة ، وأدوات للعلوم الطبيعية ، وأطقم مسرحية ، وآلات خياطة ، ومعدات كهربائية ، وكل ضرب من الآلات الموسيقية — وأن بيان الادوات في احد الكتب التي تصف تجارب التعليم ليشغل عدة صفحات بالخط الصغير . والكتب مكانها الذي تستحقهُ بين الادوات كمصادر للمعلومات تكمل ما اكتسب بالاختبار الذاتي اولاً . وكمراجع ذاخرة يرجع اليها

ماذا يكون إذن متى ترك الطفل لشأنهِ دون ان تملى عليهِ اوامر ، وترك مع ادوات كتلك ؟ اذا لم تكن بهِ موانع وجدانية ، وكان سليم البنية بحيث يؤدي وظائفه الطبيعية بلا شذوذ ، فنحن في أمان من الخطأ اذا قلنا ان استعماله لتلك الادوات سيكون ابتكاريًّا . راقب طفلاً في الثانية من عمره يرص كتله الخشبية فاذا لم يفسد عليهِ محاولاته الاولى من هو اصغر منهُ بتنبيهه عن غباوة كيف يعمل ، فانهُ بلا عناء يرتبها في اشكال ليس حظها من الاتزان والتناسب قليلاً . دع طفلاً وحده ومعهُ الوان او اقلام تلوين ومحائف كبيرة من الورق تجده بعد فترة من التلويث والعبث يبدأ يرسم أشياء مدهشة ، مدهشة في الشكل والتلوين . وحتى لو لم تكن لمنتجاتهِ معنى لدى شخص راق فانها له كطفل ذات معنى ودلالة . لقد اطلعت بنت في الثالثة من عمرها احد الزوار حديثاً على رسم لرجل رسمتهُ فصاح بها الزائر انهُ لرجل مضحك ، لانهُ ليس له الاَّ رجل واحدة ، فاحرت الفتاة خجلاً لنقدهِ ، ولكنها لحسن الحظ ثبتت في موقفها وقالت : نعم هذا هو نوع الرجل الذي اردت أن يمثله الرسم

حقيقة ان المدارس الحديثة تواجه مسائل كثيرة لم تحل ، وليس اقلها الضعف البشري العادي الذي يدفعنا الى أن نستبدل باسم الحرية استبداداً جديداً باستبداد قديم . فكثير من المدارس

الحديثة تميل الى اعتبار بعض المبادىء الاجتماعية أو البسيكولوجية اكثر حرمة من الطفل ، وفي كثير منها تقدم فكرة المجتمع المستقبل — وهي محض فكرة معنوية — على كل اعتبار آخر. فالمنهج مصبوغ بالصبغة الاجتماعية ، وكل المجهودات تميل الى جعل الطفل شريكا فعلياً في الديمقراطية الاجتماعية المستقبلة . ولهذه الغاية تعطى للطفل موضوعات لا نهاية لها تتصل بنظام الساعة والحكومة الحديثتين — وهي نوع من التربية الوطنية المضخمة ترمي الى تحويله الى ضرب من الانسان الميكانيكي مصبوغ بصبغة المجتمع من المحقق أن يتعاون بهدوء وكفاية مع رفاقه . وآخرون من دعاة الحرية مهمكون في غرس عادات قيمن هم مردٌ صغار يتعثرون في مشيهم ، عادات لا تدري ان كانت تحد قوى البداهة والاستقلال والابتكار أو لا تحدها . وآخرون يغالون في قيمة «التركيز الوجداني» و«النقد» الى حد غير معقول . وبعض هذه الاخطار قد اشير اليه بالتحديد في هذا الكتاب ، ومع أن هذه العيوب خطيرة ، وقد تزداد خطورة كلما تضاعف عدد المدارس التجريبية ، فاننا لم نصل بعد الى الفوز ولو بقليل من حرية العمل في المدارس العادية . ومع أن عدم التقيد بالمراسم في فصول الدراسة آخذ في التزايد فان الكثرة من الأطفال لا يزالون ضحايا نظم قاهرة تشبه كثيراً ما جاء وصفه في الفصول الاول من هذا الكتاب . ولم يتقدم قليل من المدارس العامة الى مثل ما وصلت اليه المدارس النموذجية المحافظة كمدرسة هوراس مان، ومدرسة الثقافة الخلقية التي يجيء وصفها في الفصل التاسع . ويكاد جمهور المدرسين في أنحاء هذه البلاد لا يعلمون شيئاً عما أدته مدرسة لنكولن [1] من الخدمات في وضع المنهج على أساس علمي . ولا تكاد تشق مدارس جارى ودالتون لنفسها الطريق الا ببطء مجهد ، مع أنه من السهل التوفيق بينها وبين ظروف المدارس العامة . وفي حالات قليلة فقط ألغيت فصول في المدارس العامة — ولم تعمل طويلا في الغالب — لتجربة مبادىء انقلابية ، منتهجة السبل التي اقترحتها هيئات ، كمدرسة المدينة والريف ، ومدارس والدن في مدينة نيويورك [2]

رأى زعيمة هندية

سئلت احدى زعيمات النهضة النسائية في الهند عن رأيها في اتجاهات المرأة الالمانية الحديثة الى البيت وفقاً لفلسفة النازي الاجتماعية فقالت : ان الشرق على ما أرجح سوف يكون اقل تأثراً من الغرب بحركة المرأة الالمانية . فهذه الحركة تطرف في الناحية الاخرى من نهضة المرأة الحديثة والغرب اقرب الى الاخذ بالحركات المتطرفة من الشرق . اما نحن فسوف نمضي في اخراج نسائنا من البيت ولو تبعتم انتم اثر المانيا واعددتموهن اليه »

(١) مدرسة نموذجية تابعة لكلية المعلمين في جامعة كولمبيا
(٢) سيأتي وصف نظم هذه المدارس في الفصول القادمة (الكلام راجع الى كتاب : سعادة الاطفال)

مقال صحي بيتي مفيد

درة البول عند الاطفال

أسبابها وعلاجها

للدكتور عبده رزق

من اكثر انواع التبول قهراً عن الانسان واعمها حدوثاً هو سلس البول في الأطفال الذي غالباً ما يكون في أثناء الليل عند ما يكون الطفل نائماً . وهي علة كريهة مزعجة ، وابتداؤها يرجع احياناً الى الايام الاولى بعد الولادة ، لكنها لا تظهر عادة الا بتقدم الولد قليلاً في السن . وفي بعض الاحيان نراها تصيب البالغين ايضاً

واكثر الاصابات بهذه العلة يكون من السنة الثالثة الى السنة الرابعة عشرة ثم تقل تدريجاً بعد ذلك . أما اذا أتى دور المراهقة ولم يشف المريض منها فتستمر اذ ذاك حتى دور الكهولة او احياناً ما بعده ، وفي هذه الحالة لا بدَّ ان يكون هناك سبب مرضي

ومن الاطفال من يتبول ليليًّا مرة واحدة أو مرات كثيرة في الليلة نفسها وآخرون يتبولون ليلة واحدة من آن الى آخر . وفي أحيان اخرى يكون هذا التبويل متتابعاً أي ان العلة تظهر مدة ٨ ليال أو خمس عشرة ليلة متوالية ثم تزول حيناً من الزمن ثم تعود بعدئذٍ من جديد الى ما كانت عليه قبلاً . وهذه الحالات تكون معصوبة أحياناً باضطرابات التبول نهاراً تارة من كثرة عدد هذا التبول أو من عدم تفريغ المثانة تفريغاً تامًّا . لكن في حالات المرض المألوفة تقتصر الاضطرابات المذكورة على وقت النوم ليلاً

***

ومما يجدر ذكره هنا هو أن الحمى التيفية والحميات الناتجة عن البثور الجلدية كثيراً ما تعمل على توقيف المرض وتنيمًّا ، ان لم تقطعه تماماً في بعض الاحيان . كما أنهُ لوحظ الشفاء منهُ فجأة في بعض أدوار الحياة ، سواء اثناء بروز الاسنان ، أو في سن البلوغ ، أو وقت ظهور الطمث ، أو ايضاً في الزواج ، كذلك بعد الوضع الأول . لكن ذلك لا يعني انهُ يجب الركون الى هذه الحالات الفسيولوجية للشفاء من تلك العلة المزعجة بل من الحكمة وسداد الرأي الاهتمام بأمرها والتخلص منها بالمداواة الجلدية

والاصابات بدرة البول أكثر بين الذكور منها بين الاناث . وقد لوحظ حدوثها على السواء عند الاولاد البدينين وأشداء البنية مثلها عند الضعفاء والعصبيين . وهذه العلة كثيراً ما تكون

وراثية وتشاهد في أفراد العائلات وارثي داء الزهري أو ذوي الاستعداد لبعض الامراض العصبية كالصراع او الخبل مثلاً

أسبابها

تنشأ أسباب هذا المرض احياناً عن التكاسل عن النهوض من الفراش ، وغالباً عن تهيج المثانة أو صغر حجمها عند الطفل او وقت وجود حصاة فيها . ومن الجائز أن يكون منشؤه أيضاً عدم التوازن بين أعصاب الطفل المختلفة التي تسيطر على فتح المثانة أو غلقها ، أو شلل يصيب الصمام أو العضل الذي يغلق هذا العضو . وقد يكون السبب أيضاً نتيجة لمرض في الدماغ أو النخاع الشوكي أو السكر أو ايضاً وجود سرطان في المثانة ، فيعمل على تقلصها وانقباضها كلما وصل اليها البول من الحالبين . وثمة شيء لا ينكر هو أن زيادة حموضة البول الناتجة عن تناول الاطعمة الحارة أو الملهبة تكون سبباً مهماً لظهور المرض وهكذا قل عن الافراط في شرب السوائل في الساعات الأخيرة قبيل النوم وخاصة اللبن الحليب أو الحليب والقهوة معاً وقت طعام المساء

عدا ذلك فأمراض الكلى تلعب من هذا القبيل دوراً خطيراً . وقد شوهد حدوث ذات العلة عند الفتيان المصابين بتضيق فتحة القلفة وكذلك عند الفتيات المصابات بالتهاب الشفرين الناتج عن الاهمال في النظافة . وقد يكون سبب ذلك أيضاً وجود ديدان دبوسية في القسم الأسفل من المعى الغليظ . أو اورام صغيرة أو سليلة في الانف التي من شأنها أن تعيق التنفس وتسبب بذلك تسمماً بحمض الكربون — تسمم ناتج عن نقص في تجدد الغازات بين الدم والهواء في الرئتين مما يؤول الى نوم عميق جداً بحيث تكون حاسة الطفل او حاجته الى التبويل غير كافية لاستيقاظه

أنواعها

ودرة البول تكون على ثلاثة أنواع : —

١ — درة البول التي تنتج عن التهاون في النهوض من الفراش

٢ — درة بول الطفل الذي يبقى نائماً فيبلل ثيابه وفراشه بدون وعي

٣ — درة بول الطفل الذي يحلم انهُ يبول مثلاً على حائط أو في وعاء فيبلل أيضاً فراشه من دون أن يشعر بذلك أيضاً

ومن ذلك نستنتج ان هذه العلة تظهر عادة في الدور الاول من الطفولة . والنقطة المهمة التي يجب التنويه بها هو ان كل ولد بلغ السنتين او السنتين والنصف وهو لا يزال يتبول ايضاً في فراشه فدواؤه ضرورية بلا ابطاء . وبوجه عام هذا التبويل لا يكون الاّ في الساعات الاولى من الليل او قرب الصباح ومقدار البول وافرٌ في الغالب وفي بعض الاحيان يشعر الولد انهُ يتبول في فراشه ويحاول ان يمسك نفسه لكن بعد فوات الوقت

علاجها

قبل كل شيء لا يجوز ضرب الولد وتعنيفه لهذا السبب. بل تحريضهُ فقط بكلام فعال لان المعالج او احد الوالدين ينال بعبارات التحريض والتشجيع اكثر مما ينال بعبارات التهديد والارهاب بعد هذا علينا الاستقصاء عن سبب هذه العلة او اسبابها ومداواتها جديًّا مع العلم انهُ لا بد من المثابرة وطول الاناة للحصول على الغاية المبتغاة . هذا ذلك يقتضي استعمال الوسائط الصحية التالية:

١ — منع الولد عن النوم حالاً بعد طعام المساء وليكن تناول هذا الطعام باكراً

٢ — الزامه بتفريغ المثانة قبل النوم ووضع وعاء صغير عند فراشه ويوقظ نحو نصف الليل ليبوّل

٣ — منعهُ شرب الماء مطلقاً من العصر فصاعداً وخصوصاً من شرب الحليب أو القهوة والحليب معاً او الشاي ايضاً — وقت طعام المساء او حمله على تقليل ما يشرب منها

٤ — العمل على تدريب المثانة وزيادة تحملها وذلك بتعويد الولد حبس البول ما امكن خلال ساعات النهار

٥ — ايقاظ الولد ليليًّا لتبويله مع تأخير ساعة هذا الايقاظ في كل مرة وبذلك يتوصل الولد اخيراً الى تمضية الليلة من دون ان يبول في فراشهِ

٦ — اذا كانت درة البول ناشئة عن ضعف في صمام المثانة فيلجأ الى الغسل بالماء البارد صباحاً في الصيف او الى استعمال الكهربائية « التيار الفارادي او التيار المتصل او التيار المتزن »

كما انهُ يستحسن وقت تنويم الولد ان يكون مقعده مرتفعاً اكثر من بقية اعضاء جسمه وبذلك تمتلىء المثانة قبل وصول البول الى عنقها . لان وجود هذا البول في القسم الخلفي من المجرى البولي اي في منطقة الموثة ، يسبب تهيجاً فيهِ من شأنهِ ان يفرغ المثانة ليلاً رغماً عن الولد . وابسط طريقة الى تحقيق هذه الفكرة هو ان تكون رجلا السرير مرتفعة نحو ١٠ — ١٢ سنتمتراً فاذا قرنت هذه الطريقة باستعمال الوسائط المبينة اعلاه تزول حينئذٍ تلك العلة في خلال ٤٠ الى ٦٠ يوماً . وقد جربها كثيرون من الاطباء فاسفرت عن نتائج مرضية

واذا لم تكف هذه الوسائط يعطى البلادونا بمقادير متزايدة . والانتيبرين والبروموز . وخلاصة الجوز المقيء مرتين في اليوم لولد بين السنة الثالثة والسنة الخامسة عشرة . كذا الصيغة العطرية Aromatica ٢٠ — ٣٠ نقطة وقت النوم ليلاً . وفي حالة حموضة البول الشديدة يعطى الولد ايضاً في اوقات الطعام بيكاربونات اشترات الصوديوم . اما اذا كان البول قلويًّا فالشفاء يحصل باستعمال الحامض الفوسفوريك وقد نصحوا ايضاً بوضع حراقة على اسفل الظهر

فنستنتج من ذلك ان هذا المرض يتطلب كثيراً من العناية والصبر توصلاً الى انقاذ الولد من علة وان لم تكن بحد ذاتها خطرة لكنها ذات نتائج وبيلة اجتماعية وادبية

باب المراسلة والمناظرة

ارشاد لغوي

في كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

الحمى الوبيلة أو الأجية « الملاريا »[1]

أطوار الحمى الوبيلة أو الأجية :

(ا) الرَّسُّ — أول ما يجد الإنسان مسّ الحمى قبل أن تأخذه وتظهر — ويقابل الرَّس باللغة الانكليزية (prodroma)[2]

(ب) العُرَواء — (Rigor) اذا أخذته لذلك قرّة ووجد مسّها

(ج) الرُّحَضاء (perspiral stage) إذا عرق من الحمى ويقال للمريض مرحوض وقد عنى المتنبي المادح هذا الطور في مقام حسن التعليل لجود الممدوح وهو هرون بن عبدالعزيز الاوراجي الكاتب مبالغاً في قوله

لم تحملِ نائلَك السحابُ وإنما حُمَّتْ به فصيبُها الرُّحضاء[3]

(د) البُرَحاء وهي شدة الحمّى (Fever in its acme)

---

(١) قد سمى الشيخ ابرهيم اليازجي (الملاريا) بالحمى الوبيلة وبالحمى الاجية وقد أصاب كل الاصابة في تسميتها بهذين الاسمين وقد تبعته مذ كنت أدرس فن تدبير الصحة بمدارس المعلمين والمعلمات الاولية من سنة ١٩١٠ م الى سنة ١٩٢٢ م وأيدنا الاصباء الحذاق عشاق اللغة العربية في هاتين التسميتين

(٢) أخذت الالفاظ الانكليزية التي في هذا المقال من صديق الطبيب سامي الياس

(٣) النائل العطاء . الصيب الماء المصبوب . والسحاب اسم جنس يذكر ويؤنث (ادعى المتنبي أن علة نزول الامطار من السحاب على الارض هي عرق حماها بعطاء هرون لانه جعل نواله أكثر من نوال الغمام فاصابتها الحمى حسداً) . ومعنى ان السحاب لا تقصد محاكاة جودك بمطرها لان عطاءك المتتابع أكثر من مائها وأغزر ولكنها حمت حسداً لك ثلاء الذي يذهب منها هو عرق تلك الحمى

أنواعها :

(١) حمّى مستديمة وهي التي تأتي كل يوم ويقال لها المُطْبِقَة اذا لم تقلع

(٢) الغِبُّ أن تأخذ المريض يوماً وتدعه آخر ويقال لها ايضاً حمى ثلاثية لأنها تأتي المريض يوماً وتدعهُ يوماً وتأتي ثالث يوم (Tertian)

(٣) حمّى رِبْع وهي أن تأخذهُ يوماً وتدعهُ يومين ثم تجيء في اليوم الرابع (Quartan Malaria) ويقال رَبَعت على فلان الحمى أي جاءته رِبْعاً وأربعت عليه وقد رُبِع كعُنِي فهو مربوع وأُرْبِعَ فهو مُرْبَع فإذا دامت مع الصداع أو الثقل في الرأس والحمرة في الوجه وكراهة الضوء فهي البِرْسام أو البِلْسام وليست الحصبة وإن أشبهتها في كثير من الاعراض

ترجيهات :

(١) الوعْك أذى الحمّى ووجعها في البدن ويقال رجل وَعِك وموعوك

(٢) الوِرْد يوم الحمّى وقد وردته أو الورد الحمى الثالثة كل يوم

(٣) القَلَع . حين تقلع الحمى أي تفارق المريض

(٤) القَقَقة (Chill) صوت الهموم من الرعدة او إذا اضطرب فكاه واصطكت أسنانه وفعله قَقْقَفَ

(٥) الحَلَأ — الحَرُّ الذي يخرج على شفة الانسان عقب الحمى الوبيلة (Herpes)

(٦) الحمى الصالب هي التي تُسيل العرق الغزير وقد سلبت على المريض إذا اشتدت حرارتها ولم يكن معها برد . وقد رأى صديق الطبيب سامي الياس أن الحمى الصالب هي (الملاريا) لان وصفها يشتمل على أظهر أعراضها ولكني آثرت تسميتها بالوبيلة أو الأجية على تسميتها بالحمى الصالب (٤) لأن الشيخ ابرهيم اليازجي قد اختار (الملاريا) الحمى الوبيلة أو الحمى الأجية وقد رأيت من صديقي الطبيب محمد عبد الحميد بك موافقة تامة على تسمية اليازجي مذ كنت في قليوب معهُ من سنة ١٩١٢ إلى اليوم وإني أثق كل الثقة بالطبيبين الفاضلين كما أثق بما نقلته عن علماء اللغة ومن شأني أن أعزو شأن الفاضلين وأنسب الفضل إلى ذويه وهذا جَنايَ وخياره فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه

(٤) لم يخطىء الطبيب سامي الياس تسمية (الملاريا) بالحمى الوبيلة أو الاجية ولكنه يرى ان اللفظ الذي وضعته العرب — الحمى الصالب — أولى بالتسمية

أمراضه وأعراضه بوزنه فعال

محرر المقتطف الفاضل

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود فضل بين على اللغة العربية ببحوثه النفيسة المتتابعة على صفحات المقتطف ونشره الفاظاً فصحى يود الى العلماء والادباء احيادها باذاعتها في مؤلفاتهم وكتاباتهم فهو من البحاث الذين يقومون بقسطهم من خدمة لغتهم ولو كان كل علماء اللغة نصفة تناطى لها غيراً على غورها وازدهارها لما تركوا الوفاً من الالفاظ الفصيحة مهملة في مثاني معاجمها وهناك عشرات في الامصار العربية ممن احاطوا بأسرارها ووقفوا على فصحها ووفق بعضهم الى معرفة اصول كثيرة من الفاظها وكلهم آلون على رفع شأنها واصلاح ملاشيها لو شاءوا ولكنهم لامر ما مهملون واجبهم البنوي بيد ان بعضاً منهم يقومون بقسطهم من الخدمة على دزلة متجنبين سبل النشر مخفين علمهم ونتائج بحوثهم وكان يخلق بهم ان يذيعوها ليستفيد منها اخوانهم ويعمموها فأنا لذلك أثني على همة الاستاذ عبد الرحيم وأستأذنه باضافة بعض امتاء الامراض مما جاء على زنة فُعال تتمة لبحثه راغباً اليه ان يطلعنا على ما يقابلها بالافرنجية فاني اجهل ذلك ولا اجد امامي من الاطباء من استطيع الركون اليه في هذا البحث واني له سلفاً من الشاكرين واما الالفاظ فهي :

الرُّداع : وجع الجسد اجمع وقيل النكس ، والعُثار : ابتداء الغشوى ، والهيام : داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعاً فتهيم في الارض لا ترعى وقيل هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى وقيل داء من شدة العطش ، السُّهاف : العطاش ، والبوال : داء يكثر منه البول يقال اخذه بوال اذا جعل البول يعتريه كثيراً ، والسكات داء يمنع من الكلام تقول اصابه سكات ولعله بمعنى السكتة الداء الذي تتعطل به الاعضاء عن الحس والحركة الا التنفس ، وبمعنى السباه وهو سكتة تأخذ الانسان ، والعُساف : داء يأخذ الابل من الغدة وقال الاصمعي « قلت لرجل من اهل البادية ما العُساف قال حين تقعص حنجرته اي ترجف من النفس وهو للابل كالنزع للانسان ، والقُشاع داء يؤيس الانسان والبطاح مرض يأخذ من الحمى وروي عن ابن الاعرابي ان البطاح هو المرض الشديد

والملال : وجع الظهر — والتقلب مرضاً او وجعاً يقال اخذه الملال — وعرق الحمى ، والغُضاب : داء يصيب بصر الانسان يقال غضب بصر فلان على المجهول اذا انتفخ من داء يصيبه — وقيل هو الجذري فهو رجل مغضوب ، والجحام داء في العين يصيب الانسان فترم — وداء في رؤوس الكلاب فتكوى من بين عينيها ، والمُغاض : وجع يصيب الانسان في العين

والسُّواد : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء الملح ، والسُّواد : داء في الاسنان — وصفرى في اللون — وخضرى في الظفر وفي اللسان السَّواد بالفتح صفرى في اللون تصيب القوم من الماء الملح

والقُداد : وجع في البطن . والرُماع داء في البطن يصفر منهُ الوجه — ووجع يعترض في ظهر الساقي حتى يمنعه من السقي ، والشُفاف : وجع البطن أو وجع شفاف القلب — وداء يأخذ تحت الشراسيف من الشق الأيمن ، والقُضاع : وجع في بطن وتقطيع فيه وهو من الابدال اي من الانقطاع والتقطع ، وسمي ايضاً القَضْع والتقضيع ، والجُعام داء للابل وغيرها من الدواب يعرض من رعي النشر . وقال الهجري في نوادره انهُ داء يصيب الابل من الندى بأرض الشام يأخذها لِيٍّ في بطونها ، والحُباط داء يعرض للابل وهو وجع في البطن من كلأ تستوبله ويسمى الحَبَط ايضاً

والظُلاع داء في قوائم الدابة لا من تعب ولا من سير ، والعُقاف والقُفاع داء في قوائم الشاء تعوج منه وهي شاة عاقف جمع عواقف ، والقُوام داء يأخذ في قوائم الدابة تقوم منهُ فلا تنبعث ، والقُفاص : داء يصيب الدواب فتيبس قوائمها وقال الامير مصطفى الشهابي « كل التحام يحصل في مفاصل الدابة في اي موضع كان من قوائمها بسبب ظهور زوائد عظمية يسمى القفاص ولعلهُ بالفرنسية Fausse anhylose

والرُحام : داء في الرحم

والنُحاز : داء للابل في رئتها تسعل بهِ شديداً

والحُكاك : الجرب او داء يُحكُّ منه ، والحُعاص : الجرب لانهُ يتمعط من الشعر ويتناثر

والدُغام : وجع الحلق ومثله الدُباح والذباح والحُلاق

والدُكاع : داء يصيب صدور الخيل والابل قال القطامي :

ترى من صدور الخيل زوراً كأن بها نحازاً او دُكاعا

والسُواس : داء في اعناق الخيل ييبسها

والقُماص : داء في الصدر كأنه يكسر العنق — وداء في الغنم لا يلبثها ان تموت وفي الأساس «اصاب الغنم والناس قُماص داء يقمصهم ، اي يقتلهم مكانهم . وقد قمصت الشاة اذا اصابها القماص»

والنُقاز : داء للماشية شبه الطاعون تنقز منه حتى تموت مثل النزاء ، والذُباب : الطاعون

والقُحال : داء يصيب الغنم فتجف جلودها فتموت

وقُلاع الاذن : شقاق يعرض في اصل الاذنين يرشح بالمدة والماء الاصفر ، القُلاع ايضاً بثرات تكون في جلدة الفم واللسان ، والذُكاف : وجع يأخذ في الأذن — وقيل ورم يأخذ نكفتي البعير وقيل داء في حلوقها يقتلها قتلاً ذريعاً فلعله Mumps

والخُناع : داء يصيب الانسان في عنقه ، والقُماص التواء يأخذ في العنق من ريح كأنها تهصره الى ما وراءه

والقُدود : وجع يأخذ في الفم والحلق ، والخُطان داء يأخذ الطير في حلوقها

والحُماق : شبه الجدري يصيب الانسان فيتفرق في الجسد ، وقد حمق فهو محموق

والقُشاش : داء في المفاصل ، والخُبال داء في مفاصل الانسان وقوائم الحيوان يقلع منه وقد

حُمِّل فهو محمول وقالوا قَمَّسَ قُمَاساً اذا اخذه داء في المفاصل كالنشنج

والكُنَاع : قصر اليدين والرجلين من داء على هيئة القطع والتعقف يقال بها كُنَاع (التاج)

والشُّقَاق : تشقق يصيب ارساغ الدواب وربما ارتفع الى وظيفها [1] وتقول يد فلان ورجله شقوق ولا تقل شقاق ، واليُداء : وجع اليد وقد يدي من يده اذا ذهبت يده وليست يقال ما له يدي من يده وهو دعاء عليه كما يقال ما له تربت يداه (الصحاح)

والنفاص : داء في الشاء تنفص بابدالها حتى تموت يقال اخذ الغنم النفاص ، وقد اطم الرجل اذا احتبس بوله من داء يلم به ، واُطم عليه عسر عليه بروز غائطه واحتبس بوله فهو مأطوم ، وكذلك او تُطم عليه اذا اصابه الأطام وهو احتباس البول او تعسر بروز الغائط

والكُتَاف : وجع الكتف وقد كتف الدابة اذا اشتكى كتفه وظلع منها ، والخُرام فساد يعرض في جانب الكتف

والخُلاع شبه خَبَل يصيب الانسان ، والخُباط داء كالجنون وليس به ، والخُراع جنون الناقة — وانقطاع في ظهرها تصبح منهُ باركة لا تقوم

والقُعَاد : داء يُقعد من أُصيب به — وداء يأخذ في أدراك الابل فيميلها الى الارض ،

والذُبل : النقابات وهي قروح تخرج في الجنب فتنتفف الى الجوف

والشلاق بثر يخرج على اصل اللسان وقيل تقشر في اصول الاسنان Pyorrhoea

والحُمام : حمى الابل وجميع الدواب ،

والقُلاح : حفرة الاسنان — وخضرة بين اسنان البعير

ومما يلحق بالادواء الادوية فكثير منها على وزن فعول : كالسعوط وهو الدواء الذي يُستعط ، والنشُوق وهو كل دواء ينشق مما له حرارة او يدقى من الانف ليجد ريحه وحره . والسفوف وهو كل دواء يُذر خشن غير ملتوت او معجون ، والسهول : الدواء المسهل ، والاجور وهو الدواء يوجر اي يصب في الفم ، والنشوع وهو بمعنى الوجور ، والعقول وهو الدواء يعقل البطن اي يمسكه ، والحنوط وهو كل دواء يمنع الفساد ، والذَرُور وهو ما يذرُّ في العين وعلى الجرح ونحوه ، والدفوق وهو دواء يدق للعين واللدود وهو ما يصب بالمسعط من الدواء في أحد شقي الفم ج الدة ، والغرور وهو ما يتغرغر به من الادوية ، والقشور وهو دواء يقشر به الوجه ليصفر لونه ، والقبوء وهو الدواء يشرب للتيء . والزوق وهو دواء للجرح يلزمه حتى يبرأ ومثله اللصوق ، واللعوق وهو ما يلعق من الادوية ، والسنون وهو الدواء اليابس المسحوق الذي تدلك به الاسنان

النبك سورية سالم خليل رزق

---

(١) قال النهاني هذا الداء تسميه العامة الجلطام وهو بالفرنسية Javart cutané

حول ارشاد لغوي

مستشفيات صيغة صحيحة

يشكر الاستاذ عبد الرحيم بن محمود فيما قام به من نشر مباحثه اللغوية الاسلامية الثمينة وحسناً فعل بنشرها في المقتطف لانها المجلة العلمية الادبية الوحيدة التي يفاخر بها الشرق الناهض. وفي جزء فبراير ١٩٣٥ من المقتطف بحث ممتع من تلك البحوث المفيدة بعنوان «المستشفى» أجاد فيه كاتبه اللغوي اذ اوضح فيه ان «المستشفى» هي الكلمة العربية الفصيحة التي يجب ان تحل محل «اسبتالية» الدخيلة

وفي اثناء هذا البحث حاول الاستاذ القاء المؤاخذة بالخطأ على من يجمع المستشفى جمع مؤنث سالماً فيقول «مستشفيات». وفيما يلي تلخيص حججه التي بنى عليها هذا الرأي: —

١ — ان الف المستشفى لام الكلمة وليس للتأنيث، فهي مثل باء «مستغرب»

٢ — إنه لا يصح ان يراد بالمستشفى: بقعة الاستشفاء فيجمع حينئذ على مستشفيات لعدم صحة ان يقال. «هذه منزل». وقال لم ينطق بهذا عربي ولا مستعرب

٣ — انه سداسي وليس خماسيًّا كاسطبل حتى يصح جمعه جمع المؤنث السالم. هذه خلاصة دلائل الاستاذ التي بنى عليها رأيه في تخطئة صيغة «مستشفيات» اما نحن فسنقوم بايضاح صحتها تصحيحاً لحقيقة لغوية هامة. والمأمول من رئيس تحرير المقتطف ان لا يضن بنشر بحثنا هذا لان العبرة بما قيل لا بمن قال. نعم يا حضرة الاستاذ ان الف مستشفى هي لام الكلمة كما ذكرت وليست للتأنيث. وبما ان «مستشفى» يصح ان يكون وصفاً وبما ان هذا الوصف هو لما لا يعقل اي المكان المستشفى فيه، فقد نص علماء النحو والصرف على صحة وقياس جمع اشباهه بألف وتاء [1] فيقال مستشفيات كما يقال في جمع «مرتب» مرتبات

اما نفي الاستاذ لصحة ارادة بقعة الاستشفاء بالمستشفى فهو نفي تنفيه، ونفي النفي كما يقولون اثبات. فقد ورد في كتاب مغني اللبيب من كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري انه يصح مثل ذلك وقد نطق به العرب، لانه من باب التضمين. ولا خلاف في جوازه في الاسماء فتقول اتتك كتابي مريداً اتتك صحيفتي او رسالتي [2] كما يصح ان تقول «هذه منزلي» قاصداً به «هذه داري» ولا دليل للاستاذ على تخطئة «هذه منزلي» — في قوله تعالى «وقل رب انزلني منزلاً مباركاً» لان الآية جاءت على غير التضمين وهو الاصل. مما شرح يتضح ان صيغة «مستشفيات» هي صحيحة من هذه الناحية ايضاً. اما ان المستشفى سداسي لا خماسي، فهو صواب، ومما سبق ايضاحه بينا ان ذلك لا يمنع من صحة جمعه على مستشفيات وبناء على جميع ما تقدم فلا حق للاستاذ في تخطئة «مستوصفات» في جمع مستوصف ايضاً

المدينة المنورة — عبد القدوس الانصاري

---

(١) انظر الصبان على الاشموني (ج ١ ص ٤٧٣ ط ٢) ونص ما في المغني (ج ٢ ص ١٧٢ طبع المطبعة الشرقية بمصر): — ولقد حكى ابو عمرو بن العلاء انه سمع شخصاً من اهل اليمن يقول «فلان لثوباته كتابي فاشتراها» فقال له كيف قلت انه كتابي؟ فقال: اليس الكتاب في معنى الصحيفة؟

عود على بدء

أشكر للأستاذ الفاضل عبد القدوس الانصاري المدني لما أسداه إليّ من شكر وحمد لبحوثي اللغوية التي طابت بقراءته إياها في « طيبة » حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جدّي الذي أنتمي اليه نسباً وحسباً ودِيناً ولغةً . وأرجو أن يستذكر هذا الرد الموجز فيذكره

لا يصح أن يكون المستثنى الذي هو مكان الاستثناء وصفاً لمذكر غير عاقل حتى يجمع على مستثنيات كما يقال معادن مستخرجات والمفرد معدن مستخرج وكما يقال أشياء مرتبات والمفرد شيء مرتب وقد يحذف الموصوف ويكتفى بالصفة إذا اشتهرت كواجبات جمع واجب (التقدير شيء واجب أو أمر واجب) قال الناظم فيما ينقاس فيه جمع المؤنث السالم

وقف في ذي التا ونحو ذكرى ودرهم مصغر ومحقرا
وزينب ووصف غير العاقل وغيرُ ذا مسلّم للناقل

فوصف ما لا يعقل يجمع جمع مؤنث سالماً غير منازع ولا ينظر إلى عدد حروفه فقالوا جبال شامخات والمفرد جبل شامخ فشامخ وصف للجبل جمعوه على شامخات . وأيام معدودات والمفرد يوم معدود وقد أشرت إلى هذا في مقال بمقتطف فبراير ١٩٣٥ م فقلت (وإن عاملتَ ما زاد على الخمسة معاملته في الجمع فليكن ذلك في غير ما أشبه هذا) أي أن المستثنى اسم جنس (مثل مسجد وكنيسة وأسد ورجل فتجمع جموعاً مكسّرة فتقول مساجد وكنائس ورجال وأُسد أو أُسود أو آساد ويصح جمع كنيسة على كنيسات أيضاً لأن المفرد ختم بالتاء) وليس بوصف وكذلك مستوصف فتأمل . وما أغناك وما أغناني عن التضمين في هذا المقام والتضمين البياني شروط ليس هذا محلها أما التضمين اللغوي في الكلمات الجامدة فمقصور على السماع لتصون عرض اللغة عن الدنس وإلاّ اختلط الحابل بالنابل . وقول الحجة (أتتني لسان فكذبتها) دليل على أن المراد باللسان الوشاية وإن قيل أتتك كتابي فقد أريد أتتك رسالتي أو صحيفتي وهذا من التضمين اللغوي أي المسموع وقد أورد له علماء اللغة في ملاغيهم أمثلة معلومة إذ أنه من اللغة ، والاستعارة التبعية — ولا تكون إلاّ في المشتقات والحروف — من التضمين البياني المقيس وحسبي أن القرآن ذكّر المنزل وكفى بالقرآن دليلاً[1] فلا يجمع مستثنى إلاّ على مستثنَف . والحمد لله الذي وهب لي الرجوع إلى الحق إذا شمت له بريقاً فأعلن الصواب وإن لم يرشدني إليه مرشد فلست من المارين في الحق وكفى بالله شهيداً

عبد الرحيم بن محمود

(١) قال ابن الانباري (واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس تقول في منزل منزلات وفي مصلى مصليات) فعلى هذا يجمع مستثنى على مستثنيات ولا يخطّى، جمعه على مشاف وقد خالف جمهور النحويين ومنهم علماء الصرف — وليت الاستاذ الانصاري اطلع على قول ابن الانباري هذا فردّ به على ما نُبّه به خطأ على أن ابن الانباري لم يجعل منزلاً مؤنثاً ولا مصلى مؤنثاً ايضاً كما فهم ذلك من عبارته . وإني أقول رداً عليه ان ورد من العرب منزلات فهي جمع منزلة لا منزل أما مصليات فجمع مصلاة لا مصل كصلاة جمع علة لا محل الذي يجمع على محال

مكتبة المقتطف

حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك — صفحاته ٤٤٠ قطع المقتطف — طبع بمطبعة مصر

في دور من أدوار الحرب الريفية التي كان يخوض غمارها الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي (من سنة ١٩٢١ الى ١٩٢٥) كان في جملة حملة الاقلام الفرنسيين الذين زاروا المغرب لتغذية صحف فرنسا باخبارها كاتبٌ مهذَّب منصف هو المسيو إميل درمنغهام Emil Dermenghem ، فاتصل في محيط المغرب ببعض الشبان المغاربة المثقفين — ومنهم الاستاذ السيد أحمد عبد السلام بلافريج — فكشف له الاتصال بهم عن حقائق تتعلق بالاسلام ومبادئه وتاريخه وسيرة صاحب شريعته لم يكن اطلع من قبل عليها بمثل هذه الصراحة والوضوح وأسباب الاقتناع . فلما عاد الى فرنسا شرع يدرس حياة صاحب الشريعة الاسلامية ليسير الاساس الذي يقوم عليه تفكير اكثر امم الشرق من بضعة عشر قرناً الى الآن ، وكان في دراسته منصفاً . وما قد يكون وقع في كتابه من هفوات قليلة يرجع الى خطإٍ في الاجتهاد قد يتعرض لمثله كل باحث ، ولا سيما فيما يكون بعيداً عن محيطه

حرب الريف كانت الباعث للمسيو درمنغهام على تأليف كتابه (حياة محمد[1] La vie de Mohamet) وكتاب درمنغهام كان — بلا شك — الباعث للاستاذ الدكتور محمد حسين هيكل بك على تأليف كتابه بالاسم نفسه

بدأ هيكل بك دراسة حياة محمد (ص) بترجمة فصول من كتاب الاستاذ درمنغهام ونشرها في السياسة الاسبوعية ، وكان يقدر عند ما امسك القلم ليكتب لقراء السياسة الاسبوعية ترجمة كتاب درمنغهام انه سيقف عند هذا الحد وسينتهي بترجمة كتاب فرنسي بالعربية . ولكنه لما سار في عمله شوطاً اعترضته النصوص العربية التي نقل عنها درمنغهام ، والاعلام العربية التي تكلم عليها درمنغهام ، والجوّ الذي كان موضوع كتاب درمنغهام ، فصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يرجع الى النصوص العربية فينقل منها تمادياً من ترجمتها مع وجود اصلها ، وصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يحقق الاعلام العربية تمادياً من تحريفها عند نقلها من حروف اللاتين الى حروف العرب وامعاناً في معرفة مدلولاتها . وبذلك تحوّلت الترجمة الى تأليف ، وكان من هذا العمل كتاب (حياة محمد) الذي نشره الدكتور هيكل بك على قرّاء العربية فاحتفل به اصدقاؤه وزملاؤه رجال الصحافة والعلم وكان لذلك دويٌّ بعيد

لقد كانت الصحافة العربية في حاجة الى أن يدرس قادتها مثل هذه الموضوعات التي يحج

(1) Librairie Plan, 1929, Paris

المستشرقون الى بلاد مترامية الاطراف ابتغاء درسها والوقوف على احداثها كما وقعت، ويتجشمون في سبيل ذلك جهوداً ونفقات وإعمال فكر قد لا نحتاج نحن الى جزء قليل منهُ لنقوم بعمل أجود من عملهم وأصح وأجمل ، ولست ادري لماذا يزهد كتابنا في ذلك وفيه ما فيه من توثيق اواصرهم بالامة التي ينسجون دقولها ويكرّنون رأيها العام ، وستبقى غريبة عنهم ما داموا في معزل عن الاضطلاع بتاريخها وإكمال سلسلة ماضيها حتى يتصل بآتيها

من ميزات التاريخ الاسلامي ان مادته حُفظت بأمانة وعناية وبالرغم مما ابيد منها في حوادث جلاء العرب عن اسبانيا ، وفي حوادث غزوة الصليبيين للشرق ، وفي حوادث اكتساح التتار غرب آسيا ، بل بالرغم مما اضاعه المسلمون انفسهم في عصور الجهل الاخيرة ، فان الذي ورثناه من تركة السلف الادبية كاف لبناء مجموعات في تاريخ هذه الاوطان الاسلامية تباهي بها الامم ، وتسمى أرقى أمم الارض لو ان اجدادنا كانت في صفحات تاريخها ووقائع ماضيها . فالمادة التي يبنى منها صرح تاريخنا موجودة بين أيدينا ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قدر أنفسنا في حاضرنا الاّ اذا علمنا قدر أنفسنا في ماضينا ، ولا يمكن ان نعين مطمحنا القومي الاّ اذا عرفنا اتجاه قافلتنا في التاريخ . ولدراسة تاريخ هذه الاوطان في بضعة عشر قرناً الماضية أثر عظيم في الروابط بين الاوطان التي تشترك الآن في هذا التاريخ

اهمال كتابنا هذا الواجب كان مما يؤاخذهم عليهِ الجمهور ، وقيام بضعة مؤلفين — آخرهم الدكتور هيكل بك — مما يدل على عناية جديدة بالتاريخ الاسلامي وقع عند الناس موقعاً حسناً ، لان أمة تملك ثروة عظيمة من امجاد التاريخ لا يعقل ان تبقى الى الابد محرومة من دفتر حديثة تسجل ثروتها وتعرضها على انظار الاقربين والابعدين

كتبنا القديمة في التاريخ مادة خصبة للتأليف ، بل هي عين ثرة وينبوع غزير من ماء عذب زلال لا نظير له في مصادر التاريخ عند الامم الاخرى . فدولة الرومان وهي أقرب الدول القديمة زماناً وأعظمها عمراناً ، وأشهرها تشريعاً ، لو اراد مؤلف أن يدوّن سند شرائعها التي هي اليوم من أهم مصادر القانون الحديث لما وجد شيئاً تطمئن النفس اليهِ يرجع الى زمن تلك الشرائع . وقس على ذلك كثيراً مما لا يتسع المقام هنا لاستعراضه او الاشارة اليهِ

لقد كان الدكتور هيكل بك موفقاً في هضم موضوعه والاحاطة بأطرافه ، فأنشأ انشاء افرغ عليه من جمال الاسلوب وحسن التعبير ونظام التبويب والتقسيم ما يحببه الى القارىء ، ولاسيما القارىء الناشىء الذي اعتاد أساليب العصريين ، فصار لا يأنس الاّ بها ولا يستفيد الاّ منها . ولكن لاحظ عليهِ الكثيرون أنهُ ربما لم يفكر الاّ بهؤلاء عند ما دوّن كتابه

الموضوع الذي اضطلع بهِ الدكتور هيكل بك حياة نبيّ ، وحياة الانبياء فيها جانب غير عادي ولا يمكن لمؤلف يتعرّض لكتابة في حياة نبي أن يغفل هذا الباب غير العادي الاّ اذا ألّف كتابه لفئة دون فئة وأراد أن يكون لاهل مشرب معين لا تأليفاً عامّاً . لان جميع الانبياء ثبت وقوع

الخوارق على نبيهم ، والتوراة والانجيل والقرآن مليئة بذلك ، وجميع امم الارض مصدقة بوقوع الخوارق للانبياء ، وما وقع من ذلك لنبي الرحمة الذي اختصه الدكتور هيكل بك بتدوين حياته ثابت بروايات صحيحة معروفة الاشخاص ، واذا فتحنا باب الشك في قبول رواياتهم فتحنا بذلك باب الشك في جميع وقائع التاريخ بل في جميع ما تنقله الصحف الآن من الحوادث العصرية لانه ليس شيء منها اصح سنداً واصدق شهوداً من هذه الحوادث التي مهما اوّلنا بعضها وخرّجنا بعضها تخريجاً يشوطها الى حوادث عادية ، فانه سيبقى بعد ذلك ما لا سبيل الى تأويله وتخريجه ، والاّ لم يكن النبي نبيًّا ويكون مصلحاً أو مرشداً أو قائداً . فجانب النبوّة في حياة النبي له صفاته ولوازمه ، وله في أي كتاب يؤلّف في حياة ذلك النبي حقُّهُ من العناية ، والاّ كان للكتاب صبغة خاصة يفرضها عليه مؤلفه ويختارها له ، وكان للذين يحترمون ذلك الجانب من حياة الانبياء وهم يعدّون بعشرات الملايين بل بمئات الملايين عذرهم اذا اعتبروا الكتاب خاصًّا لا عامًّا . والمعجبون بكتاب الاستاذ هيكل بك يريدون لكتابه اكثر مما أراد هو لهُ

وهذا المسلك الذي سلكه هيكل بك أدّى به الى أن يفهم قراؤه (ص ٩٥) ان شيئاً من القرآن (سورة العلق) نزل على النبي (ص) في المنام كما أدى به الى ترجيح الرواية القائلة عن عائشة في الاسراء (ص ١٥٣) : « ما فُقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه » ، ولعلهُ لاجل ترجيح هذه الرواية وضع حادثة الاسراء بعد حادثة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها . واذا علم القارىء أن الاسراء كان قبل زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وانها كانت في زمن الاسراء طفلة بعيدة عن منزل النبي صلى الله عليه وسلم ولا تعلم متى يبيت في منزله ومتى يفارقهُ ، يتبين حينئذ ان ترجيح هذه الرواية لا يوافق قواعد البحث ، وان تأخير حادثة الاسراء الى ما بعد زواج عائشة إخلال في ترتيب الوقائع ترتيباً تاريخيًّا

أما التهاب في تأويل حادث المعراج مذهب وحدة الوجود ، فالاسلام لا يعرف وحدة الوجود ، لان الوجود في نظر الاسلام اثنان : واجب الوجود وجائز الوجود ، فواجب الوجود أزليّ أبديّ وهو الخالق وحده بصفاته المعلومة في القرآن ، وجائز الوجود هو هذه المخلوقات المتغيرة . ولا معنى لوحدة الوجود في نظر الاسلام الا اعطاء الكون صفة القدم والبقاء — اي الوجود وجوباً — ومعنى ذلك تألية الكائنات وهو ليس من الاسلام

أما المقدمة البديعة التي توّج بها الاستاذ الاكبر فضيلة الشيخ المراغي كتاب الاستاذ هيكل بك فقد وقع فيها سبقُ قلم نأمل تلافيه في الطبعة الثانية ، وهو قول فضيلته « وجاء الوحي مفصّلاً قاطعاً في كل ما يخصّ ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للاسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول » . نعم ان الوحي — وبوجه اخص القرآن — جاء بالهداية الى الطريق ، وترك الدلالة على الطريق للرسول ، فالقرآن

ليس محلاً تفصيل فيما يخص النظم الاجتماعية ، لكن الاسلام كان صريحاً في انهُ دين عقيدة وعبادة وحكم ، وانهُ جاء للارشاد الى سعادة الانسان في الدنيا كما جاء للارشاد الى سعادته في الآخرة ، وليس ما في القرآن عن معاني الحكم في الاسلام والاشارة الى احكامه اقل مما ورد في القرآن عن العبادة وكيفيتها، كالصلاة وهي عماد الدين ورأس العبادة، لا نستطيع ان نفهم من القرآن كيفيتها وعدد ركعاتها وما يقرأ فيها . وما في القرآن عن الجهاد اوضح بياناً مما فيهِ عن الصلاة

وهناك امور اخرى في الكتاب نبه عليها كثيرون من اهل الفضل كالاستاذ الشيخ احمد محمد حميدة والاستاذ الشيخ محمد زهران ، وكلها جديرة بأن تراعى عند اعادة طبع الكتاب . ان شاء الله

واننا نتمنى أن يجعل الدكتور هيكل بك في وقتهِ نصيباً لمتابعة التأليف في سلسلة تاريخ الاسلام الذهبية ، فان ما استقبل بهِ الناس كتابه جدير منهُ بمواصلة هذا العمل المجيد

محب الدين الخطيب

أديب

تأليف الدكتور طه حسين — يطلب من مكتبة النهضة المصرية — ثمنه ١٠ قروش مصرية

الدكتور طه حسين اديب فذ نبه اسمه بين كتاب الشرق في القرن العشرين ، كما نبه اسم الاديب الفرنسي العظيم صاحبه في اواسط القرن التاسع عشر ، وهو كصاحبه الفرنسي ذكي القلب خصب الخيال موفور النشاط ، عظيم الاعتداد بفنه ، جريء في النقد ، كلف بالحرية في شتى مناحي التفكير والكلام ، ولكنه ابعد من صاحبه الفرنسي اثراً في الحياة الادبية ، فهو رجل ثورة وكفاح ، وهو رجل مفاجآت لا يبرح يثير حوله كل يوم تيارات عنيفة من النقد الرائع والنقاش الممتع البارع وهو صاحب مدرسة من اجل ذلك كثيرة الانصار المعجبين به وبأدبه ، على انها كثرة يناوحها جمهور آخر ممن لا يرضون عن مذهبه في التجديد كل الرضا ، ولا يسلمون بآرائه في المدرسة القديمة وان شئت فقل من هؤلاء الذين يباديهم فيفوتهم ولا يملكون له رداً ولا يستطيعون معه صبراً . على ان هؤلاء الراضين والمغضبين يتلاقون على رأي واحد فيه ، ذلك انه استحدث لغة جديدة في النثر العربي الحديث لها من رشاقتها وطلاقتها وجزالتها وعذوبة جرسها مميزات الفن القصصي وخصائص لغته العالية التي لا تضيق بالحوار والوصف والتحليل في اسلوب فاتن وتخلص رشيق

وقصة اليوم «أديب» مزاج معتدل من تلك المميزات والخصائص ، على ان لها بعد ذلك قيمتها فهي ان لم تكن ترجمة حياة الكاتب نفسه ، او ترجمة فترة من حياته ، فهي عرض صادق لحياة الجيل الذي عاش فيه واستقراء لآرائهِ في كل ما لابس شؤون الادب والعلم والفكر والحياة جميعاً . وهي ذكريات الحياة الحلوة الوادعة المضطربة الكثيرة الاحلام والاهواء التي ينعم بها العقل والقلب معاً في تلك القصة الممتعة ويستروح فيها الشباب الطامح ارق ذكريات الصبا والحب والامل

قرأت هذه القصة مرتين فخرجت من قراءتها باعجاب لا حدَّ له ، ولا زلت اذكر ليالي القرية والقناة

وحديقة المعلم وشجرات التوت واولئك الفتيات الفقيرات بحسان المتبذلات بحكم الفقر وهن يطوفن بالحقول يلتمسن افواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . ثم ذلك الوصف الرائع لطبيعة مصر وجمال ريفها الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على اهله حين يخرجون من اطوار الجمود ويفنون في طبيعتهم ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج لهم جد الاداة وصدقها واستقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى وبعدها عن الملل والسأم . ويمضي الكاتب في هذا التصوير الرشيق البديع الذي لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات «اديب» . والذي يذكرنا بصفحات اخرى من كتابه «في الصيف» الذي يدل على ترف في الحس ورقة في الشعور والتفاتات ذهنية خاطفة لا تكون الا للشعراء المغنين او الفنانين الموهوبين الذين تكشف لهم الطبيعة عن اسرار خلقها وابداعها

وهانذا انطلق بك من ذلك الجو السحري الهادىء الذي يستغرق التأملات في دعة وطمأنينة الى جو آخر يرسمه لنا الكاتب بألفاظ لها من جرسها سرعة الحركة - وخفة الطيف ، وتنقل الاشباح ، وذلك الغموض الرهيب الذي يكتنف حياتنا احياناً حين نقبل على امر من الامور التي تستبد بضمائرنا فنمضي وكأننا نستعجل دورة الزمن او نتاجىء القدر . ونحس هذا كله في حديث العربة حيث يقول:

« واذا بالباب يطرق طرقاً عنيفاً واذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، واذا هو يدعوني في صوت سريع الي ان انهض فالبس ثيابي واخرج معه ، وان اسرع ، فان العربة تنتظرنا واحاول ان اسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التي تنتظرنا والى اين يريد ان يذهب بنا ولكنه لا يجيب ، وانما يستعجلني ويلح في الاستعجال ، حتى اذا تركته وذهبت لالبس ثيابي سمعته وهو يذهب ويجيء كالمجنون ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم اخرج له فيخطفني خطفاً ، ويعدو بي عدواً حتى يلقيني في العربة القاه ... »

ومثل هذا الابداع والترسل كثير حين تقلب صفحات هذه القصة الممتعة وانت لا تخطىء فيها فنوناً شتى من التحليل النفسية ذلك الاديب الطموح وحياته المضطربة بين الامل واليأس ، وحديث ذلك الصراع بين القديم والجديد الذي حملت لواءه مصر من فجر القرن العشرين الى اليوم وانت لا تخطىء ذلك التصوير المحزن احياناً لحياة السواد في مصر او عقلية آبائنا في نظرتهم الى العلم والى ما يصيب نفوس ابنائهم من دنس واثم اذا ما استقلوا السفن الى اوربا في سبيل تحصيله ، وانت لا تخطىء وصفاً بديعاً لحياة هؤلاء الشبان الذين بهرت البابهم ثقافة الغرب فوردوا الا يحول بينهم وبينها حائل من التقاليد او المادة ، وانت لا تخطىء نبل الفطرة وتسامي الانسانية عن النظم الأرضية وأوضاعها في سياق تلك الرسائل التي تحدث فيها المؤلف عن صاحبه الالماني ، وانت لا تخطىء بعد هذا كله الواناً شتى من الادب الحي والثقافة العالية والفلسفة المستقيمة في صفحات هذه القصة التي هي قصة الحياة والتي تعد في حقيقتها متممة لكتاب الايام الذي فتح به الدكتور طه أفقاً جديداً في عالم القصة العربية

**

الاسلام والتجديد في مصر

الف بالانكليزية الدكتور شارلز ادمز وترجمه الى العربية عباس محمود ونشرته لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

كأنَّ الاستاذ عباس محمود عز عليه أن ينفرد باحث اجنبي بالبحث في ناحية من أهم نواحي الحياة الاسلامية عز اسلوب علمي منظم لم يحد عن سبيل الانصاف والنزاهة في الحكم، فنقل هذا البحث إلى اللغة العربية نقلاً راعى فيه الدقة والضبط وتحقيق كل نص ومراجعة الأصل الذي أخذ منهُ، ثم وضعهُ تحت نظر القراء المسلمين ليستفز شعورهم ويحرك همتهم للعناية برجالهم والانتباه الى سير ثقافتهم في تطورها بسبب اتصالها بمختلف المؤثرات الاجنبية

يبحث الكتاب في حركة التجديد الاسلامية في مصر، فيصور نواحيها المختلفة، ويصف الاشخاص الذين قاموا بها وصفاً تحليليًّا مفصلاً، فيعرض للمغفور له الأمام الشيخ محمد عبده ويعرض لتلاميذه الذين اقتبسوا من روحه وساروا على نهجه. والشيخ محمد عبده شخصية من اكبر الشخصيات الجديرة بالاحترام في تاريخ الاسلام الحديث، وهو زعيم حركة التجديد الاسلامية في مصر، ولاشك ان الذين درسوا افكار المسلمين في مختلف بلادهم يعرفون مبلغ تأثير الشيخ محمد عبده في مصر بل وفي جميع بلاد الاسلام من اقصاها الى اقصاها. وقد كان الامام شخصية متعددة النواحي، تقلب في مختلف شؤون الحياة واضطلع بمختلف اعبائها فبينا تراه عالماً وصحفيًّا وقاضياً تراه ثائراً سياسيًّا ومصلحاً اجتماعيًّا وزعيماً دينيًّا يستهدف لخطر النفي وألم الاغتراب والخصومة، فيبرهن بذلك على قوة في الايمان وتمسك بالغاية وهمة لا تنضب. وانت تراه في هذا الكتاب مثالاً من الرجولة الكاملة التي يجب ان يقتدي بها

لم أكن قبل ظهور هذا الكتاب اعرف الكثير عن حركة التجديد الاسلامية في مصر، مثلي في هذا مثل سائر ابناء الجيل الناشيء الذين لم يولدوا الاَّ بعد أيام محمد عبده ولم يفطنوا الى مختلف شؤون الحياة الاَّ بعد وفاته بزمن طويل. ولم يكتب عن تلك الحركة كتاب مختصر سهل التناول مرتب يغري الشاب بمطالعته. فهذا الكتاب يكشف لابناء الجيل الناشيء عن صفحة هامة من تاريخهم الفكري القريب ومن تاريخ العلاقة بين دينهم وبين مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، لان النهضة السياسية صارت مقارنة لهذه النواحي ولا غنى لمن يريد معرفة احداها عن ان يلم بالاخرى: لما بينها جميعاً من تأثير متبادل، وهي خاصة يمتاز بها تاريخ الثقافة الاسلامية من اوله الى آخره، لان الاسلام ليس عقيدة فحسب بل هو مدنية كاملة متشعبة النواحي، فله فلسفته الخلقية ونزعته العقلية ومذهبهُ السياسي وآراؤه الاجتماعية. والحق ان الاسلام هو الذي يميز الشخصية الشرقية عن الشخصية الغربية، فهو عنصر اصيل متمكن في حياة الشرق، والشرق الآن يتصل بالغرب اتصالاً وثيقاً ويتأثر به تأثراً بعيد المدى، والمسلمون يسلكون إزاء مدنية الغرب

مسلكاً يختلف باختلاف شعوبهم ، ولم يتخلون وسائل كثيرة ويصطنعون أسلحة الغرب ذاتها دفاعاً عن شخصيتهم وذوداً عن دينهم ورغبة في التوفيق بين مقوماتهم الدينية والاجتماعية وبين العوامل الآتية من الغرب ليبرهنوا على أنهُ خير دين وانه يوافي حاجة الانسانية في كل أطوارها

والكتاب الذي نحن بصدد القول فيه يبحث في هذه النواحي في مصر ، ولا غنى للشرقيين — بعد ما تقدم — أن ينظروا في أنفسهم ويعرفوا الوجهة التي يقصدونها والعوامل التي تؤثر فيهم وان يعرفوا جهود المجاهدين في هذه الناحية ليواصلوها ويصلحوا ما فيها من خطأ ليمكنهم المحافظة دائماً على مقوماتهم التي لا حياة لهم الاَّ بها . فالكتاب اذن حلقة لا غنى عنها من حلقات تطور الفكر الاسلامي ، جديرة بالبحث والتمحيص ، ثم هو قد ألفه اجنبي يستطيع ان يرى من شئون المسلمين ما قد يخفى عليهم احياناً ، وعلى كل حال فله قيمة اخرى لانهُ من وجهة نظر غير وجهة نظرهم

والكتاب يثير مسائل كثيرة جديرة بأن تنال من عناية الباحثين ما هي خليقة به . يقول الباحثون ان الاسلام اليوم ، وهو يواجه المدنية الغربية بتنوع نواحيها ، في موقف شبيه بموقفهِ منذ ألف عام حينما كان يواجه المدنية الاغريقية . واذا كانت تلك الصفحة الهامة من تاريخ الاسلام وصلته بمدنية اخرى قد طويت ، ومن الاسف انها لم تسجل تسجيلاً علمياً دقيقاً ، فيلبغي ألاَّ يفوتنا تسجيل هذه الصفحة القريبة العهد قبل ان تعدو عليها عوادي النسيان . ولا شك أنهُ من الشائق ان نوازن بين الموقفين على قدر الطاقة . فالاسلام هو هو بأصوله المقررة وهو مع ذلك يتسع روحه فيهضم مدنية اليونان ويتمثلها ويصبغها بصبغته ، وهو يريد اليوم هضم المدنية الاوربية الحديثة وصبغها بصبغته ايضاً معتدًّا بأسلحتها العلمية والفلسفية والاجتماعية

وقد اتصلت بلاد الاسلام بمختلف الدول الاوربية . وكل بلد اسلامي يسلك ازاء الدولة الاوربية التي اتصل بها مسلكاً خاصًّا ويتأثر بها الى مدى معين ، فالبلاد الاسلامية متعاونة في أخذها لمدنية الغرب وتأثرها بها ، وفي هذا مجال للموازنة واسع شيق ، وشتان ما بين ما يجري في تركيا وبين ما يجري في غيرها من بلاد الاسلام ، وقد نالت حركة التجديد من العناية في كتابات المستشرقين الذين اختص كل منهم بناحية كتب عنها ، وما أحرى المسلمين ان يلموا بهذا كله ويوجهوا اليه ما يستحقه من عناية وينتفعوا بما يمكن ان يكون فيه من ثمرات ، وهذا الكتاب يوجه نظرتنا لهذه الناحية

ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة انهُ يشير الى النهضة السياسية والادبية في مصر الحديثة ، ويبين علاقة كل منهما بحركة التجديد ، فيوجه نظر الباحثين الى هاتين الناحيتين ليدرسوهما درساً أكثر تفصيلاً . ولست ازعم ان الكتاب قد الم بكل تفاصيل موضوعه بل هو اشار الى اهم ما فيه وترك مجالاً لباحثين آخرين

فالشكر للاستاذ ادمس وللاستاذ عباس محمود وللجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية لما بذله كل من جهد في هذا العمل الجليل

محمد عبد الهادي ابو ريدة

تاريخ شرقي الاردن وقبائلها

تأليف الفتنت كولونيل لردلك ج . بيك . ترجمة بهاء الدين طوقان . مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس

قد يظن المرء ان شرقي الاردن لا يستحق تاريخاً ولكن المؤلف بين باسلوب حسن جداً انهُ جدير بذلك لانهُ على طريق الغزاة بين اشور وفارس ومصر فهو الطريق التي تمرّ فيها الجيوش الغازية وانهُ يتعذّر عليَّ نقد هذا الكتاب الجليل باسطر قليلة ولكنني سأفعل ذلك على قدر المستطاع . فالكتاب جزءان جزء تاريخي وجزء في وصف قبائل شرقي الاردن فنبدأ اولاً بالجزء التاريخي

فالجزء التاريخي من ازمنة ما قبل التاريخ الى يومنا وهو مكتوب بدقة عظيمة وجهد كبير ومؤيد بالاسانيد الكثيرة فقد ذكر المؤلف ما قبل التاريخ ثم مجيء بني اسرائيل وحروبهم ثم دخول الاشوريين والبابليين والفرس ثم اليونان في زمن الاسكندر ثم البطالسة وثورة اليهود ثم دخول الرومان ومملكة اليهود في زمن هيرودس ومملكة الانباط والغساسنة وحروب الغساسنة والمناذرة وما جرى في تلك البلاد الى الفتح الاسلامي وما وقع من الحروب بين العرب والروم الى ان استتب الامر للعرب ثم فصل في الحروب الصليبية الى جلاء الصليبيين ثم دخول الترك العثمانيين ثم جلاؤهم ودخول الحلفاء وجميع ما تقدم مؤيد بالاسانيد التاريخية كما ذكرنا . اما الجزء الثاني فخاص بقبائل شرقي الاردن ذكر فيهِ المؤلف القبائل واحدة واحدة ونصف في ذكرها على عادة الضباط البريطانيين في الانصاف بلا محاباة وانا لا ادري هل الجزء الاول اي التاريخي خير من الجزء الثاني فكله حسن جداً يأخذ بمجامع القلوب والترجمة حسنة ولغته كذلك حسنة مما يدل على سعة اطلاع المؤلف والمترجم واني لا اجد فيه مجالاً للانتقاد الاَّ اموراً طفيفة لا بد انها وقعت سهواً من المؤلف او المترجم

منها في ذكر حيوانات البلاد قوله الفهود الصغيرة واظنهُ يريد النمورة واشباهها

فجميعها كانت في شرقي الاردن الى عهد قريب وهي اربعة انواع النمر Leopard والفهد Hunting leopard or cheeta والوَشَق ويقال الشِبب وعناق الارض Caracal وأما النمر Tiger فبالطبع لا يكون هناك ولا عبرة لما جاء في المعجمات خلاف ذلك . وقال في الزراعة ان الدخان والقنب قديمان هناك فالدخان حديث لا يعرف في البلاد العربية قبل الالف للهجرة قال الشاعر في وصفه

سألوني عن الدخان فقالوا هل له في كتابكم ايماء
قلت ما فرط الكتاب بشيء ثم ارخت يوم تأتي السماء

أما القنب فقديم جداً ولاسيما الهندي منه زرعه المصريون القدماء ومما يؤخذ على المترجم قوله جستنيان واظن الصواب يستنيانس بالياء المثناة ومثله ترجان واظن الصواب تريانس أو طريانس فان العرب كتبوا هاتين الكلمتين وأمثالهما بالياء منها بوليوس ويسوع وبوسعوس وبايزيد ويعقوب وهي كثيرة ويستنيانس أو يسطيانس هذا هو القيصر صاحب امرء القيس واظن فؤاد باشا الخطيب لا يزال يذكر انشاده قصيدة

امرء القيس بصوته الرخيم في طريقنا الى جدة لاذكاء نار الثورة العربية وقول امرىء القيس

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت لهُ لا تبك عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

فيستليانس هو القيصر الذي وفد عليه امرىء القيس في القسطنطينية وما يؤخذ على المؤلف قوله ان بعلين ودوزارس وعلات آلهة مأخوذة من اليونانية والظن الصواب ان هذه الآلهة عربية وسوابها بعل أو هبل واللات وذو الشرى وهو صاحبنا باخوس وقد جرت العادة حتى الآن لنسبة كل شيء الى اليونان كقولهم ان سيريوس اي الشعرى يونانية من مادة يونانية معناها احرق والصواب هي سامية قديمة جداً كما نجد في مادتي سمر وشعر في كتب اللغة وما يؤخذ على المترجم استعماله التعريب بمعنى الترجمة فالتعريب على الاصح خلاف الترجمة ولا ادري لاي سبب جرى بعض الكتاب في الشام على ذلك فيقولون هذا الكتاب تعريب فلان والصواب ترجمتهُ وقوله في صدر الكتاب الاردن بفتح الهمزة والصواب ضمها . قال المتنبي

وقعت على الأُردنّ منهُ بلية تضمنت بها هام الرقاق تلولا

هذه هنات قليلة جداً كنت اود ان يخلو منها هذا الكتاب النفيس

والكتاب مقدم الى صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرقي الاردن ومزين برسوم كثيرة منها رسم الامير ورسم نجليه الاميرين طلال ونايف ورسم المغفور له الأمير شاكر من أبطال الثورة العربية ورسم مؤلف الكتاب وغيرهم . وقد قال المؤلف في أول الكتاب انهُ ليس له أية صبغة رسمية وهذا صحيح فقد قرأته من اوله الى آخره فليس فيه شيء من السياسة او الامور الرسمية ولكن ما قول المؤلف في سورة الزعيم كلوب بك فلو ازدردتها أنا فلا اظن سائر العرب يقوون على ازدرادها وهضمها فقد ازدردوا كثيراً حتى الآن. أما القول بأن كلوب بك لا صفة رسمية لهُ او سياسية فقليل من المعد يقوى على هضمها ! على أن الكتاب نفيس جداً يعود على مؤلفه ومترجمه بالثناء العظيم

مصر الجديدة امين المعلوف

مقتل عثمان بن عفان

تأليف محمود النواوي عضو الماجستير في التاريخ الاسلامي بالجامعة المصرية

كنت اعتقد ان موضوعاً كموضوع مقتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، موضوع لا يمت الى طبيعة الاشياء بصلة ، وانما هو حادث من حوادث جمة انتابت الاسلام في ابان قيامه . لكنني اذ انتهيت من قراءة ذلك السفر الجليل عن هذه المأساة المروعة استشعرت من نفسي القوة على ربط الحوادث التاريخية بعضها بأطراف بعض ، وخرجت من ذلك كله بأن هذا الحادث وان يكن مشئوماً في ذاته ، الا انه كما يقول المؤلف نتيجة ثورة ، كانت المنفذ الطبيعي أمام شعب ساخط رأى دستور الدولة في يد اناس يتعصبون لقوي قرباهم من سائر عباد الله المسلمين ، وما

هذه الثورة الا النتيجة الكيائية لجملة مواد كانت فوق بوتقة ما لبثت ان تفاعلت كلها بعضها مع بعض وتمخضت عن قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهُ »

هذا مثل من الامثلة العديدة التي يسجلها المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه بمثابة آراء شخصية له . وهي ميزة تميز الطابع الذي اطبع به المؤلف في دراسته التي تشرب بها في الجامعة. فهو صريح في تحليل مختلف الآراء شأنه في ذلك شأن كبار المؤرخين الذين لا يكتفون برواية الحوادث التاريخية فحسب بل يعللون هذه الحوادث ويرجعونها الى أسباب قد تكون غامضة بعض الغموض فما يزالون بها حتى يكشفوا الستار عنها

على ان المؤلف قد تعرض في الحقيقة لبحث نقطة واحدة من التاريخ الاسلامي على جانب كبير من كبر الشأن والدقة قلَّ من تعرض لها من المؤرخين على حقها . فمقتل الخليفة عثمان بن عفان هو حلقة وسطى بين عهد دستوري وبين عهد دستوري آخر . عهد دستوري نشأ بنشوء الاسلام ويعتمد على كلمة الله ، وعهد دستوري آخر اظهر سلطة الامة وصوت الشعب الى جانب كلمة الله . بل ان مقتل عثمان كان بصريح العبارة اول ثورة في الاسلام على المحاباة والمطامع الاشتراكية

وقد قدم الكتاب للجمهور حضرة الدكتور حسن ابراهيم حسن استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية فشاد بذكر المؤلف — وهو من تلاميذه — وعنى عليه مواصلة البحث والدرس حتى يكشف عن كثير من حوادث التاريخ الاسلامي الغامضة ميشيل سليم عبده

جبال النور

[بقية المنشور في صفحة ٢٤]

وارتفاع هذا الهرم المرهوم يساوي ١٣٧ ١٢٩٥ سنتيمتراً اي ١٢٩٥ متراً اي ان « جبل النور » الهرمي الشكل هذا يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة اكثر من ١٨٣١٥ كيلو متراً وارتفاعه اكثر من ١٢٩٥١ كيلومتراً . فتأمل ! !

واذا بسطت هذه البرتقالات اللوامع فوق سطح الاراضي المصرية الصالحة للزراعة لبلغ ارتفاعها :—

$$\frac{\text{٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً حجم البرتقالات اللوامع}}{\text{٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع مساحة الاراضي المصرية الصالحة للزراعة}} = \text{٠٫٠٦٤ كيلو متراً}$$

ولأصبحت الاراضي المصرية الصالحة للزراعة التي تبلغ مساحتها اثنين وثلاثين الف كيلو متر مربع صحيفة لامعة متلألئة تسر الابصار بارتفاع أربعة وستين متراً . فتأمل ! !

ولكن دعني أهمس في أذن قارئي العزيز أن هذا لن يتم فهذه البرتقالات بحجمها الطبيعي العظيم معلقة في الفضاء متماسكة بقوة الجاذبية فاذا ما جمعناها على الوجه الذي تخيلناه لاختل نظام التجاذب الكوني ولهوت كرتنا الارضية وتخبطت في الفضاء اللانهائي ، فسبحانك اللهم يا مبدع الكائنات

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

صفحة

١ اثبات الابوة
٨ لورنس والثورة العربية (مصوّرة)
١٦ سوريا في زمن الصليبيين . لنقولا زيادة
٢٣ جبال النور : لصبحي جلبي
٢٥ عالم المستقبل العجيب
٣٧ انعاش التصنيف في الحيوانات الدنيا : للامير مصطفى الشهابي
٤٢ البعث الاول (قصيدة) : لعلي محمود طه
٤٣ لواء الادب القديم : لاحمد يوسف
٤٧ خدمات العرب للكيمياء الحديثة : لحسن السلمان
٥٤ الپاپاز : ثمر عجيب: لعوض جندي
٥٧ الشعر الحديث : للدكتور احمد زكي ابو شادي (مصوّرة)
٦٥ موسى بن ميمون : للدكتور الفريد يلوز (مصوّرة)
٧٠ عيد بنك مصر وخطبة طلعت حرب باشا (مصوّرة)
٨١ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

---

٨٥ باب سير الزمان : الثورة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . الملك جورج الخامس والتاج البريطاني . تتويج جورج الخامس
١٠١ باب مملكة المرأة : الزواج والبيت والاولاد . من نافذة القطار : لكامل كيلاني . للاتجاه الجديد في تربية الاطفال : لاغنس دي ليا . درة البول عند الاطفال : للدكتور عبده رزق
١١١ باب المراسلة والمناظرة : ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود . أمراض وأعراض بوزن فعال : لسالم خليل رزق . حول ارشاد لغوي : لعبد القدوس الانصاري عود على بدء : لعبد الرحيم بن محمود
١١٨ مكتبة المقتطف ● حياة محمد : لمحب الدين الخطيب . أديب . الاسلام والتجديد : لمحمد عبد الهادي ابو ريده . تاريخ شرق الاردن : للدكتور امين المعلوف . مقتل عثمان بن عفان : ليشيل سليم عبده

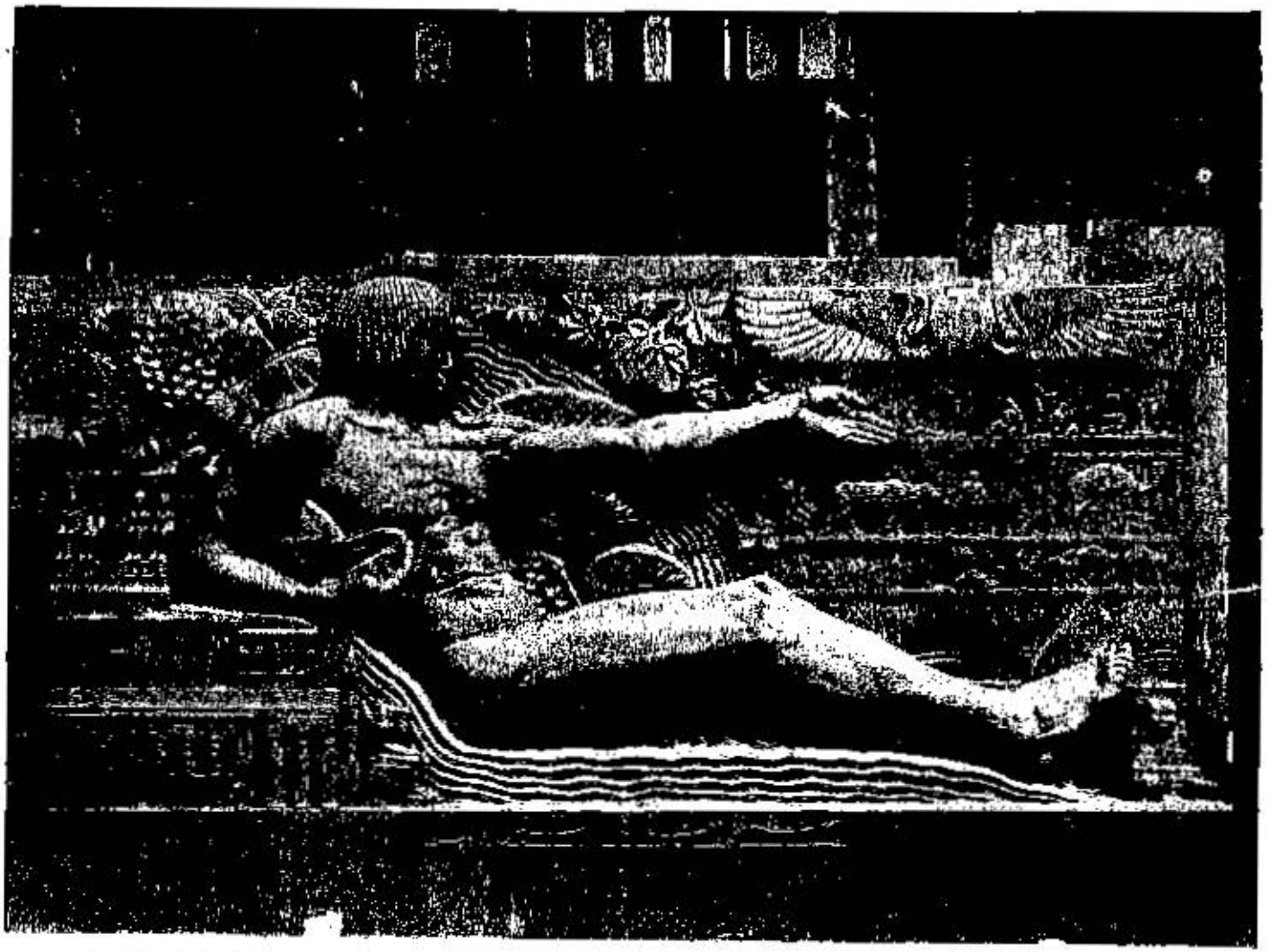

« معركة الخيل »

عمنا صنعه الفنان ادوار زكي غطاس